الإمام

الدكتور عبد الحليم محمود

مع الأنبياء والرسل



دار المعارف

الدكتور
عبد الحليم محمود

في رحاب الكون
مع الأنبياء والرسل

الطبعة الثالثة



دار المعارف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين..

﴿ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا﴾.

«فى رحاب الكون»

من أى زاوية؟

إن الكون مبسوط الرحاب، متعدد الجوانب، ولا يتأتى لفرد أو أفراد كثيرين أن يفسروا لنا رحاب الكون فى دقائقها، ومن أجل ذلك كان البحث على مر الأيام مستمرًا.

وكلما كشف البحث عن بعض القوانين، أو عن بعض الأسرار، كشف ذلك عن مجهولات جديدة.

ومن المعروف أنه كلما زاد التعمق فى المعرفة زاد الشعور بضخامة

المجهول: المجهول فى السماء، المجهول فى البحار، المجهول فى الكون، الذى لا يحد الخيال نهاياته..

من أى تيار سنتناوله..؟

إننا سنحاول أن نتحدث من الزاوية الروحية، وهذه الزاوية تبدأ منذ أن بدأ الأنبياء والرسل.

والحديث عن الأنبياء والرسل طويل مستفيض لا نستطيع أن نلم به: شخصية ورسالة.

ومن أجل ذلك، سنتحدث عنهم على النسق القرآنى، وعلى نسق حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم.

ولقد اقتصر القرآن الكريم، واقتصرت السنة الشريفه غالبًا على جوهر الأمور فى هذا، وعلى مافيه العبرة والعظة والتوجيه لبنى الإنسانية.

بيد أن الكون سبق وجود الأنبياء والرسل: متى؟ كيف؟.

إن هذه الأسئلة دارت فى كثير من الرءوس، منذ أن وجد الإنسان، وأخذ الإنسان يحاول أن يجد لها حلًا.

ولقد تحدثنا عن ذلك فى الإطار الذى التزمناه، وهو إطار القرآن والسنة. ونحن - إذن - حينما نؤلف هذا الكتاب فإنما نؤلف كتابًا خلا من الأساطير التى أغرم بها كثير من المؤلفين، وخلا من الخرافات التى غصت بها بعض الكتب التى ألفت فى الموضوع.

أما أهمية الموضوع بالنسبة للحديث عن الأنبياء فإنه واضح، وذلك أن الأنبياء هم القمة فى الخلق:

الإخلاص، الشجاعة الأدبية، الرحمة، الحرص على الأخذ بيد الآخرين لإنقاذهم من الضلال والحيرة والهموم، الدعوة إلى الأخوة العامة.

وهم القمة فى الدعوة إلى الوحدة الإنسانية تحت شعار الأخوة والدين. لقد دعا جميع الأنبياء إلى التوحيد، والتوحيد ثمرة وأساس لدعوة أخرى، هى إسلام الوجه لله، أو هى: الإسلام، الإسلام لله: إسلام القلب له، إسلام الجوارح له، إسلام الكيان الإنسانى كله لله..

وهذا الإسلام لله هو الدين، ولن يمارى أحد فى صدق هذا المعنى للدين، ومن أجل ذلك كان صدق قضية:

﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ إسلام الوجه لله..

إنها قضية صادقة شرقا وغربًا، وجنوبًا وشمالاً، فى الماضى وفى الحاضر وفى المستقبل.

وصدقت بالتالى قضية:

﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه﴾.

إنه من البديهى أن من يأبى إسلام الوجه لله لا يقبل تدينه..

لقد تمرد إبليس على إسلام الوجه لله فكانت نهايته الطرد من الجنة، وبين الله سبحانه أنه لا مثوى فى الجنة للمتكبرين، والمتكبر هو الذى لم

يسلم وجهه لله ولأنه لم يسلم وجهه لله، فإنه لا مكان له في الجنة..

فإذا ما كان إسلام الوجه لله، كانت الوحدة الروحية..

إن الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾.

وحدة الدين منذ أن وجدت الإنسانية إلى أن يقضى الله فى أمرها بما يشاء.

وهذا الكتاب – إذن – يبين كيفية إسلام الوجه لله، ويبين وحدة الدين، ويوضح الخلق الكريم فى قمته، فإذا ما أعطى صورة للهداية فى جو صادق هو جو الأنبياء، فإنه يكون قد أدى بعض الأهداف التى نرجوها من تأليفه.

وإذا ساعد على الهداية لفرد أو لأفراد، فإنه يكون قد أثمر ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه:

«لأن يهدى الله بك رجلاً.. خير لك من الدنيا وما فيها»

«ولأن يهدى الله بك رجلاً خير لك من حمر النعم».

والله الموفق، وإليه يرجع الأمر كله.

الإمام عبد الحليم محمود

ماقبل الإنسان

إن الإسلام آخر الأديان السماوية نزولاً، فإذا اتجهنا إليه، فى نظرة شاملة كلية لنرى فيه الصلة بين الكون وما وراء الكون، أى بين الله والعالم، بين الخالق والمخلوق، بين المكوّن والكون.. فنرى نظرته إلى الكون المادى، والكون الحسى والكون الاجتماعى، والكون الأخلاقى.

ونحن فى رحاب الكون نحتاج إلى معرفة زواياه وأركانه، مادية كانت أو روحية، ونحتاج إلى معرفة صلته بما وراءه مما هو فوق الطبيعة.

ونحن فى هذه الدراسة سنبتعد كل البعد عن الأساطير والأوهام، ولن نسير وراء الخيال ومتاهاته، وإنما سندرس الأمر من منابعه الأصلية، وهى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة

فإذا ما كنا بصدد آية كريمة فسنلتزم أصح التفاسير، وإذ كنا بصدد حديث شريف فسنلتزم صحة الحديث أو حسنه على الأقل.

ونبدأ أول ما نبدأ من ذلك بالابتداء الطبيعى العادى النظرى: وهو أن هذا الكون لم ينشأ مصادفة، ولم يوجد اعتباطًا، ولم يُكوّن اتفاقًا.

إننا ونحن فى رحابه نشاهد الترابط بحيث يمكن أن يقال فى يقين جازم: إن الكون كله سماواته وأرضه: وما بين السموات والأرض.. إن الكون بحاره وأنهاره، جباله ووديانه، نباته وحيوانه.

إن جميع أجزاء الكون تؤلف وحدة متكاملة مترابطة.

هذا التكوين المترابط فى ملايين الجزيئات الكونية، فى بلايين بلايين هذه الجزيئات ينفى فى تأكيد مؤكد فكرة الطبيعة العمياء، أو فكرة المصادفة والاتفاق..

وإذا انتفت فكرة المصادفة والاتفاق، فإن النتيجة التى تترتب على ذلك هى أن للكون مكوّنًا.

ولعل القارئ يلاحظ مما سبق أننا نبدأ الحديث بمسألة وجود الله والاستدلال على هذا الوجود، وأن ترابط الكون هو من الأدلة على وجود الله سبحانه وتعالى.

انظر إلى هذا الترابط فى قوله تعالى:

﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه: أنا صببنا الماء صبًا. ثم شققنا الأرض شقًا. فأنبتنا فيها حبًا وعنبًا وقضبًا، وزيتونًا ونخلاً وحدائق غلبًا، وفاكهة وأبًا متاعًا لكم ولأنعامكم﴾ (سورة عبس آية ٢٤-٣٢).

وانظر إلى الترابط بين السماء والأرض، وبين الماء والنبات فى قوله تعالى:

﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض، ثم يخرج به زرعًا مختلفًا ألوانه، ثم يهيج فتراه مصفرًا، ثم يجعله حطامًا، إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب﴾ (الزمر آية: ٢١).

هذا الترابط: أهو ترابط غائى؟ أى: ترابط هادف.

هذا الترابط بين بلايين أجزاء الكون الذى يعتبر دليلاً باهرًا على وجود الله إنما هو ترابط غائى على حد تعبير الفلاسفة، أى: ترابط له غاية، إنه ليس مجرد ترابط فقط، بل هو ترابط هادف فيه القصد، وفيه الغاية ومن أجل ذلك اعتبر هذا دليلاً على وجود الله، ولقد سمى هذا الدليل أيضًا الدليل الغائى، إذ أن كل شيء له غاية، وسمى أيضًا «دليل القصد» وذلك أن كل ما فى العالم مقصود لادخل للاتفاق فيه، هادف لادخل للمصادفة فيه وانظر إلى القصد والغاية فى قوله تعالى:

﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيّناها وما لها من فروج، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب، ونزلنا من السماء ماء مباركًا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد، والنخل باسقات لها طلع نضيد، رزقًا للعباد وأحيينا به بلدة ميتًا كذلك الخروج﴾ (ق آية: ٦-١١).

وانظر إلى قوله تعالى:

﴿والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، إن فى ذلك

لآية لقوم يسمعون.. وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصًا سائغا للشاربين.. ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سَكَرًا ورزقًا حسنًا إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون. وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتًا ومن الشجر ومما يعرشون، ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾ (النحل آية: ٦٥-٦٩).

وشيء آخر.. ما هو؟

- يجول فى أذهان بعض الناس، أن هذا الترابط الهادف، وهذا التماسك المقصود، قد تحقق بقوانينه الثابتة، وقواعده التى لا تتغير، وسننه التى لا تتخلف، وأن الله سبحانه وتعالى انتهى منه خلقًا وتدبيرًا وإحكامًا، فهو يسير الآن على التقدير الذى قدره الله، يسير آليًا إلى الغاية المرسومة، يسير تبعًا لنواميس انتهى الله منها ولا يتدخل سبحانه فيها: أى أن العالم يسير الآن وحده دون إرادة من الله تصاحبه فى كل حركة أو سكون، وفى كل نطق أو صمت.

وليس الأمر كذلك، إن النظرة الاسلامية هى أن الله سبحانه يمسك النظام المترابط فى كل لحظة وفى كل ثانية، وأنه سبحانه لو تخلف عن شيء منه طرفة عين لتلاشى وفى ذلك يقول سبحانه:

﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً﴾ (فاطر آية: ٤١).

هذه العقيدة تحتاج إلى إيضاح أكثر:

فى سورة فاطر نجد الآية الكريمة:
﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا﴾.

وهو سبحانه الذى يمسك الطير فى جو السماء، يقول سبحانه:
﴿ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء، ما يمسكهن إلا الله إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ (النحل آية ٧٩).

ويقول سبحانه: ﴿أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافَّات ويقبضن، ما يُمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شىء بصير﴾ (الملك آية: ١٩) وهو سبحانه مالك الملك يؤتيه فى أية لحظة من يشاء، وينزعه فى أية لحظة ممن يشاء..

وهو سبحانه الذى يصرف الليل والنهار كلما أشرق فجر وكلما غربت شمس.

وهو الذى يَهَب الحياة أو يسلبها كلما تنسم كائن الحياة، وكلما فارقها. يقول سبحانه:

﴿قل اللهم مالك الملك، تؤتى الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء، بيدك الخير، إنك على كل شىء قدير.

تولج الليل فى النهار، وتولج النهار فى الليل، وتخرج الحى من الميت، وتخرج الميت من الحى، وترزق من تشاء بغير حساب﴾ (آل عمران آية ٢٦-٢٧).

لعل القارئ الكريم يلاحظ استعمال الفعل المضارع فى هذه الآيات القرآنية، ودلالة الفعل المضارع إنما هى للحاضر وللمستقبل.

والآيات القرآنية من هذا القبيل كثيرة، يقول سبحانه:

﴿هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء، لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ (آل عمران آية: ٦).

ويقول سبحانه:

﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته، ولتجرى الفلك بأمره، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ (الروم آية: ٤٦)

ويقول سبحانه:

﴿الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفًا فترى الودق يخرج من خلاله، فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون. وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين. فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها، إن ذلك لمحيى الموتى وهو على كل شىء قدير﴾ (الروم آية ٤٨-٥٠).

– وما من شك فى أن الله خلق وقدّر، ووضع النواميس، وقعّد القواعد، وذلك شىء.. وإمساك كل ذلك والقيومية عليه شىء آخر، فمع الخلق الإمساك، الإمساك مستمر لا ينتهى، وهذا هو معنى القيومية، وهى من صفات الله تعالى، والقيوم اسم من أسمائه سبحانه..

ومعنى القيوم أنه القائم بنفسه، وأنه الذى يقوم به كل موجود حتى أنه لا يكون للأشياء وجود ولا دوام وجود إلا به.

أهى قيومية إمساك فحسب؟؟

كلا: إنها قيومية علم، وتدبير قائم على العلم، فضلاً عن كونها قيومية إمساك.

– إن قيومية الله على العالم هى قيومية إمساك للعالم وإلا لتلاشى، ومن هنا كان المعنى العميق للدعاء الذى يدعو به كثير من الصالحين وهو: اللهم لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ولا أقل من ذلك.

إذ أن الله لو وكل إنسانًا إلى نفسه لتلاشى، فهو ممسك له ماديًا، ولو وكله إلى نفسه روحيًا لصار فريسة سهلة للنفس الأمارة بالسوء، وللشيطان الموسوس بالشر.

وقيومية الله على العالم قيومية علم محيط شامل، فهو سبحانه كما يقول فى كتابه ﴿يعلم السر وأخفى﴾.

أما السر فأمره معروف، وإنما الأخفى من السر فهو ماقى دائرة اللاشعور.

وهو سبحانه:

﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور﴾

وهو سبحانه:

﴿عالم الغيب والشهادة﴾.

﴿الله يعلم ماتحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد، وكل شيء عنده بمقدار، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال. سواء منكم من أسرَّ القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار﴾ (الرعد آية: ٨-١٠).

وعلمه سبحانه ليس مقصورًا على الماضى أو الحاضر فحسب، ولكنه شامل للمستقبل أيضًا، يقول تعالى:

﴿ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير﴾ (الحديد آية: ٢٢)

وإذا كان الله سبحانه وتعالى أعلن أن علمه عام شامل بقوله:

﴿عالم الغيب والشهادة﴾ إذ أن عالم الغيب هو ماوراء الطبيعة، وعالم الشهادة هو الطبيعة فإن الله سبحانه قد فصل الأجزاء والجزئيات وبين أنه

يعلم اليسير والصغير والكبير.

يقول سبحانه:

﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين. وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليُقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾ (الأنعام آية: ٥٩-٦٠).

ويقول سبحانه:

﴿يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور، وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة، قل بلى، وربى لتأتينكم، عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين﴾ (سبأ آية: ٢-٣).

أما الأصغر من الذرة الذى ذكره الله سبحانه فى الآية الكريمة فلك أن تقول عنه فى سهولة ويسر، أنه البروتون والألكترون، ويكون القرآن بذلك قد أشار إلى تفتيت الذرة من قبل أن تفتت.

وهذه قيومية العلم وهى لا تنفك عن قيومية التدبير.

إن قيومية التدبير قائمة على قيومية العلم لا تنفك عنها، وهى تلازمها حتى لكأنها صفة واحدة.

- وقيومية التدبير هذه نبدأ الحديث فيها ببيان أنها قيومية نعمة، وأن التدبير الإلهي كان ولايزال معنيًا بالإنسان مدبّرًا له ما يكفل له الحياة النعيم في الحياة.

- وأنه سبحانه قد كيّف الأمور بحيث تتناسب مع الإنسان.

- وإذا كنا الآن قد اقتصرنا على استعمال كلمات الترابط الهادف، أو الترابط الغائي والإمساك والتدبير، فإننا الآن سنستعمل كلمة «العناية».

- إن الله سبحانه معنى بالعالم، وعنايته بالكون سارية في جميع أجزائه وذا كانت كلمة العناية لاتخرج بنا عن جو الترابط الهادف والإمساك والتدبير فإنها تلون الحديث عن دليل الترابط على وجود الله بلون آخر، وإذا تلون هذا الدليل باللون الرحيم الرقيق سمى دليل العناية.

والقرآن غاص بتوجيه الأنظار إلى عناية الله بالكون، وعلى الخصوص بالإنسان في رحاب الكون.

فمن أجل الإنسان كانت رحمة الله فيضة بالنعم، إنه فياضة بالنعم على الإنسان في نفسه.

يقول سبحانه:

﴿ألم نجعل له عينين، ولسانًا وشفتين، وهديناه النجدين﴾ (البلد آية: ٨-١٠).

ويقول سبحانه:

﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل

بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ (الروم آية:٢١).

ويقول تعالى:

﴿ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾ (الاسراء آية:٧٠).

ويتحدث الله سبحانه عن نعمه العديدة التى أسداها إلى الانسان. فنعمة الليل والنهار بيّنها الله سبحانه بقوله:

﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدًا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون. قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدًا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون؟ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ (القصص آية: ٧١-٧٣).

- إن دليل العناية هذا من أجمل الأدلة على وجود الله الذى يقول:

﴿ألم تروا أن الله سخر لكم مافى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة، ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولاكتاب منير﴾ (لقمان آية: ٢٠).

- وسنذكر مسترسلين مع التيار القرآنى أقوالاً لبعض الحكماء تؤيد هذا الدليل من حيث الترابط الهادف أو من حيث العناية.

إن عناية الله السماوية فى الكون كله، والتى يلاحظها الإنسان فى عينيه تبصران، وفى أذنيه تسمعان، وفى عقله يفكر، وفى لسانه ينطق، إن عناية الله التى يلاحظها الإنسان فى كل مايحيط به ويغمره من نعم الله تنفى المصادفة والاتفاق.

وإن الترابط الهادف يلغى المصادفة والاتفاق.

وأن القصد الظاهر فى نظام الكون ينفى المصادفة والاتفاق.

ولنتحدث الآن عن التركيب، وكيف أنه يرشد إلى الصانع.

– خذ شيئًا من أيسر الأشياء فى تركيبه، خذ الفأس مثلًا التى يستعملها الفلاح فى حقله، أو المعول الذى يستعمله العامل فى عمله، إذا مر إنسان على الفأس فرأى قطعة من الخشب ملساء مستطيلة قد ثبتت فيها بطريقة محكمة قطعة من الحديد على هيئة خاصة، أتراه يظن أن ذلك وليد المصادفة البحتة، وإذا كان ذلك الظن لا يتأتى فى اليسير السهل، فإنه من باب أولى لا يتأتى فى المعقّد الكثير التركيب كالساعة أو جهاز الراديو مثلًا..

والآن قدِّر فى ذهنك كما يقول المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز:

– بيتًا متسق البنيان، فاخر الأثاث والرياش، قائمًا على جبل مرتفع تكتنفها غابة كثيفة.. وقدر أن رجلًا جاء إلى هذا البيت فلم يجد فيه ولا حوله ديّارًا ولا نافخ نار.. فحدثته نفسه بأنه عسى أن تكون صخور الجبل قد تناثر بعضها، ثم تجمع ما تناثر منها ليأخذ شكل هذا القصر البديع

بما فيه من مخادع ومقاصير، وأبهاء، ومرافق، وأن تكون أشجار الغابة قد تشققت بنفسها ألواحاً وتركبت أبوابًا وسررًا ومقاعد ومناضد، ثم أخذ كل منها مكانه فيه، وأن تكون خيوط الثياب وأصواف الحيوان وأوباره قد تحولت بنفسها أنسجة موشاة، ثم تقطعت طنافس، فانبثت فى حجراته واستقرت على أرائكه، وأن المصابيح جعلت تهوى إليه بنفسها من كل مكان، فنشبت فى سقفه زرافات ووحداناً.. ألست تحكم بأن هذا حلم نائم، أو حديث خرافة. قد أصيب صاحبه باختلاط فى عقله؟ فما ظنك بقصر، السماء سقفه، والأرض قراره، والجبال أعمدته، والنبات زينته، والشمس والقمر والنجوم مصابيحه! أيكون فى حكم العقل أهون شأناً من ذلك البيت الصغير؟

أو لا يكون أحق بلفت النظر إلى بارئ مصور، حي قيّوم، خلق فسوّى وقدّر فهدى؟

– إن الاستدلال على وجود الله سبحانه بدليل العناية قديم قدم الإنسانية نفسها.. فكل إنسان يشعر بأنه مغمور بنعم الله سبحانه فى داخل نفسه، وفى خارجها ويقول الله تعالى معبراً عن حقيقة يلاحظها كل إنسان بتدبر يسير:

﴿وإن تعُدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ (إبراهيم آية: ٣٤).

ويقول أيضا:

﴿وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾ (لقمان آية: ٢٠).

– بهذا الدليل نفسه يقيم أحد الحكماء الحجة على أحد المنكرين لوجود الله. كان ذلك في العصر اليوناني، وكان المنكر هو أرسطو ديموس وهو غير أرسطو الشهير وجرى الحديث بينه وبين سقراط، أبي الفلاسفة على النحو التالي:

قال سقراط: أفي الناس من يعجبك براعته في الصنائع؟ قال: نعم! وسمى من الشعراء والمصورين ممن كان يعده أبرع من غيره.

فقال سقراط: أيهما عندك أرفع شأنًا؟ من يصنع التماثيل العارية عن الحركة والعقل، أم من يصور الأشباح الحية المتحركة؟

فقال: من يصنع الصورة الحية، اللهم إلا إذا كانت تلك الصور من عمل الاتفاق، لا من عمل العقل.

قال سقراط: إذا فرضنا أشياء لا يظهر المقصود منها، وأشياء أخرى بينة القصد والمنفعة، فما قولك في تلك الأشياء؟ ما هي التي عندك من فعل العقل وما هي التي عندك من فعل الاتفاق؟

قال: لاشك أن ماظهر قصده ومنفعته من فعل العقل.

قال سقراط: أو لست ترى أن صانع الإنسان في أول نشأته جعل له آلات الحس لما في تلك الآلات من المنفعة الظاهرة، فأعطاه البصر والأذنين ليبصر ويسمع مايكون لعيشه نافعًا صادقًا؟ وما فائدة الروائح لو لم تكن

لنا أنوف نشمها؟ وكيف ندرك المطاعم ونفرق بين المر والحلو والمز، لو لم يكن لنا لسان يذوق به؟

إن بصرنا معرض للآفات، أو لست ترى كيف اعتنت القدرة الإلهية بذلك فجعلت الأجفان كالأبواب لتمنع مايصيب البصر، وجُعلت الأهداب كالمناخل لتقيها من أضرار الرياح؟

وما قولك فى آلة السمع وهى تقبل جميع الاصوات ولا تمتلئ أبدا؟ أما رأيت الحيوانات وكيف رتبت أسنانها المقدمة وأعدت لقطع الأشياء فتلقيها إلى الأضراس فتدقها دقًا؟

فإذا تأملت فى ترتيب ذلك أيمكنك أن تشك: هل هى من فعل الاتفاق أم هى من فعل العقل؟

قال أرسطو ديموس: نعم إذا تفكرنا فى ذلك فإننا نؤمن أنها من فعل صانع حكيم، كثير العناية بمصنوعاته.

– تحدثنا من قبل عن المصادفة ولكننا لم ننته منها بعد:

– متى أقامت المصادفة قصرًا؟، بل متى كونت غرفة واحدة ببابها ونوافذها؟ بل ومتى كونت بابًا، مجرد باب محكم الصنع..؟

أرأيت لو جاء إنسان بآلاف من حروف الطباعة، أو بملايين منها وأخذ يحركها يومًا بعد يوم، وأسبوعًا بعد أسبوع، وسنة بعد سنة، أتراه يظفر منها

- مصادفة - بتركيب لها هو كتاب من كتب الأدب أو الفلسفة أو الرياضة؟

- إنه كما يقول المستشرق «سانتلانا» لو دام على تحريكها السنين والدهور لما حصل من كدّه إلا على حروف.

- وإذا كان الأمر كذلك فكيف يتصور -كما يقول سانتلانا أيضًا- حدوث هذا الوجود (العالم) بما هو عليه من الإتقان والإحكام، وتضافر الأجزاء، وعجيب مناسباتها بعضها لبعض، من حركات اتفاقية فى خلاء لا نهاية له كما يقول الماديون.

وما من شك فى أن أصحاب العقول المتزنة يتفقون مع أرسطو فى قوله من أن كل نظام يدل على العقل.

أما الكندى: الفيلسوف العربى الذى كان أول فيلسوف نشأ فى الإسلام والذى ولد سنة ١٨٥هـ ومات سنة ٢٥٢هـ فإنه يرى:

- أن الصنعة فى باب أو سرير أو كرسى بما يظهر فيها من تأليف وترتيب متقن محكم ليست أدل على الصانع من دلالة الكون عليه سبحانه، إن ذوى العقول الصافية لا يشكون فى ذلك، إننا إذا نظرنا إلى هذا العالم فى جملته - كما يقول لكندى - وجدناه مترابطًا مقدرا على النحو الأنفع الأحكم ووجدنا بعضه علة لكون بعض، وبعضه مصلحة للبعض. وكل ذلك ظاهر لمن كان فى مرتبة إدراك الصورة العامة.

- ويقول الكندى أيضًا:

- إن فى الظواهر والمظاهر التى تبدو للحواس لأوضح الدلالة على تدبير مدبر أول.

فإن فى نظم هذا العالم وترتيبه، وفعل بعضه فى بعض، وانقياد بعضه لبعض، وتسخير بعضه لبعض، وإتقان هيئته على الوجه الأصلح فى كون كل كائن وفساد كل فاسد، وثبات كل ثابت، وزوال كل زائل.. لأعظم دلالة على أتقن تدبير، ومع كل تدبير مدبر، وعلى أحكم حكمة، ومع كل حكمة حكيم، وذلك أن اقتضاء التدبير للمدبر، والحكمة للحكيم أمر لا يختلف فيه اثنان.

إن هذا النهج الاستدلالى الذى سرنا عليه للآن هو النهج الذى يقول فيه «كنت» فيلسوف «ألمانيا الأكبر»:

إنه أوضح الأدلة وأقواها على وجود الله، وهو نهج قرآنى إسلامى، بيد أن فى الإسلام نهجًا آخر فى موضوع وجود الله سبحانه وتعالى.

إن دليل القصد، أو دليل العناية. أو دليل الترابط الذى سبق أن تحدثنا عنه بألوانه المتعددة لا يعدو أن يكون دليلاً واحدًا يسمى باسم اللون الغالب الذى يظهر فيه.

وهو لا يعدو أيضًا أن يكون دليل الأثر على المؤثر، ودلالة الأثر على المؤثر دلالة سهلة واضحة.

وإذا كان أثر القدم يدل على المسير كما قال الأعرابى قديمًا: فإن سماء ذات أبراج، وأرضًا ذات فجاج يدلان - لا ريب - على الحكيم الخبير.

وهذا النهج من وضع «وجود الله» موضع الاستدلال ليس هو النهج الوحيد فى الجو الإسلامى.

وذلك أن الله سبحانه وتعالى فى أعراف المؤمنين ظاهر ظهورًا واضحًا، إنه أظهر من كل ما سواه، إن المؤثر فى أعراف المؤمنين أظهر من الأثر، والخالق أوضح من الخلق. والمكون أجلى من الكون.. وإن من أسماء الله اسم: الظاهر.

ويتفاعل الإمام الكبير، إمام الشريعة والحقيقة، تاج الدين بن عطاء الله السكندرى مع هذا المعنى فيقول - متفننًا فى التعبير والمعنى - جملة من التعبيرات تتحد ألفاظها إلا لفظًا واحدًا أو لفظين فيتغير المعنى بسبب ذلك ويكون للعبارات فى مجموعها معنى لطيف، إنه يقول:

- كيف يتصور أن يحجبه شىء، وهو الذى أظهر كل شىء.
- كيف يتصور أن يحجبه شىء، وهو الظاهر قبل وجود كل شىء.
- كيف يتصور أن يحجبه شىء، وهو أظهر من كل شىء.
- كيف يتصور أن يحجبه شىء، وهو أقرب إليك من كل شىء.
- كيف يتصور أن يحجبه شىء، ولولاه ما كان وجود شىء.

أما عن الاستدلال بالأثر على المؤثر، فإن ابن عطاء الله يقول فى مناجاته:

إلهى، كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك.

والمفتقر إلى الله، فى كلمة ابن عطاء الله، هو الكون كله، هو هذه الآثار كلها فى وجودها، وفى ارتباطها، وفى إمساكها، وفى العناية بها.

ويتابع ابن عطاء الله مناجاته فيقول متجها إلى الله:

أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟

- ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك؟

هل هذا نهج انتهجه ابن عطاء الله مبتدعًا له، مخترعًا له؟ أم أنه نهج عام تتبعه طائفة كبيرة؟

- إن ابن عطاء الله السكندرى صاحب كتاب «الحكم» وهو الكتاب الذى قال فيه الشيخ محمد عبده:

كاد «الحكم» أن يكون قرآنًا.. إن ابن عطاء الله السكندرى هذا لم يكن صاحب فكرة ظهور الله ظهورًا لا يحتاج إلى برهان أو استدلال، وإنما كان سائرًا فى تيارها، مقرًا له، ومؤيدًا.

وقد كان أحد أفراد طائفة من الخاصة، أو خاصة الخاصة، ترى أن

الاستدلال على وجود الله من شأن العامة والجمهور، وليس من شأن الخاصة والصفوة.

- يقول ابن عطاء الله معبرًا فى ذلك عن رأى الصفوة:

وأرباب الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان..

لأن أهل الشهود والعيان قدسوا الحق فى ظهوره عن أن يحتاج إلى دليل يدل عليه، وكيف يحتاج إلى دليل من نصب الدليل؟

وكيف يكون معروفًا به وهو المعروف له.

وهذه الطائفة ترى أن الدليل على الله هو الله.

ولقد سئل أحد العارفين عن الدليل على وجود الله فقال:

- هو الله.

فقيل له: فما العقل؟

فقال: العقل عاجز لا يدل إلا على عاجز مثله.

بل يرى هؤلاء الصفوة، أن الله هو الدليل على العالم، فهم يستدلون بالله على وجود العالم، ولا يستدلون بوجود العالم على وجود الله.

يقول ابن عطاء الله معبرًا عن ذلك:

شتان بين من يستدل به ومن يستدل عليه، المستدل به عرف الحق لأهله

فأثبت الأمر عن وجود أصله، والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه، وإلا فمتى غاب حتى يستدل عليه؟

ومتى بعد حتى تكون الآثار هى التى توصل إليه؟

ومن قبل ابن عطاء الله.. تحدث أيضًا على هذا النهج العالم الجليل الشيخ أبو الحسن الشاذلى، إنه يقول:

وإذا كان من الكائنات ما هو غنى بوضوحه عن إقامة دليل فالمكون أولى لغناه عن الدليل منها.

ويقول: وكيف تكون الكائنات مظهرة له وهو الذى أظهرها؟ وكيف تكون معرفة له وهو الذى عرفها؟

ويتعجب الشاذلى رضى الله عنه من هؤلاء الذين يتخذون الكائنات والكون دليلاً على الله فيقول على الأسلوب الصوفى:

ومن أعجب العجب أن تكون الكائنات موصلة إليه، فليت شعرى هل لها وجود معه حتى توصل إليه؟ أو هل لها من الوضوح ما ليس له حتى تكون هى المظهرة له؟ وهذا هو النهج الصوفى.

ومهما يكن من شىء فإنه سواء سار الانسان على النهج الصوفى، أو على نهج الاستدلال، فالله موجود، وقد كان سبحانه فى أزل ولا شىء معه، ثم خلق الخلق فكيف بدأ ذلك؟

إن الناس فى كل زمان ومكان يشتاقون إلى معرفة كيفية خلق العالم، ويكثر تساؤلهم بمتى وكيف؟ ويريدون تحديدًا محددًا عن الأول من المخلوقات وعما بعده، إنهم يريدون ترتيبًا يكون فيه التعيين والتحديد.

لقد شغلت هذه المسألة الكثير من الصحابة فأخذوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها، بل إن الوفود كانت تأتيه من بعيد، يدفعها حب الاستطلاع، ويتجشمون السفر من أجل المعرفة، هاهم أولاء ناس من أهل اليمن - كما يروى الإمام البخارى رضى الله عنه - يأتون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون: جئنا نسألك عن هذا الأمر، أى أمر الخلق، خلق الكون، لقد جاءوا من اليمن يسألون عن:

- متى وكيف؟

لقد روى الإمام البخارى أيضًا عن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال:

قام فينا النبى صى الله عليه وسلم مقامًا فاخبرنا عن بدء الخلق، حتى دخل أهل الجنة منازلهم، وأهل النار منازلهم حفظ ذلك من حفظه، ونسيه من نسيه.

ومعنى كلام سيدنا عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أخذ يحدث الصحابة عن بدء الخلق متدرجًا مع الترتيب حتى انتهى إلى نهاية العالم ومصيره، والبعث والحساب حتى دخل الذين نالتهم رحمة الله الجنة، والذين اكتسبوا السيئات عاقبهم الله بما كسبت أيديهم فأدخلهم النار.

ولقد روى عن بعض الصحابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبهم فى ذلك من العصر إلى أن غربت الشمس، ويبدو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب فى ذلك عدة مرات.

فقد روى الإمام مسلم عن أبى زيد الأنصارى قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح فصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر، ثم نزل فصلى بنا الظهر ثم صعد المنبر فخطبنا، ثم صلى العصر كذلك حتى غابت الشمس فحدثنا بما كان وما هو كائن، فأعلمنا أحفظنا.

ولقد روت الأحاديث الصحيحة جملة من القضايا منها: ما رواه الإمام البخارى عن عمران بن حصين رضى الله عنهما وهى إجابة الرسول صلى الله عليه وسلم على سؤال وفد اليمن:

والقضية الأولى من ذلك:

كان الله ولم يكن شىء غيره.

– القضية الثانية:

كان عرشه على الماء.

القضية الثالثة:

أنه سبحانه وتعالى كتب فى الذكر كل شىء «أى فى محل الذكر، أى اللوح المحفوظ».

القضية الرابعة:

أنه تعالى خلق السموات والأرض.

القضية الأولى تثبت أنه سبحانه لم يكن - فى الأزل - شىء غيره. لم يكن الماء، ولم يكن العرش، ولم يكن شىء سواه سبحانه.

أما القضية الثانية: فإنها تدل على أنه سبحانه خلق الماء سابقًا، ثم خلق العرش على الماء.

أما القضية الثالثة: فيفسرها ما ورد فى حديث آخر من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم خلق القلم فقال له اكتب ما هو كائن.

وكان خلق السموات والأرض وما فيهن بعد ذلك.

الماء والعرش إذن كانا مبدأ هذا العالم لكونهما خُلقَا قبل السموات والأرض.

وللقرآن شىء من التفصيل فى مسألة خلق السموات والأرض.

يقول الله سبحانه:

- ﴿قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادًا، ذلك رب العالمين﴾ (فصلت آية: ٩)

ثم صورها، شكلها، وجعل فيها رواسى، أى الجبال التى سماها أيضا أوتادًا، وبارك فيها، وقسم أرزاقها، ونظم مصادرها، ومواردها، ورتبها كيفًا فى يومين آخرين، فتكون الأرض مادة، وتنظيمها كمًا وكيفًا، قد استغرقت أربعة أيام.

يقول تعالى:

﴿وجعل فيها (أى الأرض) رواسى من فوقها وبارك فيها، وقدر فيها أقواتها، فى أربعة أيام سواء للسائلين﴾. (فصلت آية: ١٠)

وكلمة «سواء للسائلين» معناها أنه سبحانه جعلها مستوية معتدلة مذللة للطالبين للرزق، والمعاش. وفى هذا المعنى يقول الله تعالى:

﴿هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً، فامشوا فى مناكبها (أى فى أرجائها) وكلوا من رزقه، وإليه النشور﴾. (الملك آية: ١٥)

ولعل القارئ الكريم يتساءل عن مقدار اليوم من هذه الأيام؟

والواقع أنه غير معروف، وذلك أن الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿وإن يومًا عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾ (الحج آية: ٤٧)

ويقول أيضا عن يوم عروج الملائكة والروح إليه:

﴿تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، فاصبر صبرًا جميلاً﴾ (المعارج آية: ٤-٥).

ومن الجائز أن يكون اليوم الذى كان فيه الخلق مثل ذلك أو أقل منه أو أكثر، وكل تحديد فى هذا الموضوع إنما هو ضرب من الخيال.

ومن المعلوم أن أيامنا هذه لم تكن قد وجدت بعد فلم تكن هناك بعد الدورة الشمسية أو الأرضية أو القمرية.. لأن كل ذلك إنما وجد بعد تكامل الخلق، ولم يكن الخلق إذ ذاك قد تكامل.

ثم خلق الله سبحانه سبع سموات، وأوحى فى كل سماء أمرها: أى رتبها كيفًا، ونظمها تدبيرًا، ووضع للسماء الدنيا زينة تتألق وتتلألأ هى الكواكب والنجوم.

يقول سبحانه:

﴿فقضاهن سبع سماوات فى يومين، وأوحى فى كل سماء أمرها، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظًا، ذلك تقدير العزيز العليم﴾ (فصلت آية: ١٢).

ومن الواضح فى القرآن والأحاديث النبوية الشريفة، أن الكواكب والنجوم ليست سماوات وإنما هى زينة للسماء الدنيا، وهى على سعتها وعلى مساحتها الهائلة وما بينها من أبعاد، يذهل الانسان أن يعرف مداها، وعلى الرغم من كل ما يقوله علماء الفلك عن سرعة الضوء، وعما بيننا وبين بعض النجوم من سنوات ضوئية لا تكاد تعد، على الرغم من كل ذلك فإن هذه النجوم والكواكب إنما هى زينة السماء الدنيا ومصابيح حفظ وهداية، إنها ليست السماء، والسماوات من بعدها.

هذا الخلق المتكامل يتحدث الله عنه سبحانه فى هذه الصورة الجميلة من الحديث حيث يقول سبحانه:

﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها، وزيناها وما لها من فروج. والأرض مددناها، وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب، ونزلنا من السماء ماءً مباركًا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد، والنخل باسقات لها طلع نضيد، رزقًا للعباد وأحيينا به بلدة ميتًا كذلك الخروج﴾ (ق آية: ٦-١١).

ولقد تحدثنا عن الخلق المادى، متى بدأ الخلق الروحى: الخلق الحى: الملائكة والجن والإنسان؟

- كان الله ولا شىء غيره، وكان عرشه على الماء.

متى بدأ خلق الملائكة؟

أكان خلقهم قبل العرش والماء؟ أم كان بعد العرش والماء؟

أكان خلقهم قبل السموات والأرض؟ أم بعد خلق السموات والأرض؟

إن الأمر المقطوع به هو أن الملائكة كانت قبل خلق آدم، وذلك أن الله سبحانه وتعالى قبل خلقه خاطب الملائكة قائلاً:

﴿إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾.

وكانت الأرض إذ ذاك مخلوقة تنتظر من يعمرها.

ومن المرجح أن الملائكة خلقت قبل العرش، والماء، وذلك أن الله سبحانه يتحدث عن الملائكة حملة العرش، ومادام العرش تحمله الملائكة فمن المعقول أن تكون الملائكة خلقت قبله لتحمله فور خلقه.

وقد يتساءل إنسان عن الطبيعة الجسمانية للملائكة، وعن عملهم؟

أما عن طبيعتهم الجسمانية فإن الإمام مسلم يروى عن عائشة رضى الله عنها قالت:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خلقت الملائكة من نور».

أما عن عملهم: فإن الله سبحانه أقامهم فى أعمال يقومون بها ويتصرفون فيها بإذنه: فمنهم حملة العرش، ومن الطريف أن حملة العرش مع قيامهم بمهمتهم فإنهم لا يفترون عن التسبيح بحمد ربهم ويؤمنون به. أى يترقى إيمانهم به فى كل لحظة تمر بسبب تسبيحهم بحمده المستمر.

ولا ريب أن الذكر سواء أكان من الملائكة، أم من بنى البشر، قد جعله الله سبحانه سببًا فى زيادة الإيمان ورقيه.

ثم أن حملة العرش هؤلاء – فضلاً عن ذلك – يستغفرون للذين آمنوا من بنى البشر ومن غيرهم.

ومن الطريف أنهم يعللون طلبهم المغفرة بأن الله سبحانه قد وسعت

رحمته كل شىء.. ووسع علمه كل شىء، ويلجأون إلى الله بالدعاء والضراعة طالبين منه المغفرة لكل من تاب واتبع الطريق الذى بينه الله ليسير فيه المؤمنون، ويلجأون إلى الله أيضًا بالضراعة طالبين منه سبحانه أن يجنب التائبين المتبعين لطريق الهدى عذاب جهنم، وأن يدخلهم جنات عدن التى وعدهم، وأن يقيهم السيئات، والآيات القرآنية التى ذكرت ذلك فى غاية الجمال أسلوبًا ومعنى.

يقول الله تعالى:

﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا، ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلمًا فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم، ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم.. وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته، وذلك هو الفوز العظيم﴾ (غافر آية: ٧-٩).

وإذا كيف الانسان ظروفه بحيث جعلها لا تمنعه من ذكر الله ومن الدعاء للمؤمنين فقد تشبه بحملة العرش، وما ذكرت القصة فى القرآن إلا لتكون مثلاً يحتذى.

أتلك هى أعمال الملائكة فحسب؟ كلا.

- إن الله سبحانه وتعالى قد أقام الملائكة فى أعمال يتصرفون فيها

بإذنه وما من شك فى أن جميع حركاتهم هى بإذن الله، ولقد روى الإمام البخارى عن ابن عباس رضى الله عنه قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل: ألا تزورنا أكثر مما تزورنا؟

قال: فنزلت الآية الكريمة:

﴿وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيًا﴾ (مريم آية: ٦٤).

فهم فى كل ما يأتون وما يدعون إنما يصدرون عن أمر الله.

ولقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى أنه يرسلهم أحيانًا لنصرة المؤمنين فى الحرب.

إنه يرسلهم أحيانًا لتثبيت المؤمنين كما فعل ذلك فى غزوة بدر قائلاً: ﴿فثبتوا الذين آمنوا﴾.

ويرسلهم أحيانًا مددًا كما فعل ذلك فى غزوة بدر أيضًا، يقول سبحانه:

﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة. فاتقوا الله لعلكم تشكرون. إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين. بل إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين﴾ (آل عمران آية: ١٢٣-١٢٥).

ومعنى مسوَّمين: أى لهم سمات وعلامات يعرفون بها.

ولعل القارئ الكريم قد لاحظ أن من الشروط التى علق الله عليها إرسال الملائكة: الصبر والتقوى.

ومن طريف ما تروى كتب السيرة من عمل الملائكة فى غزوة أحد القصة التى ننقلها كما وردت:

دخل حنظلة بن أبى عامر على زوجته أول ما دخل بها فنودى بالجهاد فى غزوة أحد من ليلته، فخرج مسرعا إلى المعركة، وأظهر ضروبًا من البسالة والشجاعة حتى أتاه سهم مفاجئ فاستشهد، وبعد المعركة قال الرسول صلى الله عليه وسلم:

«لقد رأيت حنظلة بن أبى عامر تغسله الملائكة بماء المزن فى صحاف الفضة بين السماء والأرض».

فذهب الصحابة إليه وهو فى القتل فوجدوا شعره يقطر ماءً، فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك، فقال:

اذهبوا إلى زوجته فاسألوها:

فذهبوا إليها فقالت:

إنه لما سمع الداعى إلى الجهاد خرج مسرعًا وهو جنب، دون أن يغتسل فرجعوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبروه فقال:

من أجل ذلك غسلته الملائكة.

وللملائكة أدوار جميلة منها ما رواه الإمام البخاري:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

إذا أحب الله العبد: نادى جبريل، إن الله يحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل، فينادى جبريل فى أهل السماء: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول فى الأرض.

ولا يسعنا ونحن نقص بعض الأعمال التى أقام الله سبحانه فيها الملائكة وأذن لهم فى التصرف فيها: إلا أن نقص القصة التالية التى رواها الإمام البخارى وغيره من كتاب السنة وكتاب السيرة.

قالت السيدة عائشة لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟

وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقص عليها ما لقيه من قومها مبينًا أن أشد يوم كان يوم العقبة، إذ عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم رسالته على (عبد ياليل) وطلب فى الوقت نفسه معاونته على تأدية الرسالة وتبليغها، فلم يجبه ورده ردًّا فيه سخرية، وفيه قسوة.

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

فانطلقت وأنا مهموم على وجهى، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب،

(وقرن الثعالب مكان على بعد يوم من مكة) فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام، فناداني، فقال:

إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث لك ملك الجبال فلتأمر بما شئت فيهم. ثم ناداني ملك الجبال فسلم عليّ، ثم قال:

يا محمد قد بعثني الله، إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال قد بعثني إليك ربك لتأمرني ما شئت، إن شئت أطبق عليهم الأخشبين، (والأخشبان جبلان يشرفان على مكة) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئًا..

ومن هذا الحديث الصحيح تعلم أن الله قد وكل بالجبال ملكًا يطبقها جزئيا أو كليا على من يشاء الله إهلاكه.

أما رد رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو في غاية الروعة:

لقد أساء إليه قومه بالكثير من وسائل الإساءة، فلم يحاول أن يقابل السيئة بالسيئة وإنما كان رجاؤه أن يخرج الله منهم ومن أولادهم من يؤمن بالله ويوحده ولقد كان صلى الله عليه وسلم يقول في مواقف كهذا الموقف:

اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون. .

وإذا كنا قد ذكرنا هذا الموقف بالذات للرسول صلى الله عليه وسلم،

فلأن هذا الموقف الذى ذكرناه يتمشى مع قوله تعالى:

﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾..

ومع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم:
«إنما أنا رحمة مهداة».

الإيمان بالملائكة

إن الإيمان بوجود الملائكة حقيقة واقعة، والإيمان بأن الله وكل إليهم فى العالم أدوارًا يقومون بها ويتصرفون فيها بإذنه، إن ذلك من أصول الإيمان ومن أجل أنه من أصول الإيمان الإسلامى، نزيد الأمر وضوحًا.

عن أبى هريرة رضى الله عنه فيما رواه الإمام البخارى قال:

كان النبى صلى الله عليه وسلم، بارزًا يومًا للناس فأتاه جبريل فقال: ما الإيمان؟

قال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث.

لقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث الصحيح الإيمان بالملائكة جزءًا من الإيمان.

والقرآن الكريم يتحدث عن الملائكة فى كثير من سوره وآياته، يقول تعالى:

﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا، تتنزل عليهم الملائكة ألا

تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة﴾. (فصلت آية: ٣٠ - ٣١).

إن القرآن الكريم، يرشد فى هذه الآية إلى أن الملائكة تنزل نزولاً حقيقيًا تبشر هؤلاء الذين آمنوا واستقاموا بعدم الخوف وعدم الحزن، وتبشرهم بالجنة وتؤكد لهم أنها معهم بالمرافقة والرعاية والعناية فى الدنيا والآخرة وفى هذا المعنى يقول الإمام الغزالى فى كتابه المنقذ من الضلال عن تجربة:

ومن أول الطريق (الطريق الصوفى) تبتدئ المكاشفات والمشاهدات حتى أنهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتًا، ويقتبسون منهم فوائد.

وإذا كانوا ينزلون على المؤمنين المستقيمين، فهم من باب أولى ينزلون على الأنبياء والرسل مبشرين ومؤانسين ومؤيدين.

وهاهو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى جبريل يقظة، ومما هو معروف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يناجى الملائكة، وكان لا يأكل البصل والثوم. من أجل ذلك يقول ابن خلدون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك:

«إنه بجبلته يتنزه عن المطعومات المستكرهة، فقد كان صلى الله عليه وسلم لا يقرب البصل والثوم فقيل له فى ذلك، فقال: إنى أناجى من لا تناجون.

ومن الطريف الجميل الغريب، ما حدث من محاولة السيدة خديجة رضوان الله عليها فى أول بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم، من عمل تجارب على الملائكة لتتثبت من أنهم ملائكة حقا:

لقد أخبرها رسول الله صلى الله عليه وسلم، بإتيان الملك وعرفها بالوحي، وأن الملك يأتيه حتى وهى معه فى البيت فقالت: أخبرنى به حينما يأتى، وأخبرها حينما حضر.

فقالت: اجعلنى بينك وبين ثوبك، فلما فعل ذلك ذهب عنه.

فقالت: رضوان الله عنها: إنه ملك وليس بشيطان، ومعناه - كما يقول ابن خلدون - أنه لا يقرب النساء.

وكذلك سألته عن أحب الثياب إليه التى يأتيه فيها.. فقال: البياض والخضرة فقالت: إنه الملك..

ويقول ابن خلدون فى ذلك: يعنى أن البياض والخضرة من ألوان الخير والملائكة، والسواد من ألوان الشر والشياطين.

خلق الله الملائكة قبل خلق الإنسان، وعن خلق الإنسان سنبدأ إن شاء الله الحديث.

* * *

تبينا مما سبق أن الخلق: الماء والعرش والملائكة والجن والأرض والسماء، كل ذلك كان قبل خلق الإنسان.

إن قصة خلق الإنسان، وما أحاط بها من ظروف فيها عظات وعبر يجب ألا نمر عليها غافلين.

من قبل الخلق، وحينما كان فى تقدير العزيز العليم، أن خلق آدم على وشك التحقيق، خاطب الله الملائكة قائلاً:

﴿إنى خالق بشرًا من صلصال من حمإ مسنون﴾.

وبين لهم وظيفته وعمله فقال سبحانه:

﴿إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾.

لقد أخبرهم الله بذلك، كما يعلن عن الأمر العظيم قبل حدوثه.

وما من شك فى أن خلق الإنسان أمر هائل وحدث ضخم، له حكمته ولم يكن الملائكة يتوقعون ذلك، ولم يكونوا ينتظرونه، إنهم كانوا يرون أنهم يسبحون لله ويعبدونه لا يفترون، وأنهم لا يعصونه سبحانه فيما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون. ولم يدر بخلدهم أن الكون دون الإنسان كان ناقصًا، وأنه لابد لكماله من وجود الإنسان.

ولقد نبهتهم كلمة.. من صلصال من حمأ مسنون -والصلصال هو الطين والحمأ هو المتغير منه الشديد السواد من طول مجاورته للماء، والمسنون هو المصور، أو المصبوب مثله مثل الجواهر المذابة تصب فى القوالب.. ونبهتهم أيضًا كلمة (فى الأرض) إلى طبيعة هذا الكائن الذى يوشك الله سبحانه أن يحقق وجوده. لقد نبهتهم هذه الكلمات إلى أن طبيعة هذا الكائن وفطرته

ليست نورًا بحتًا كطبيعتهم وفطرتهم.

وما من شك فى أنهم عرفوا بصورة سهلة أن هذا الكائن يمكنه – بجهد متواصل – التغلب على الطبيعة الطينية فيسمو فى منازل الأرواح، بيد أنه فى الأكثر الأعم، ستغلب هذه الطبيعة فتنزل به إلى مستوى تتفاوت درجاته ولكنه مستوى دون مستوى الملائكة.

وتصور الملائكة ما سيحدث من هذه المستويات التى تغلبت عليها الطبيعة الطينية من تنافس غير شريف، ومن تناحر وتنازع فقالوا سائلين عن وجه الحكمة مستفسرين عما عزب عنهم من حكمة الله لا معترضين ولا محتجين:

﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟﴾.

ثم بينوا من طبيعتهم ما الله أعلم به قائلين:

﴿ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾.

أى أننا ننزهك، ونحمدك، ونقدسك على أن يعصيك منا أحد.

فلم يوضح سبحانه وتعالى لهم الحكمة فى خلق الإنسان، وأخر سبحانه قوله الحاسم الذى سيفهمهم إياه بطريق عملى، وإنما أجابهم سبحانه بقوله الحاسم الذى يسد الطريق أمام كل تساؤل:

﴿إنى أعلم مالاتعلمون﴾.

آدم

عليه السلام

لقد فاجأ الله الملائكة باعلان خلق آدم، ثم فاجأهم بأمر آخر لم يكونوا يتوقعونه أيضًا وذلك بأن أمرهم بالسجود لآدم فور خلقه:

﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾.

وكان الملائكة أمام أمر صريح من الله لهم بالسجود. وكان هذا الأمر معللا واضحة أسبابه عند ذوى البصائر النورانية فما دام الله سبحانه قد سواه بيديه، وما دام الله سبحانه قد نفخ فيه من روحه، فإنه كائن لا شك شريف لقد كان الأمر بالسجود معللاً مسببًا..

وهب أنه لم يكن معللاً ولا مسببًا، وكان الأمر من الله مجردًا عن ذكر الأسباب والعلل ماذا كنت تظن الملائكة فاعلين ؟

إن طبيعتهم النورانية، وتقديسهم لله سبحانه تقديسًا تاما يفرضان عليهم، فى صورة انبعاثية تلقائية، استجابة الأمر الإلهى..

ومن أجل كل ذلك كانت الاستجابة من الملائكة فورية..

﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾.

وكان مختلطًا بهم من يعبد الله على حرف - وهو إبليس - كان يعبده سبحانه فى زهو وخيلاء، فى فخر وكبرياء، وينتظر من وراء ذلك مدحًا وتكريمًا، ولم تكن عبادته خالصة لوجه الله وإنما كانت مراءاة ومباهاة.

فلما صدر الأمر الإلهى وكان عامًّا لجميع الموجودين، لم يسجد وخالف الأمر مع علمه بأن الأمر يشمله، بقوله تعالى:

﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾.

وهذه الآية الكريمة تبين فى صراحة صريحة أن إبليس كان من الجن وأن الأمر كان له أيضًا لأنه أمر للجميع.. وأنه فهم أن الأمر له، ولكنه فسق عن أمر ربه، أى خرج عن أمره سبحانه بترك السجود. يقول الإمام البيضاوى فى تفسير هذه الآية:

«وفيه دليل على أن الملك لا يعصى البتة، وإنما عصى إبليس لأنه كان جنيًّا فى أصله».

ولابد لنا من وقفة عند هذا الموضوع:

إن سيدنا موسى عليه السلام اجتمع بأبينا آدم عليه السلام فى الملأ الأعلى فكان من حديثه معه:

«أنت آدم أبو البشر الذى خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته».

وهذه الكلمات التى هى تمجيد لآدم ذكرت فى حديث آخر فقد ذكر الشيخان: البخارى ومسلم عن أنس بن مالك، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا، فيأتون آدم فيقولون له فيما يقولون:

أنت أبو البشر خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته..

ولقد فهم الجميع أن هذه الأوصاف كلها تشريف لآدم عليه السلام وهى كذلك فعلا ولكنها أيضا تشريف للجنس البشرى كله فى صورة آدم، فهذه النفخة الإلٰهية فى أبينا آدم هى نفخة فى كل ذريته، إن كل فرد من أفراد ذرية آدم فيه من هذه النفخة الإلٰهية نصيب.. إن فينا جميعًا نفخة من روح الله:

وسجود الملائكة إذن لم يكن سجودًا لجسم آدم الذى هو من طين، وإنما كان سجودًا:

١ – لبديع صنع الله سبحانه..

٢ – ولهذا القبس من روح الله فى آدم.

٣ – وللأمر الإلهى الصريح لهم بالسجود..

وسجودهم إنما كان - إذن - لله سبحانه، والسجود لله دائما تشريف للساجد، لقد سجد الملائكة ولم يسجد إبليس..

ما مغزى ذلك؟

لقد سجدت الملائكة ولم يسجد إبليس، ويعبر الله سبحانه عن ذلك بقوله

﴿إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين﴾..

ويبين الله سبحانه السبب الأصيل لعدم سجوده فيقول:

﴿إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين﴾.

أما التعلة الكاذبة التى تعلل بها إبليس، وأما المنطق المزيف الذى توهم إبليس أنه عاذر له فى عدم السجود فهو قوله:

﴿أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين﴾.

ونقول : إنه منطق مزيف، لأن إبليس جعل مناط الخيرية المادة والجسم مع أنها فى أبسط مبادئ العقول ترجع إلى الروح التى هى النفخة الإلهية لا إلى المادة التى لا قيمة لها فى موازين الخير.

وهذه القصة التى نمر عليها فلا نكاد نعيرها التفاتا، جديرة بالتأمل والاعتبار..

والقضايا التى نريد أن نذكرها عظة واعتبارا، وهى فى نفس الوقت ذات دلالات عميقة: هى ما يلى:

١ – لقد صدر أمر إلهى بالسجود، فاستجاب له طائفة، فنعموا برضوان الله، وشذ فرد، فطرد من رحمته سبحانه..

٢ – انه طرد، لانه لم يستجب للامر الالهى مع علمه بأنه أمر الهى،

٣ – كان عدم استجابته ناشئا عن كبرياء فى نفسه، وعن تمرد فى فطرته..

٤ – لم تلغ عبادته كبرياءه، فهى اذن لم تكن خضوعا، لأنها لو كانت خضوعا، لنفت الكبرياء وأزالتها، انها اذن لم تكن عبادة بالمعنى الصحيح لأن العبادة والكبرياء: لا تجتمعان..

هذه الكبرياء كما تمثلت فى مخالفة الامر الالهى، تمثلت فى المحاولة التى أراد هذا المتمرد أن يبرر بها موقفه.. مستنجدا بمنطقه وعقله قائلا:

﴿أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين﴾.

ولم يكن هذا إلا منطق الهوى، ومنطق الكبرياء، فسجوده لآدم ليس عبادة له وإنما هو عبادة لله لأنه خضوع لأمر الله، وحسب..

٦ والمغزى لما سبق وهو ما يرشد إليه روح القصة، بل وتعبيرها، إنه عند الأمر الإلهى: يجب أن تكون الاستجابة فورية، وربما كان هذا هو ما ترشدنا إليه فى صراحة كلمة: إذ فى قوله تعالى ﴿ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك﴾..

وهذه الفورية طبعا هى فى كل أمر بما يناسب وضعه الزمانى والمكانى.

٧ - والقضية التي تختتم بها هذه القضايا، أو هذه المفاهيم المستنتجة من القصة هي: أن الله إذا كان قد أمر الملائكة والجن بالسجود للإنسان الأول فليس معنى ذلك إلا التصريح الصريح بأن طبيعة هذا الإنسان فيها الاستعداد الكافي للرقي من مدارج السمو الروحي، درجة فدرجة، حتى تسمو على الملائكة وعلى الجن، ولا معنى إذن بعد هذا الأمر الإلهي للملائكة والجن بالسجود للإنسان لأن يختلف علماء الإسلام في المفاضلة بين الإنسان والملك فإن الفيوضات الإلهية على الإنسان لا تنتهي إلى حد:

«ما وسعني أرضي ولا سمائي، ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن».

وباب الفيوضات الإلهية مفتوح على مصراعيه، والقرب منه ميسور وإذا ما سجد الإنسان لله، رفعه الله إليه، وقربه منه وغمره برضوانه.

إن المبدأ الهام الذي نريد أن يجعله كل مؤمن نصب عينيه هو: الإيمان ليس معرفة وحسب: ذلك أن إبليس كان يعرف أن الله موجود وقد عرف فيما بعد أنه أرسل نوحًا وإبراهيم ومحمدًا عليهم الصلاة والسلام.. أنه يعرف أن لا إله إلا الله، ويعرف أن محمدًا رسول الله ويعرف أن عيسى وموسى وبقية الأنبياء رسل الله، ومعرفته بهذه المسائل هي من القوة والثبات بحيث تزيد على معرفة كثير من المؤمنين..

ولكنه مع ذلك مطرود من رحمة الله: ذلك أن الإيمان ليس معرفة فحسب، إنما خشوع واستجابة: إنه سجود، فإذا لم يتأت السجود فلا إيمان. يشهد لذلك قوله تعالى:

﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليمًا﴾. (النساء آية: ٦٥).

لقد كان سعيد بن جبير رضى الله عنه يقول:

ما آسى على شىء من الدنيا إلا على السجود.

أما على بن عبد الله بن عباس، فقد كانوا يسمونه «السُّجَّاد» لكثرة سجوده.. وقد كان يكثر من السجود - كما هو المتبادر إلى الذهن ليكون على النقيض من إبليس.

وما من شك فى أن السجود بمعناه الحقيقى - أى سجود القلب والجوارح لله تعالى - إنما هو استجابة لله سبحانه وخضوع له وهو بهذا المعنى يقود الإنسان إلى الجنة..

يروى الإمام مسلم، رضى الله عنه، فى صحيحه، عن أبى فراس ربيع ابن كعب الأسلمى خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن أهل الصفة - رضى الله عنه - قال:

كنت أبيت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فآتيه بوضوئه وحاجته فقال: سلنى فقلت: أسألك مرافقتك فى الجنة.. فقال: أو غير ذلك قلت: هو ذلك.. قال «أعنِّى على نفسك بكثرة السجود».

والسجود إذن: مما يعين على ترويض النفس لتتزكى، وهو بذلك من الوسائل التى توصل إلى الجنة..

وفى هذا المعنى يروى الإمام مسلم أيضًا: عن أبى عبد الرحمن ابن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: عليك بكثرة السجود فإنك لن تسجد لله سجدة إلا رفعك بها درجة، وحط عنك بها خطيئة.

والسجود الذى يريده رسول الله، صلوات الله عليه، والذى ورد فى هذه الأحاديث ليس هو مجرد الحركة المعروفة، وإنما هو – مع هذه الحركة – المعنى العميق فى النفس الذى يتمثل فيه جلال الله وعظمته، ورحمته ووده، ويتمثل فيه الخضوع لهذا الجلال، وهذه العظمة، والانقياد المطلق لرحمة الله التى تتمثل فى الرسالة الإسلامية: أوامرها ونواهيها..

فإذا ما كان السجود تعبيرًا عن التطامن والتذلل لله سبحانه وتعالى، وذلك هو معناه الصحيح، عندما يكون السجود عبادة ويكون خضوعًا له سبحانه.. فإنه يكون سبيلًا إلى الجنة وإلى أكثر من الجنة وهو القرب من الله سبحانه، يقول الله تعالى:

﴿واسجد واقترب﴾. أى اقترب من الله بالسجود.

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»..

وهذا المعنى للسجود هو الذى حققته الملائكة وهو الذى أباه إبليس لم يسجد إبليس بسبب كبريائه، لقد أبى واستكبر وكان من الكافرين. وقادته

كبرياؤه إلى الإصرار على ما فعل: مبررًا له، ولو أنه رجع إلى نفسه فندم واستغفر وتاب لقبل الله توبته، ولكنه عاند وأصر فطرده الله من رحمته ووده، وأخرجه من رياض رضو نه ورأفته، حارمًا إياه من نعمه، وقال له:

﴿فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين﴾. (الاعراف: ١٣).

ويعبر الله عن ذلك بصورة أخرى تشرح نسقًا آخر من الخطاب الإلهى له:

﴿فاخرج منها فإنك رجيم، وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين﴾. (الحجر آية: ٣٤ - ٣٥).

يقول الإمام ابن كثير:

وقوله تعالى لإبليس: ﴿اهبط منها﴾ و ﴿اخرج منها﴾ دليل على أنه كان فى السماء فأمر بالهبوط منها والخروج من المنزلة والمكانة التى كان قد نالها بعبادته، وتشبهه بالملائكة فى الطاعة والعبادة، ثم سلب ذلك بكبره وحسده ومخالفته لربه، فاهبط إلى الأرض مذمومًا مدحورًا: أى مذمومًا مطرودًا.

وإلى هنا كان يمكن أيضًا أن يلجأ إبليس إلى الله منيبًا مستغفرًا، وذلك أن الله سبحانه، وان كان قد صب عليه اللعنة فإنه سبحانه حددها بيوم الدين.

وقد كان من الممكن لو رجع إبليس إلى الله أن يعفو عنه سبحانه بعد يوم الدين.

ولكن إبليس أصر أيضًا ولجَّ فى عناده، والتمس من الله أن ينظره إلى يوم يبعثون: أى إلى نهاية العالم..

ماذا يريد من وراء ذلك؟

إنه يوضح غرضه فيقول:

﴿لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين، إلا عبادك منهم المخلصين﴾ (الحجر آية: ٣٩-٤٠).

ويوضح أيضًا غرضه فيقول:

﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ (الأعراف آية: ١٦-١٧).

ومنذ هذه اللحظة بدأت فى العالم - بالنسبة للإنسان - محاولة لا تفتر لقيادة الإنسان إلى المعصية والإثم والجريمة.

لقد بدأ الصراع بين الخير والشر منذ تلك اللحظة.

ولكن رحمة الله سبحانه قد أدركت الإنسان منذ أن وجد، وذلك بأن فتح له سبحانه باب المغفرة والعفو والرحمة، وذلك عن طريق التوبة: التوبة الخالصة النصوح..

إن الله سبحانه وتعالى يقول فى حديث قدسى: وفى أسلوب أرق ما يكون الأسلوب:

« ياعبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفرونى أغفر لكم».

ويقول تعالى فى القرآن الكريم:

﴿قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعًا إنه هو الغفور الرحيم، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له﴾ (الزمر آية: ٥٣-٥٤).

يغفرها سبحانه بالتوبة الخالصة النصوح.

هذا ما كان من شأن إبليس.

* * *

لقد فاجأ سبحانه الملائكة بقوله:

﴿إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾

وفاجأهم بقوله:

﴿اسجدوا لآدم﴾.

- ثم فاجأهم بأمر ثالث: وذلك أن الله سبحانه حينما خلق آدم لم يخلقه على سنة الخلق التدريجى نطفة فمضغة، فعلقة، فوليدًا فطفلًا يتدرج

مع المعرفة بتدرج الزمن، ويكتسب على مر الزمن ما يحتاج إليه من معرفة تختلف تفصيلاً وإجمالاً بحسب حاجته وظروفه: كلا إنه لم يخلقه كذلك، وإنما سوّاه ونفخ فيه من روحه فنشأ خلقه مكتملاً.

هذا الخلق المكتمل تتردد فيه النفخة الإلٰهية نضرة يانعة تتألق بالمعرفة الروحية وتنعم بمشاهدة الملأ الأعلى.

أما عالم الأرض فلم يكن عند آدم عليه السلام من علمه قليل ولا كثير.

- ومن أجل ذلك.. وإعدادًا له ليكون صالحًا للإقامة على وجه الأرض علمه سبحانه الأسماء كلها.

يقول ابن عباس رضى الله عنهما:

«هى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس: إنسان، ودابة، وأرض، وسهل، وبحر وجبل، وجمل وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها» اهـ.

ويؤيد الإمام ابن كثير رأى ابن عباس فيقول:

والصحيح أنه علمه أسماء الذوات وأفعالها، مكبرها ومصغرها كما أشار إليه ابن عباس رضى الله عنهما. ولما كانت الملائكة إنما خلقوا للسماء كان مثلهم مثل آدم فى مبدأ أمره، يجهلون شئون الأرض.

ومن أجل ذلك كانت المفاجأة الثالثة لهم حين طلب إليهم سبحانه إخباره بأسماء الأمور التى تتعلق بعالم الأرض فقالوا:

﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾ (البقرة آية: ٣٢).

وهنا أمر الله آدم بأن يقف منهم موقف المعلم قائلاً:

﴿يا آدم أنبئهم بأسمائهم﴾ (البقرة آية: ٣٣).

وفى هذه المفاجأة الثالثة، إشارة للملائكة، وتنبيه للبشر إلى شيء من حكمة الله تعالى فى خلق الإنسان. وهذه الحكمة هى المعرفة، المعرفة المتكاملة، والمعرفة بعالم السماء وعالم الأرض، المعرفة بالطبيعة وبما وراء الطبيعة.

إن من الحكمة فى خلق الانسان أن يوجد المخلوق المتكامل، المخلوق الذى فتح الله له آفاق المعرفة الدنيوية والمعرفة الأخروية، بأن منحه الوسائل لذلك وهى البصر والبصيرة.

ولقد أطلق الله سبحانه له العنان ليسير بوسائله التى منحها إلى ما لا حدود له، وإن من أجمل شكر الله على منحة الخلق والحياة أن يتزود الإنسان بالمعرفة وأن يتحلى بالعلم، وشعار المسلم هو شعار رسول الإسلام:

﴿رب زدنى علماً﴾.

روى الإمام الترمذى فى حديث صحيح عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم

على قدر الأرض: جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن (أي الصعب) وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك».

أما كلمة آدم فقد تعود الناس أن يقولوا في سبب التسمية بها: إنه سمي بآدم لأن جسده خلق من أديم الأرض أي وجهها، أو لأن لونه يميل إلى السمرة، يقال رجل آدم، أي مائل لونه إلى السمرة.

- أما الرأى الجميل فى سبب التسمية فهو أنه سمي بذلك: لما طيب به من الروح المنفوخ فيه، المذكور فى قوله تعالى: ﴿وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾ (الإسراء آية: ٧٠). ومن ذلك من قولهم «الإدام» وهو ما يطيب به الطعام.

- ولقد استشار رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الزواج فقال له:

«لو نظرت إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما».. أى يؤلف ويطيب.

- فالتسمية بآدم على هذا الوجه الذى نرتضيه إنما هى إشارة وتوجيه نحو التحلى بالكمال المستطاع، وذلك بالخلق وبالعقل، وبالفهم والرواية، وبكل حسن طيب.

وأنزل الله آدم فى دار ضيافته وهى الجنة، وحيدًا فريدًا لا أنيس له، فكان يمشي فيها كما يقول ابن عباس، وابن مسعود وغيرهما رضى الله

عنهم: مستوحشًا، ليس له فيها زوج يسكن إليها، فنام نومة، فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه، فسألها: من أنت؟

قالت: امرأة.

قال: ولم خلقت؟

قالت: لتسكن إلىّ.

ويتابع ابن عباس القصة فيقول: فقالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه: ما اسمها يا آدم؟

قال: حواء.

قالوا: ولم كانت حواء؟

قال: لأنها خلقت من شيء حي.

وعن هذه القصة الجميلة تتابع الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

– فلقد بين الله سبحانه حكمة خلق المرأة وحكمة الزواج، فركز الهدف فى سكن النفس أى طمأنينتها، وفى المودة وفى الرحمة بين الزوجين فقال:

﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ (الروم آية: ٢١).

- ليس الزواج فى الإسلام صفقة تجارية أو استغلالاً من أحد الطرفين. والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: فاظفر بذات الدين.

وإنما هوسكن ومودة ورحمة.

- كان آدم وحواء مبدأ الخلق الإنسانى وكانا فى الجنة متعمين: كيف خرجا منها؟

قال الله تعالى لآدم:

﴿اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ (الأعراف آية: ١٩).

أباح الله لهما أن يستمتعا فيها بما شاءا من روح وريحان، ومن فاكهة وأزهار، وضمن الله له أن لا يجوع فيها ولا يعرى، أى لا يتألم باطنه ولا ظاهره بالعرى، وضمن له أن لا يظمأ فيها ولا يضحى، أى لا يتألم من حر الظمأ فى الباطن، ولا من حر الشمس على ظاهره.

ولكن الله سبحانه وتعالى حدد لهما شجرة معينة وأمرهما بأن لا يقرباها. وما من شك فى أن عالم الإطلاق إنما هو عالم الألوهية، أما عالم الإنسان فإنه عالم الحدود والقيود.

بيد أن حدود الإنسان الدينية وتكاليفه التى أوجبها الله عليه إنما هى حدود من أجل رقيه وكماله، وكلما التزم الإنسان ما أحبه الله منه كان سائرًا نحو الكمال والصفاء والطهر.

وأنه لمن المعروف أن آدم - وهو سائر على ما أحب الله من الامتناع

عن الأكل من الشجرة - كان ينعم هو وزوجته بطمأنينة النفس، وراحة البال وهدوء الضمير، كما ينعم بذلك أصحاب الضمائر النقية، والسرائر الصافية..

لقد كان يقضي حياته ناعمًا بسعادة البراءة وسكينة الأطهار مع رفيقة حياته وأصحاب هذه الحياة - حياة البراءة - لا يرون عورة، ولا يحسون بالخجل يغمرهم من أجل سيئة.

أترى الطفل يحس بذلك؟

إنهم - وهم فى براءة الأطفال - لا يشعرون بخزى، ولا ينوء ضميرهم بتأنيب.

وكان آدم وحواء على ذلك حتى وسوس إليهما إبليس. لقد وسوس إليهما حتى يخرجهما عن براءة الطهر ونقاء العصمة، فيريا ما لم يكن قد أتيح لهما رؤيته من الشر والقبح، والعورات والسوءات، وحتى يشعرا بما لم يتأت لهما الشعور به من قبل، من تأنيب ومن شقاء بالمعصية. وإن صاحب السيرة السيئة معنى أبدًا بأن يجر الآخرين إلى مستواه، وأن ينزل بهم إلى حضيضه، وأن يهوى بهم إلى مزالقه.

لقد وسوس إليهما الشيطان آتيا من جانب الضعف فى الإنسان، وهو حب الخلود، وحب الملك، وقال لهما متسائلًا مستفسرًا متجهًا لآدم:

﴿هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾ (طه آية: ١٢٠).

وأتى لها فى صورة الناصح، وأقسم لها على إخلاصه وصدقه ونصحه: فصدقاه.

صدقاه أولا: لأنهما فى براءتهما اعتقدا إخلاصه ونصحه، وصدقاه لأن ميولها كانت إلى الخلود والملك كميول الأفراد من بنى جنسهم.

وأكلا من الشجرة المنهى عنها، وزالت عنهما مباشرة براءة العصمة وسكينة الطهر وأحسا بشقاء المعصية وعذاب الإثم. ويقول الله تعالى معبرًا عن ذلك:

﴿فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾ (الأعراف آية: ٢٢).

وكان هذا أول نجاح لإبليس فى عالم الإنسان، بيد أن نجاحه انقلب إخفاقًا، وإذا كان قد فرح بنجاحه فإن فرحه لم يطل.

* * *

لقد حل بآدم وحواء الشقاء بسبب أكلهما من الشجرة، وأخذ آدم يجرى فى الجنة من مكان إلى مكان بائسًا حزينًا، وهو أينما حل يسمع النداء الإلهى يتردد فى جنبات الجنة، ويخترق أذنيه رهيبًا مدويًا:

﴿ألم أنهكما عن تلكما الشجرة، وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين﴾. (الأعراف آية: ٢٢).

ويجرى آدم فى الجنة، وتتعلق بشعره الأشجار. أو يتعلق شعره بها، ولكنه يسمع النداء الإلهى من جديد:

«أفرارًا منى يا آدم؟».

فيقول فى خجل وفى حزن: «بل حياء منك يارب».

لقد شقى آدم بالمعصية وكذلك يشقى كل عاص بسبب ما اقترف من الإثم. روى الترمذى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

لا تصيب عبدًا نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب، وما يعفو الله عنه. أكثر، ثم قرأ: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾.

وروى الطبرى وابن عساكر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

«والذى نفسى بيده ما من خدش عود، ولا عثرة قدم، ولا اختلاج عرق إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر».

ومن الرموز الجميلة فى قصة آدم، ما رواه ابن عساكر عن مجاهد قال: «أمر الله ملكين أن يخرجا آدم وحواء من جواره، فنزع جبريل التاج عن رأسه، وحل ميكائيل الإكليل عن جبينه، وتعلق به غصن فظن آدم أنه قد عوجل بالعقوبة، فنكس رأسه يقول: العفو، العفو، فقال الله: أفرارًا منى؟

قال: بل حياء منك يا سيدى.

ولجأ آدم إلى الله مستغفرا نادمًا منيبًا، فلما كان كذلك تاب الله عليه،

يقول سبحانه: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه، إنه هو التواب الرحيم﴾ (البقرة -آية: ٣٧).

أما هذه الكلمات التي اتجه بها آدم إلى الله فكانت نتيجتها توبة الله عليه فهي: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ (الأعراف آية: ٢٣).

وقد رويت في ذلك كلمات لا تخرج عن هذا المعنى منها ما قاله مجاهد: «الكلمات هي: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الراحمين.

اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فتب على إنك أنت التواب الرحيم».

لقد كانت نتيجة التجاء آدم إلى الله هي ما عبر عنه بقوله: ﴿ ثم اجتباه ربه، فتاب عليه وهدى ﴾ (طه آية: ١٢٢).

وإنه لقانون إسلامي عام، أن من ارتكب المعصية ثم رجع إلى الله في إخلاص وصدق، فإن الله سبحانه وتعالى يفتح له أبواب توبته.

عفا الله عن آدم حين التجأ إليه، ولكنه سبحانه لم يبقه في الجنة، وإنما أنزله إلى الأرض قائلا:

﴿ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ (الأعراف آية: ٢٤).

أكان نزوله إلى الأرض عقابًا حقيقيًا؟ أم كان نتيجة لسبب ظاهر شكلي؟ أكان أكله من الشجرة معصية حقيقة؟ أم هي مقادير رتبت من أجل نتيجة أرادها الله سبحانه، وهي عمارة الأرض؟

لقد قال الله للملائكة من قبل خلق آدم: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ إنه سبحانه لم يقل: إني جاعل في الجنة خليفة، أو إني جاعل في السماء خليفة، وإنما قال:

﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾.

وهذه الجملة حددت مصير آدم: إنه الأرض.

ومن أجل ذلك تحدث علماؤنا في الموضوع، ورويت فيه آثار، من ذلك ما رواه خالد الحذاء، قال:

خرجت خرجة لي فجئت وهم يقولون: قال الحسن: فلقيته فقلت:

يا أبا سعيد، آدم للسماء خلق، أم للأرض؟

فقال: ما هذا يا أبا منازل؟ للأرض خلق.

قلت: أرأيت لو اعتصم فلم يأكل من الشجرة؟

قال: للأرض خلق، فلم يكن بد من أن يأكل منها».

ومن أجمل الآراء في قصة آدم وأعمقها رأي الإمام أبي الحسن الشاذلي: لقد شعر أبو العباس المرسي في يوم بضيق شديد ولم يعلم له سببًا، فذهب

إلى أبي الحسن الشاذلي، فلما رآه الشاذلي قال له مباشرة:

آدم خلقه الله بيده، وأسجد له ملائكته، وأسكنه الجنة نصف يوم – خمسمائة عام – ثم نزل به إلى الأرض.

والله ما نزل بآدم إلى الأرض لينقصه، ولكن نزل به الأرض ليكمله. ولقد أنزله إلى الأرض من قبل أن يخلقه بقوله:

﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾.

وما قال في الجنة ولا في السماء، فكان نزوله إلى الأرض نزول كرامة لا نزول إهانة، فإنه كان يعبد الله في الجنة بالتعريف، فأنزله إلى الأرض ليعبده بالتكليف، فلما توافرت فيه العبوديتان استحق أن يكون خليفة.

وأنت أيضًا لك قسط من آدم، كانت بدايتك في سماء الروح في جنة المعارف، فأنزلت إلى أرض النفس لتعبده بالتكليف، فلما توافرت فيك العبوديتان استحققت أن تكون خليفة.

والناس على مر الزمان يعتمل في نفوسهم نوع من الأسف على الأكل من الشجرة، وقد كانوا يتمنون أن آدم لم يكن قد أكل منها حتى يكونوا في الجنة حيث النعيم والسعادة.

ولقد عبر سيدنا موسى، حينما التقى في عالم الأرواح بسيدنا آدم، عن أسف الناس قائلًا:

أنت آدم الذى خلقك الله بيده وأسكنك الجنة، وأسجد لك ملائكته، ثم صنعت ما صنعت؟

ولم يلتزم سيدنا آدم الصمت، وإنما قال متسائلاً:

أنت الذى كلمه الله، وأنزل عليه التوراة؟

قال: نعم.

قال: فهل تجده مكتوبًا على قبل أن أخلق؟

قال: نعم.

وكانت الغلبة فى النقاش لآدم عليه السلام.

* * *

وقبل أن نترك موضوع آدم عليه السلام نعرج على مسائل تساءل عنها الأقدمون ويتساءل عنها أيضًا كثير فى الأوساط المعنية بالدين، منها مثلاً السؤال التالى:

- هل كان آدم نبيًّا، أم أنه لم يصل إلى مرتبة النبوية؟

لقد جال هذا السؤال فى ذهن الصحابى الجليل أبى ذر، فذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويتحدث هو عن ذلك فيقول:

قلت يا رسول الله: كم الأنبياء؟

قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا.

قلت: يا رسول الله، كمْ الرسل منهم؟

قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير (أى عدد كثير).

قلت: يا رسول الله، من كان أولهم؟

قال: آدم..

قلت: أو نبيًّا كان؟

قال: نعم، نبى مكلم..

وفى الحديث الشريف تفرقة بين الأنبياء والرسل..

ولعل القارئ الكريم يتساءل: وما الفرق بين النبى والرسول؟

والفرق بينهما أن النبى لا يأتى بشرع جديد، وإن كان يلهم من قبل الله ويوحى إليه.

أما الرسول فإنه يأتى بشرع وكتاب وصحف، ويبشر بمبادئ جديدة أوحاها الله إليه.

ومن هنا كان الرسل أقل فى عددهم من الأنبياء.

هذا: والأمر الثانى الذى نريد أن نتحدث عنه هو أمر يثيره حب الاستطلاع فى بنى البشر.

لقد تساءل قوم عن شكل آدم ومكانته من ناحية الجمال الجسمانى: وإنه لمن المعروف المتداول بين الناس، وتؤيده الآثار والأخبار أن يوسف عليه السلام كان غاية فى الجمال.

فهل كان آدم عليه السلام مثله أو أقل منه؟

والإمام ابن كثير يثير الموضوع ويقول:

قال بعض العلماء فى قوله صلى الله عليه وسلم:
.. فمررت بيوسف (أى ليلة الإسراء) وإذا هو قد أعطى شطر الحسن.

قالوا: معناه أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام (لأن الشطر هو النصف).

يقول ابن كثير: «وهذا مناسب، فإن الله خلق آدم وصوره بيده الكريمة ونفخ فيه من روحه فما كان ليخلق إلا أحسن الأشياء».

أما العبرة الأخيرة التى نأخذها من قصة آدم فهى أن الله سبحانه أشار غير مرة فى القرآن الكريم أنه خلق بنى البشر جميعًا من نفس واحدة، هى آدم عليه السلام وأنه جعل من هذه النفس نفسًا أخرى هى حواء ليسكن إليها، وأنه بث منهما رجالاً كثيرًا ونساء.

هذه الإشارات المتكررة التى ذكرها الله فى القرآن، إنما كانت ليدل الله بها على أنه لا عبرة بالأنساب، وإنما العبرة بالعمل والتقوى، ومن بطؤ به عمله لم يسرع نسبه.

وإن أكرمكم عند الله أتقاكم..

كلكم لآدم وآدم من تراب.

يقول الله تعالى:

﴿يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيرًا ونساء﴾ (النساء آية: ١).

كيف بث منهما رجالاً كثيرًا ونساء؟ لم يرد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث صحيح فى كيفية الزواج والتناسل فى المبدأ، ولم يرد فى ذلك تفصيل فى القرآن الكريم، ولكن روى عن كثير من الصحابة تفصيل فى ذلك نرويه على ما ورد، إذ ليس ما يمنع من الدين أو العقل تصديقه.

ومجمل الأمر:

أنه ما كان يولد لآدم عليه السلام مولود ذكر إلا ولدت معه أنثى فكان يزوج غلام هذا البطن فتاة البطن الآخر، ويزوج فتاة هذا البطن غلام البطن الآخر.

وقد انجبت حواء بطونًا كثيرة توائم، ذكرًا وأنثى، ومن هنا كثر التناسل وعمرت الأرض وبمجرد أن شب الفتيان والفتيات بدأ التنافس والحسد بين الخير والشر.

وإذا كان آدم قد استعصى على إبليس بعد توبته الخالصة النصوح..

وإذا كان بعض بنى آدم من ذوى الفطر الطاهرة قد استعصى على إبليس أيضا فإن البعض الآخر من بنى آدم قد استجاب لتسويل إبليس.

ويصور القرآن أول جريمة قتل وقعت فى العالم على النسق التالى:

كان لآدم ابنان: هما قابيل وهابيل، وكان قابيل وهو الأكبر قاسى القلب غليظ الطبع لا يستشعر التقوى، ولا يتحرك للصالحات. وكان هابيل وهو أصغرهما على العكس من ذلك، تقيًا صالحًا مرضيًا عنه من الله تعالى، وتنافسا فى تقديم ما يتقرب به إلى الله، وقدم قابيل شيئًا تافهًا رديئًا لا قيمة له، وقدم هابيل من أنفس ما عنده فتقبل الله من هابيل، ولم يتقبل من قابيل، فحز ذلك فى نفس قابيل.

فقال لأخيه: لأقتلنك.

فكان جواب هابيل: نصيحة يسديها إلى أخيه يوجهه بها إلى عمل الخير.

﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾.

وما أراد بذلك هابيل إلا أن يوجه أخاه إلى الطريق لمرضاة الله وتقبله للعمل وهو التقوى، ثم قال محاولاً بقوله إرشاد أخيه إلى خشية الله:

إذا هممت بقتلى، ومددت يدك لذلك فإنى لن أحاول قتلك ولن أتعمده لأنى أخاف الله رب العالمين.

﴿لئن بسطت إلىّ يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك : إنى أخاف الله رب العالمين﴾ (المائدة آية: ٢٨).

وذكره بعد ذلك بأن القتل إثم عظيم يتحمله القاتل فوق ما اقترف من إثم سابق وأن القاتل جزاؤه النار، والنار جزاء كل ظالم.

ولكن قابيل لم يرق قلبه، ولم يخشع فؤاده، وطوعت له نفسه قتل أخيه وهو ابن أمه وأبيه، فقتله وأصبح بذلك من شيعة إبليس فى الشر والإثم، وأصبح بذلك من الخاسرين فى دينه ومن الخاسرين فى دنياه فقد زال عنه الهدوء، وزالت عنه السكينة وكانت جثة أخيه أمامه ينغص منظرها عليه حياته، ولا يدرى ماذا يفعل بها؟ فبعث الله غرابًا يحفر فى الأرض ليدفن غرابًا آخر ميتا، ففعل قابيل مثلما فعل الغراب ليخفى بذلك آثار الجريمة.

ما سبب هذه الجريمة: إن ظاهر النص القرآنى يفيد أن السبب هو حقد النفوس الخبيثة على النفوس الصافية الطاهرة. وهو سبب يوجد فى كل زمان ومكان، وهو سبب عام يدخل فى نطاقه أسباب خاصة.

ولقد التمس بعض أسلافنا سببًا خاصًا يدخل فى نطاق السبب العام، وهو أن هابيل لما أراد - على سنة الزواج عندهم - أن يتزوج تلك التى ولدت مع قابيل فى بطن واحدة، وكانت جميلة فاتنة، أبى عليه ذلك قابيل مدعيًا أنه أحق لأنه أقرب إليها من هابيل، فكان التنافس وكان النزاع، وكان القتل، وهذا السبب أيضًا سبب يقع فى كل زمان ومكان إذ يترك فيه

القاتل نفسه مسرحًا للشر، ومجالا لتسويل إبليس، فيرتكب الإثم ويطرد بذلك من رحمة الله.

﴿ومن يقتل مؤمنًا متعمدًا فجزاؤه جهنم خالدًا فيها، وغضب الله عليه ولعنه، وأعد له عذابًا عظيمًا﴾ (النساء آية: ٩٣).

نوحٌ

عليه السلام

سنطوى الآن الزمن فى وثبة هائلة لا ندرى مداها فنصل إلى نوح عليه السلام..

وإذا تساءل متسائل عن الزمن بين آدم ونوح عليهما السلام، فإننا نقول فى يسر: إن جميع ما يقال فى ذلك إنما هو ضرب من التخمين، وأن الآثار التى رويت فى ذلك يمكن تأويلها على أنحاء شتى فتكون ألفًا، وتكون آلافًا من السنين ولا يقين فى الموضوع.

لقد أهبط الله آدم، وهو على عقيدة سليمة من عالم الألوهية وعالم الجنة وعالم الملائكة، وأهبطه مُزودًا بالمبادئ الأخلاقية الصالحة، وبث آدم ذلك فى أبنائه، واستجاب له من هداه الله وشذعنه كل من أواه الشيطان؟ وأخذ هؤلاء المنحرفون يزيدون شيئًا فشيئًا على مر الزمن، وعلى توالى العصور حتى شاع الانحراف فى العقيدة نفسها، فعبد الناس الأصنام، وانغمسوا فى الضلالة والكفر.

كيف بدأ الانحراف فى العقيدة: وكيف دخل الشرك على التوحيد؟

لقد كان آدم يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئًا فكيف انحرف بنوه؟

إن التفسير القديم والحديث، تفسير أسلافنا، وتفسير بعض علماء النفس الحديثين فيما يتعلق بهذه الظاهرة على اختلاف العصور والبيئات، هو أنه من الطبيعي أن ينشأ من آن لآخر فى بيئة من البيئات شخص صالح يحبه الناس لصلاحه وتقواه، ويحبونه للخلق الكريم، من بذل وعون وتضحية بالنفس والمال فى سبيل إسعاد الآخرين ويحبونه لما يشيع فيهم من جو الثقة والطمأنينة والأمن الأخلاقى الذى يفتقدونه فلا يكادون يجدونه فيكون له أتباع يقتدون به، ويسيرون على خطاه.

وحينما يموت يعكفون على قبره فى أوقات معينة، يستعيدون ذكراه، ويمجدون آثاره، ويسترجعون أقواله، ويحاولون أن يكون لديهم أثر من آثاره.

ويطغى عليهم الشوق فيصورونه، ويجعلونه فى منازلهم ومنتدياتهم وكلما مر الزمن أضافوا إلى مآثره مآثر من خيالهم، وإلى مفاخره مفاخر من ابتداعهم تكريمًا ، وزيادة قداسة.

حتى إذا بلغ التقديس منتهاه، بتوالى الزمن، عبد هذا الذى كان فى ابتداء أمره داعية إلى الله، وإلى التوحيد الخالص.

والإنسانية إذن بدأت بالتوحيد، ثم انتهت شيئًا فشيئًا إلى الشرك

والتعدد، وهذه النظرية على هذا الوضع تقرها الأديان الإلهية الكبرى كلها ويقرها كثير من الباحثين فى علم الاجتماع، وهى تقلب نظرية «أوغسط كونت» رأسًا على عقب، فقد كان «أوغسط كونت» يرى أن الإنسانية بدأت بالتعدد والشرك، ثم كان التوحيد خاتمة المطاف فيها.

وهذه النظرية «لأغسط كونت» لم تقف أمام الأبحاث الحديثة فانهارت كما انهار غيرها من نظريات هذا المفكر الذى كان يحتل يومًا مكان الصدارة بين المفكرين ، والذى أصبحت تدرس آراؤه الآن على أنها أثر تاريخى فحسب..

ومهما يكن من شىء فإنه حينما انحرفت الإنسانية فى عقيدتها شاءت رحمة الله أن يرسل نوحًا عليه السلام مبشرًا بالحق فى مجال العقيدة، وبالخير فى مجال الأخلاق، وبالعدالة فى مجال التشريع.

* * *

تضعنا النصوص الصحيحة والأخبار أمام نوح عليه السلام، وهو رجل ناضج ، مكتمل، أرسله الله لهداية قومه.

أما طفولته وشبابه وكل ما كان قبل الرسالة فليس لنا به علم.

ولكن الله سبحانه وتعالى له سنن خاصة بمن بعثهم أنبياء ورسلاً، وذلك أن الله سبحانه يختارهم من ناحية النسب من أشرف الأسر.

ولقد سأل هرقل أباسفيان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً :

- كيف هو فيكم؟

فرد أبو سفيان قائلًا: هو فينا ذو حسب..

فقال هرقل: وكذلك الرسل تبعث فى أحساب قومها..

ويعلل ابن خلدون سنة الله فى بعث الرسل فى أحساب قومهم، بأن ذلك إنما هو لأجل أن يكون للرسول أسرة ذات شوكة ومنعة تحميه من أذى الكفار حتى يبلغ رسالة ربه ويتم مراد الله من إكمال دينه وملته.

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى حديث صحيح:

«ما بعث الله نبيا الا فى منعة من قومه».

من هذه السنة الإلهية نوقن - وان لم تكن لدينا نصوص صريحة - أن نوحًا كان من أسرة كريمة.. هذا من ناحية الأسرة.

أما من ناحية الإعداد التربوى فإن الله سبحانه يصطنعهم لنفسه: يقول الله تعالى لسيدنا موسى:

﴿واصطنعتك لنفسى..﴾.

ويصنعهم على عينه:

﴿ولتصنع على عينى﴾.

أما سيدنا يحيى فإنه كان تقيًا، وبرًا بوالديه ولم يكن جبارًا عصيًا. وسيدنا عيسى جعله الله مباركًا أينما كان.

ورسولنا صلوات الله وسلامه عليه يقول له الله: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾.

من هذا وغيره تؤكد أيضًا أن نوحًا عليه السلام لم يكن بدعًا من الرسل وأنه كان على خلق كريم.

يقول ابن خلدون عن الأنبياء والرسل عامة:

ومن علاماتهم أنه يوجد لهم قبل الوحى خلق الخير والزكاة، ومجانبة المذمومات والرجس أجمع، وهذا هو معنى العصمة، وكأنه مفطور على التنزه عن المذمومات والمنافرة لها، وكأنها منافية لفطرته.

كان نوح على خلق كريم ما فى ذلك من شك، فلما انتهى إعداد الله له إلى غايته فاجأه الوحى، وتلك أيضًا سنة الله فى أنبيائه: فإنه حينما تصبح نفوسهم – بتربية الله وعنايته – أهلا للتلقى عنه يفاجئها الوحى مثلاً وهى سائرة فى الوادى المقدس وفى البقعة المباركة، كما حدث لسيدنا موسى، بينما هو سائر مع أهله رأى نارًا فقال لأهله امكثوا هنا، وذهب نحو الضوء فإذا به يسمع النداء الإلهى:

﴿إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى﴾. (طه آية: ٢٤).

أو يفاجئ الوحى النبى وهو فى الغار فيأتى الملك آمرا:

﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق﴾.

وفاجأ الوحى نوحًا عليه السلام، على نحو من هذه الأنحاء.

لقد فاجأه بالأمر: ﴿أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم﴾.

بماذا ينذرهم؟.

بعث الله سيدنا نوحًا حينما عم الفساد ليبشر بالحق والخير والعدل.

وبدأ سيدنا نوح بالعقيدة:

﴿يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾. (الأعراف آية ٥٩).

وهذا الذى قاله سيدنا نوح لقومه هو التبشير بالتوحيد، والتوحيد هو جوهر الرسالات السماوية جميعًا، والله سبحانه يؤكد لسيدنا محمد خاتم النبيين ذلك قائلًا:

﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾. (الأنبياء آية: ٢٥).

والتوحيد هو ما نعبر عنه فى الإسلام بأشهد أن لا إله إلا الله.. وقد جعله العالم الكبير أبو الريحان البيرونى: العلامة الأصيلة والطابع الحقيقى للدين الإسلامى، ولكنه فى الواقع هو جوهر كل دين سماوى صادق.

والمعنى الحقيقى للتوحيد هو الاعتقاد اليقينى أن كل ما فى الكون من خلق ورزق، وعطاء ومنع، وحياة وموت، وغنى وفقر وقوة وضعف، وعز

وذل، مرده إلى الله سبحانه.

وإذا آمن الإنسان بالتوحيد لم ينظر إلى غير الله فيكون خوفه منه، ورجاؤه إليه، وثقته به، واتكاله عليه، وإذا اعتقد التوحيد رأى أن كل ما سوى الله مسخر لله. وإذا اعتقد التوحيد تحرر من ذل العبودية لمخلوق لأن كل مخلوق مسخر لله ، إن الكون كله فى قبضة الله، إنه فى قبضة الله بالعلم والقدرة، والإرادة والحكمة والتدبير..

وتتكاتف آيات الله وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم على دعوة الإنسانية إلى التوحيد حتى تتحرر من رق العبودية..

يقول ربيعة بن عباد: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، بصر عينى بسوق ذى المجاز يقول:

يأيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا..

ويدخل فجاجها والناس متقصفون عليه (مجتمعون حوله) فما رأيت أحدًا يقول شيئا، وهو لا يسكت.

يقول: يأيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا..

أما النموذج الجميل الذى يسيل رقة وعذوبة فى الدعوة إلى التوحيد أى إلى الالتجاء إلى الله فى كل أمر فإنه الحديث القدسى الذي كان يرويه أبو مسلم الخولانى فلا يرويه على الكيفية التى يروى بها الأحاديث

الأخرى، وإنما يرويه وهو جاث على ركبتيه تقديسًا للحديث، واحترامًا له، وهو الآتى:

«ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته محرمًا فلاتظالموا..

يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم..

يا عبادى، كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم..

يا عبادى ، كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم..

يا عبادى، إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا.. فاستغفرونى أغفر لكم..

يا عبادى، إنكم لن تبلغوا، ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى.

يا عبادى، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد فى ملكى شيئًا.

يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجناكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئًا.

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر.

يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد

خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه».

* * *

بشر سيدنا نوح بالتوحيد، وبشر بالتوحيد جميع الرسل. وإذا فهم التوحيد على حقيقته واتخذته الإنسانية شعارًا لها يكون علاجًا لكثير من ألوان الضعف فى المجتمعات.

والإنسانية فى مختلف أزمنتها وأمكنتها تخاف الموت وتخشاه، هذا يقودها إلى الاستعباد للأقوياء، والذلة أمام الطغاة.

ولكن هذا الوضع لا يتمشى قط مع عقيدة التوحيد، فإن مالك الملك، إنما هو وحده الذى يملك الموت والحياة.

إنه يملك إماتة لطغاة أو تركهم لحكمة يعلمها سبحانه، وهو الذى قدر الآجال وحددها، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

والحرص على الحياة، أو الجبن ليس من أسباب إطالة الأجل، والشجاعة والإقدام ليسا من أسباب تقصير الأجل، وقد بين الله ذلك فى كتابه الكريم الذى يعبر عن جميع الرسالات السابقة إبانة تامة، وكما أنه لكل أجل كتاب فإنه لكل أمة أجل.

أما هؤلاء الذين قالوا:

﴿لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا هاهنا﴾.

فإن الله سبحانه يرد عليهم:

﴿قل: لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾. (آل عمران آية: ١٥٤).

وهؤلاء الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا:

﴿لو أطاعونا ما قتلوا﴾.

فإن الله سبحانه وتعالى، يأمر رسوله صلوات الله عليه وسلامه أن يرد عليهم قائلاً:

﴿فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾ (آل عمران آية: ١٦٨).

أما الذين يفرون أمام أعداء الله، فهؤلاء:

﴿إنما استذلهم الشيطان ببعض ماكسبوا﴾ (آل عمران آية: ١٥٥).

إذن: المؤمن الصادق الإيمان لا يعرف الجبن، ولا يستذله الشيطان، موسوسًا له بالخوف من غير الله تعالى.

وإذا كان خوف الموت هو الدعامة الأولى فى ذلة الإنسان واسترقاقه. فإن الدعامة الثانية هى هم الرزق..

والناس عادة ينتابهم القلق، ويغمرهم الحرص على أقواتهم، ويلجأ بعضهم إلى وسائل لا تليق بالكرامة الإنسانية بل يصل الأمر بالبعض إلى

مستوى التملق والمداهنة والمراءاة، وبعضهم يصل به الأمر إلى الغش والرشوة والاختلاس، وتستعبد المادة والحصول عليها الإنسان فيصبح لها عبدًا مسترقًا..

ولكن الدين وقد حرر المجتمع من خوف الموت فقد حرره أيضًا من هم الرزق، فالرزق بيد الله..

﴿وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها﴾. (هود آية: ٦).

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أن الرزق فى السماء محدد مقسوم، وأقسم سبحانه على أن ذلك حق واقع، لقد أقسم سبحانه لما يعلم من ضعف الطبيعة البشرية وإشفاقها وقلقها بالنسبة لأمر الرزق، يقول سبحانه:

﴿وفى السماء رزقكم وما توعدون، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾. (الذاريات آية ٢٢-٢٣).

على أن صاحب الثراء العريض الذى يعتمد على ثرائه غير ناظر إلى الله تعالى واهب الرزق والثراء وقد يخسف الله به وبداره الأرض، كما صنع بقارون، أو يطوف ببساتينه ومزارعه طائف منه سبحانه فتصبح خاوية على عروشها كما فعل سبحانه بأصحاب الجنة الذين قص علينا أمرهم فى القرآن الكريم فى سورة القلم.

وما من شك فى أن السعى على الرزق مطلوب، وأن العمل الجاد

الكادح إنما هو من سمات الإسلام، كل ذلك حق، وإذا كان الرزق بيد الله تعالى، وإذا كان العمل مطلوبًا، فإن ما ينهى عنه الإسلام، إنما هو هذه الصورة الجشعة القلقة التى تحاول اقتناص المال من السبل غير المشروعة، أو التى ترى أن عبدًا من عباد الله بيده الرزق إعطاء ومنعًا، وبيده الرزق زيادة ونقصًا، أو أخذًا وتركًا..

والتوحيد إذن علاج للجبن وعلاج للقلق من أجل الرزق..

أخذ سيدنا نوح يدعو إلى التوحيد فى همة لا تفتر، وفى نشاط لا يتوانى أخذ يدعو ليلاً ونهارًا، وأخذ يدعو جهرًا حينما تتيح له الظروف الدعوة الجهرية، ويدعو سرًا حينما يستلزم الأمر الدعوة سرًا.

لم يكن يدع فرصة تمر إلا ويشرح فيها رسالة الله: مبشرًا ونذيرًا، مرغبًا فى ثواب الله وجنته، ومخوفًا من عقابه وعذابه.

«لقد أخذ يشرح لهم قدرته وشمول علمه قائلاً»:

«ألا ترون أنه خلقكم فى بطون أمهاتكم خلقًا من بعد خلق؟ لقد كنتم ترابًا، ثم نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم كنتم أجنة، وكنتم فى جميع هذه الأطوار فى رعاية الله، محفوظين بحفظه، محاطين بعنايته. وبعد ذلك كنتم أطفالاً فشبانًا وهكذا. وستعودون إليه من جديد فى أية لحظة شاء، فارجعوا إليه بالتوبة والإنابة والطاعة قبل أن تواجهوه وهو عنكم غير راض».

ثم: **﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقًا، وجعل القمر فيهن نورًا وجعل الشمس سراجًا﴾**. (نوح آية: ١٥-١٦).

ثم: ألم تروا كيف جعل لكم الأرض بساطًا وجعل لكم فيها مسالك وسبلاً للإقامة والانتفاع.. وفى كل ذلك ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت..

وأخذ سيدنا نوح يعدد نعم الله: منبهًا إلى اليسير منها والعظيم، الظاهر منها والباطن ونعم الله كثيرة لا تحصى.

﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾. (النحل آية: ١٨).

ثم أعلن لهم قانون «الاستغفار» وسيدنا نوح أول من أعلن هذا القانون:

﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفارًا﴾. (نوح آية: ١٠).

هذه هى مقدمة القانون أو قاعدته وأساسه.

فإذا ما كان الاستغفار الخالص النصوح، وإذا ما كان الالتجاء إلى الله بطلب المغفرة فى صدق، كانت النتيجة.

والنتيجة هى:

﴿يرسل السماء عليكم مدرارا﴾. أى ينزل الغيث المحيى لأرضكم الجدباء، والذى يملأ أنهاركم الجارية بالخير والنماء.

﴿ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارًا﴾. (نوح آية: ١٢).

إن الإمداد بالأموال والبنين – وقد أتى بها القرآن بصيغة الجمع – مترتب على الاستغفار.

وإن هبة الجنات والأنهار – وقد أتى بها القرآن بصيغة الجمع أيضًا – مترتبة على الاستغفار.

هذا هو قانون الاستغفار الذى أعلنه سيدنا نوح عليه السلام.

وهذا القانون عام لا يحدده زمن ولا يحدده مكان، فمن التجأ إلى الله فى العصر الحاضر بالاستغفار الخالص النصوح الصادق، فإن الله سبحانه يهيئ له من الظروف مايجعله يعيش فى سعة من الرزق، وفى يسار من المال.. إنه وعد الله الذى أوحاه إلى رسوله نوح ليعلنه للناس ووعد الله لا يتخلف.

ولقد أوضح رسولنا صلى الله عليه وسلم، فيما بعد زاوية مهمة من زوايا قانون الاستغفار وهى عدم وقوع العذاب على المستغفر يقول تعالى:

﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾. (الأنفال آية:٣٣).

إن سيدنا نوحا عليه السلام كان ينبه قومه إلى الظروف والملابسات التى تشير إلى صدقه.

إنه لا يسألهم على دعوته أجرًا.

﴿ياقوم لاأسألكم عليه مالاً إن أجرى إلاعلى الله﴾.(هود آية:٢٩).

إنه إذن لا يطالب مالاً، ولا يدعو بدعوته من أجل النقود.

وإذا ما سأله سائل عن السبب فى قيامه بهذه الدعوة فإنه يقول:

١ - أبلغكم رسالات ربى.

٢ - وأنصح لكم.

٣ - وأهديكم إلى ما أعلمه عن الله وذلك لأنى: أعلم من الله مالا تعلمون وهل من العجيب أن يأتيكم ذكر من ربكم فيه لكم هدى ونور على لسان رجل منكم من أجل أن ينذركم، ومن أجل أن تتقوا ، ومن أجل أن يرحمكم الله؟

إن الإنذار يقود عادة ذوى النفوس الخيرة إلى التقوى، والتقوى سبب فى رحمة الله، فهل من العجيب أن يرسل الله لكم - وهو أرحم الراحمين - من يقودكم بإنذاره إلى رحمة الله؟

كان هذا هو منطق نوح عليه السلام، ولقد استجاب له بعض الأشخاص من قومه وكانوا من عامة الناس وضعفائهم.

إن عامة الناس وضعفاءهم دائما هم أتباع الرسل فى مبدأ أمرهم، وقد كانوا أتباع محمد صلى الله عليه وسلم فى مبدأ أمره، ولقد سأل هرقل أباسفيان عن أمر سيدنا محمد فقال له:

أأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟

فقال أبو سفيان: ضعفاؤهم.

فقال هرقل: هم أتباع الرسل.

ولا يقصد بعامة الناس وضعفائهم إلا هؤلاء الذين ليسوا من أصحاب الثروات الطائلة والجاه العريض والنفوذ والواسع. وتعليل هذه الظاهرة هو أن أشراف الناس على حد تعبير هرقل لهم مصالح ومنافع وأغراض شخصية تحول بينهم وبين اتباع الحق. فمكانتهم وثروتهم تتيح لهم الجرى وراء الشهوات فى إسراف، والدين لا يبيح من ذلك إلا الحلال الطيب، ومكانتهم تتيح لهم التعالى واستعباد الضعفاء واستغلال النفوذ. والدين لا يسمح بذلك ولا يقيم وزنًا إلا للتقوى:

﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

أما الضعفاء فقد خلصت نفوسهم من ذلك كله فكانت أقرب إلى اتباع الحق، وكانت مهيأة للاستجابة فى سهولة ويسر، لا تصرفها عن ذلك شهوة، ولا يمنعها من ذلك مصلحة.

وشىء آخر له وزنه يكثر فى محيط الأثرياء، ولا يكاد يوجد عند ذوى المكانة المتواضعة وذلك هو الكبر، الكبر الذى بسببه طرد إبليس من الجنة، الكبر الذى يمنع ذوى الشرف أن يتابعوا شخصًا من بينهم يرون أن لا ميزة له عليهم، فيصبحوا تابعين بعد أن كانوا متبوعين، وهذا هو ما عبر عنه نوح بقوله:

﴿ياقوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله، فعلى الله توكلت﴾. (يونس آية:٧١).

لقد استجاب لنوح قليل من الضعفاء فماذا كان موقف السادة والأشراف؟

اتبع نوحًا بعض ضعفاء قومه وكانوا قلة، وقد عبر القرآن عن ذلك بقوله:

﴿وما آمن معه إلا قليل﴾. (هود آية: ٤٠).

كان هذا القليل هو الذى أمكنه أن يستخلص نفسه من ترغيب السادة الكبراء ومن إرهابهم، إنهم الذين لم تؤثر فيهم رغبة أو رهبة، لقد خلصوا للحق.

على أن هذا القليل من المؤمنين كان من أسباب النفور الذى أبداه الملأ من قوم نوح.

وكلمة «الملأ» تعبير قرآنى يستعمله القرآن كثيرًا فى قصة نوح، ويريد به «السادة الكبراء» على حد شرح الإمام ابن كثير للكلمة.

لقد كان الملأ يقول لنوح كلما دعاهم:

١ - ما نراك إلا بشرًا مثلنا.

٢ - وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى (أى اتبعوك

منذ اللحظة الأولى للدعوة دون تفكير).

٣ - وما نرى لكم علينا من فضل.

ولقد غفل هؤلاء أو تغافلوا عن أن الرسل ما كانت - ولايتأتى أن تكون - إلا بشرًا من البشر، وما كان اتباعهم إلا من تمحض للخير، وكل من تمحض للخير فإنه فى الذروة من الفضل مهما كانت مكانته من الثراء وألح الملأ على نوح أن يطرد هؤلاء الذين اتبعوه فقال فى ثقة ويقين:

﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا﴾.

استمر نوح فى دعوته وجدله مع قومه، لايفتر ولا يلين حتى استخلص من بينهم كل من شاء الله له الهداية وحينئذ أوحى الله إليه:

﴿لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون﴾. (هود آية: ٣٦).

ولما علم نوح بذلك نادى ربه:

﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارًا﴾. (نوح آية: ٢٦).

ثم علل سبب هذا الدعاء قائلاً:

﴿إنك إن تذرهم (أى تتركهم) يضلوا عبادك ولايلدوا إلا فاجرًا كفارًا﴾ (نوح آية: ٢٧).

واستجاب الله إلى دعاء نوح ولكنه لم يهلك الكافرين فور الدعاء، وإنما

أمر نوحا بأن يصنع سفينة وأخبره أنه سيغرق أعداءه.

وسنة الله سبحانه أن يرسل من يبشر بالهدى وينذر الطغاة بالعذاب فإذا كانت الاستجابة: كانت رحمة الله، وكان فضله . أما إذا كان الإباء والتمرد على الأوامر الإلهية فإن الله يهلك الظالمين. تلك سنته؛ أجراها فى قوم نوح وفى قوم هود، وفى قوم صالح وفى غيرهم. ولقد قص الله سبحانه فى القرآن أخبار هؤلاء سواء كانوا أفرادًا مثل قارون، أو كانوا أممًا مثل عاد وثمود. والله سبحانه يقول لموسى عليه السلام:

﴿وذكرهم بأيام الله﴾.

وأيام الله: إنما هى التاريخ وما فيه من عبر وعظات.

وجاء يوم لم ير فيه الملأ الذين كثروا من قوم نوح، على عادتهم كل صباح، وعلى عادتهم على مدار الأيام فى سنوات عدة.. لم يروا نوحاً يجوس بينهم على عادته مبشرًا ومنذرًا وافتقدوه، وبحثوا عنه ملحين وكأن مجتمعهم لا يستقيم أمره بغير وجود نوح بينهم، يسخرون به، ويهزأون منه، ومن أتباعه، وكأن ذلك قد صار عادة لا غنى لهم عنها.

وفى خاتمة المطاف، وجدوه، فوقع منظره منهم موقع الغرابة العظمى فى أول الأمر.

لقد وجدوه مع بعض أتباعه يعالجون قطعًا من أخشاب الأشجار ويصنعون ما يصنع النجارون نشرًا وقطعًا وتسوية وتهذيبًا وتشذيبًا.

وعقدت الدهشة ألسنتهم، ثم أخذوا يتساءلون عن الأسباب والعلل وعن الأهداف والنتائج. ولم يخف نوح شيئًا من أمره، وإنما أعلن فى صراحة، أنه يبنى سفينة لينجو فيها هو وأتباعه من الغرق حينما يعم الفيضان الأرض، وحينما يهلك الله الكافرين.

كان الجو صحوًا وكانت السماء صافية، ولم تكن العادة قد جرت فى هذه المنطقة بفيضانات جارفة أو سيول مدمرة، فكانت النفوس مطمئنة من هذه الجهة وكانت القلوب قاسية لا تؤمن بالمعجزات ولا خوارق العادات.

فأخذت الابتسامات تدور على الشفاه وأخذت السخرية تجرى على الألسنة، ووجد المشركون مجالاً جديدا للتندر والسخرية، فواجههم نوح مؤكدًا:

﴿ إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم﴾. (هود آية: ٣٨ - ٣٩).

وأخذ نوح يعمل فى بناء السفينة فى هدوء وطمأنينة غير متعجل وغير متباطئ حتى أتمها.

فكيف كانت السفينة طولاً وعرضًا وارتفاعًا؟.

اتفق المتحدثون عن كيفية السفينة على ارتفاعها وأنه كان ثلاثين ذراعًا، وأنها كانت ثلاث طبقات كل طبقة عشرة أذرع، وقد تخصصت كل

طبقة فيها لنوع معين، فالطبقة السفلى للحيوانات، والطبقة الوسطى لنوح وأهله ومن آمن معه، والطبقة العليا للطيور وكان بابها فى عرضها، وكانت مغطاة من أعلاها.

وإذا كانوا قد اتفقوا على ذلك فإنهم اختلفوا فى نوع الخشب واختلفوا فى طول السفينة وفى عرضها. أما التوراة فإنها حددت الخشب بأنه من خشب الصنوبر، وحددت التوراة أيضًا طول السفينة بأنه ثلاثمائة ذراع، وحددت عرضها بأنه خمسون ذراعًا وقد قال بذلك بعض علماء المسلمين وليس فى نصوص الدين الإسلامى الصحيحة ما يتعارض مع ذلك، وبالرغم من هذا فقد قال مثلاً الحسن البصرى:

إن طولها كان ستمائة ذراع وعرضها ثلاثمائة ذراع.

وقال ابن عباس غير ذلك. ولايسند واحد منهم رأيه إلى نص من قرآن أو سنة.

ومما ينبغى ذكره فى هذا المقام أن البعثات العلمية أوربية وأمريكية لا تزال توالى البحث عن السفينة ولم تنته بعد إلى نتيجة مرضية.

* * *

أمر الله نوحًا أن يصنع الفلك حسب إرشاد الله وتعاليمه، لينجو فيه ومن آمن معه. وعرفه أنه سيهلك الملأ من قومه غرقًا.

فلما أتم نوح بناء السفينة جاء أمر الله إلى الأرض أن تتفجر بالماء،

والى السماء أن ترسل بالماء هطالاً، وأمر نوحًا أن يحمل فى سفينته من كل أنواع الحيوانات والطيور ، ذكرًا وانثى، وأن يستوى هو ومن معه فى السفينة، وأن يعلن بأن الحمد التام الكامل إنما هو لله الذى نجاه ومن معه من القوم الظالمين.

وما أن بدأت السفينة تتحرك وتحملها المياه، ونوح فى غمرة من الرضا والحمد، حتى حدث أمر لم يكن يتوقعه نوح ولم يكن له على بال.

لقد رأى أحد أبنائه على مرتفع توشك المياه أن تغمره فصرخ فيه مناديًا له:

﴿يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين﴾

ولم يكن ابنه هذا قد آمن به، ونداء نوح له إنما كان نداء للإيمان أولا وبالذات.

وما من شك فى أن كلمة «يا بنى» فيها الشفقة، وفيها العطف، ولكن الشفقة والعطف لم يبلغا بنوح عليه السلام إلى أن يتسامح مع ابنه فى الركوب، ولو لم يؤمن، كلا، إنه يقول له فى لغة مفهومة:

الحق بالمؤمنين فى إيمانهم لتنجو فى سفينتهم ولا تمكث مع الكافرين فى كفرهم فيحيق بك سوء خاتمتهم. ولو أراد نوح أن يأخذ ابنه رغمًا عنه فى السفينة لفعل، إنه لو أراد أن يطرحه أرضًا ويوثقه كتافًا فيلقيه فى السفينة لأمكنه ذلك، ولكن الأمر لم يكن أمر نجاة جثمانية، وإنما كان أمر إيمان.

ولم يكن لنوح على قلب ابنه من سبيل.

ولم يستجب الابن لأبيه، ولكنه أبى وعاند وقال:

﴿سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء﴾.

فقال له الأب فى شفقة متزايدة:

﴿لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم﴾

أى أنه لا رحمة اليوم، ولا عصمة من أمر الله إلا للمؤمنين، وأنه سيعم الغرق جميع الكافرين، ومع هذا البيان استمر الابن معاندًا متكبرًا.

ولم يفقد نوح الأمل فى هداية ابنه وفى نجاته بسبب هذه الهداية، فاتجه إلى الله راجيًا متضرعًا مستعطفًا قائلا:

﴿رب إن ابنى من أهلى، وإن وعدك الحق، وأنت أحكم الحاكمين﴾.

وقول نوح عليه السلام: ﴿وإن وعدك الحق﴾، إنما هو إشارة إلى وعد الله له بنجاته ونجاة أهله معه، وفهم نوح أن أهله: إنما هم أهله من النسب، وعزب عنه فى تلك الساعة، وهو يرى ابنه يوشك على الغرق، أن الله استثنى من أهله: ﴿من سبق عليه القول﴾.

أى من لا يهتد بنور الله فكان فى سابق علم الله من الهالكين المغرقين.

وعزب عنه شىء آخر هو أن أهل الرسول إنما هم المهتدون بهديه أما من لم يؤمن، ولم يتبع هدى الرسول، فإنه ليس من أهله. ولقد نبهه الله

سبحانه إلى ذلك فقال له:

﴿إنه ليس من أهلك﴾.

علل الله سبحانه ذلك بقوله:

﴿إنه عمل غير صالح﴾.

إن الإيمان فى الجو الدينى رابطة أقوى من رابطة النسب.

* * *

عندما أمر الله سيدنا نوحًا أن يبنى سفينة ويأخذ فيها من آمن معه نفذ نوح ما أمره به الله سبحانه وتعالى. وسارت السفينة فى موج كالجبال، وحال الموج بين نوح وابنه الذى لم يؤمن برسالته وأبى أن يركب معه.. وغرق الابن مع الغارقين.

وكما غرق الابن فقد غرقت الزوجة، ولقد ضرب الله بها المثل للذين كفروا هى وامرأة لوط مذكرًا الكفار بأنهما حين خانتا زوجيهما فإن الزوجين نوحًا ولوطًا عليهما السلام - لم يغنيا عنهما من الله شيئًا فقد أخذهما الله بذنبهما، وقيل لهما ادخلا النار مع الداخلين.

وقد يتساءل إنسان عن خيانة امرأة نوح ماذا كانت؟ والأمر فى هذا سهل: إن النظام الإلهى فى الزواج أن تكون الزوجة سكنًا لزوجها، وأن تكون مودة ورحمة، فإذا كانت سببًا فى الضيق والشر والسوء فإنها تكون قد خانت أى انحرفت عن الوضع الإلهى الخاص بالزواج.

هذه الخيانة قد يكون أمرها هينًا فى الوضع العام للزوج، حين يكون الزوج من الأفراد العاديين، ولكنها تبلغ الذروة فى السوء حين يكون الزوج من النبيين المرسلين، لأنها إذ ذاك تكون خيانة فى حق الرسالة نفسها التى كلف الرسول بنشرها، فتكون الخيانة كفرًا، وقد كانت خيانة امرأة نوح كفرًا به وبرسالته، لقد كذبته وكذبت برسالته.

ولقد سئل ابن عباس رضى الله عنه عن خيانة امرأة نوح ما هى؟ فقال كانت تقول زوجى مجنون.. ولقد كان مصيرها الغرق.

ولم يغن نوح عن ابنه، رغم حبه له، شيئًا.

ولم يغن نوح عن امرأته - رغم صلتها به - شيئًا..

ولقد أبان الله سبحانه عن ذلك لأمور عدة:

الأمر الأول: أن العدالة الإلهية تأخذ المجرم بجريمته وتعاقب الآثم بإثمه، لا تنظر فى ذلك إلا إلى العدل فى ذاته، ولقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم معبرًا عن الوضع الصادق:

والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها.

وما ينبغى أن تكون القرابة أو الصلة أو الشفاعة سببًا فى اهمال الآثم، أو سبيلا إلى عدم الضرب على يد المجرم.

الأمر الثانى: أن الروابط فى المجتمع يجب أن تقوم على الحق والخير

والفضيلة، أو بتعبير آخر على الإيمان، فما كان الإيمان فى يوم من الأيام إلا الحق والخير والفضيلة، لا على الأنساب، ورسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول عن سلمان الفارسي:

سلمان منا آل البيت.

وما كان سلمان رضى الله عنه ذا صلة نسبية بالرسول صلى الله عليه وسلم، ولكنه من آل البيت بخلقه ودينه، بخيريته وفضائله.

وعلى العكس من ذلك أبو لهب: فإنه مع صلته بالرسول صلى الله عليه وسلم فإن القرآن يقول عنه:

﴿سيصلى نارًا ذات لهب﴾.

والدين فى أكثر من مناسبة يبين أن العبرة عند الله إنما هى التقوى:

﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

سارت السفينة فى موج كالجبال، ولكنها سارت باسم الله مجريها ومرساها: أى أن عناية الله رافقتها فى سيرها فلم يحدث لها مايسيء.

ولقد كانت عناية الله ورعايته ترافق نوحًا فى كل خطواته: ففى صنع السفينة يقول الله تعالى: ﴿واصنع الفلك بأعيننا ووحينا﴾.

أى على مرأى منا وبارشادنا فى كل الخطوات، فعناية الله كانت ترافقه فى بناء السفينة.

ويقول الله عن سير السفينة:

﴿تجرى بأعيننا﴾.

أى أن سيرها كان فى مجال الرعاية الإلهية والملاحظة الربانية، ولم تترك السفينة للعواصف تلعب بها ولا للأعاصير تدمرها.

هذه الرعاية والعناية كان يرافقها ويقابلها من نوح عليه السلام وصفان ذكرهما الله سبحانه حيث يقول عنه:

﴿إنه كان عبدًا شكورًا﴾.

لقد حقق نوح عليه السلام العبودية لله سبحانه. والعبودية لله سبحانه أشرف ما يوصف به الإنسان بالنسبة لله، وإن من حققها فقد حقق الذى من أجله خلق الله الإنسان والجان، يقول سبحانه:

﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾.

أى ليتحققوا بالعبودية، فإذا ما تحققوا بالعبودية كفاهم الله كل ما أهمهم. أترى إلى التعبير القرآنى كيف استعمل كلمة «عبد» وقال: ﴿أليس الله بكاف عبده﴾.

لقد تحقق نوح عليه السلام بالعبودية لله، ومن أجمل مظاهر العبودية الشكر لله سبحانه وتعالى.

ولم يكن نوح عليه السلام: عبدًا شاكرًا وإنما كان عبدًا شكورًا، وذلك

أن شكورًا أبلغ فى الشكر من شاكر، والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿وقليل من عبادى الشكور﴾.

ولقد كان من مظاهر شكره لله سبحانه وتعالى كثرة صيامه.

روى ابن ماجه بسنده عن عبد الله بن عمرو قال:

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«صام نوح الدهر إلا يوم الفطر والأضحى، وصام داود نصف الدهر، وصام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر، صام الدهر وأفطر الدهر.

ومعنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم عن إبراهيم عليه السلام، صام الدهر وأفطر الدهر: أنه ما دامت الحسنة بعشر أمثالها فصوم يوم إنما هو بمثابة صوم عشرة أيام، وصوم ثلاثة أيام من كل شهر إذن إنما بمثابة صوم كل شهر، فكأن إبراهيم عليه السلام قد صام الدهر كله، ومع ذلك فإنه لم يصم من كل شهر إلا ثلاثة أيام وهى أيام قليلة فكأنه قد أفطر الدهر كله.

تثير قصة سفينة سيدنا نوح عديدًا من التساؤلات: كم يومًا سارت السفينة؟ أين موقع الجودى الذى رست عليه، هل شمل الطوفان الأرض جميعها؟ هل كان سكان الأرض بعد الطوفان كلهم مؤمنين».

عندما جاء النداء الإلهى للأرض أن تبتلع ماءها، وللسماء أن تكف عن

إرسال المطر، أخذ الماء فى النقصان، واستوت السفينة على الجودى، والجودى – كما يقول صاحب القاموس – «جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة نوح عليه السلام ويسمى فى التوراة أراراط. ا هـ».

أما عن عدد الأيام التى سارتها السفينة فعلم ذلك عند الله، وكل قول فيه إنما هو ضرب من التخمين..

فإذا عدنا للتساؤل عن الطوفان، هل كان عامًّا شمل المعمورة كلها أو كان خاصًّا بالإقليم الذى كان به نوح؟ نجد أن الإمام محمد عبده يعرض لهذا الموضوع ويبين أن أهل الكتاب وعلماء الأمة الإسلامية يجمعون على أن الطوفان كان عاما لكل الأرض وقد وافقهم على ذلك كثير من أهل النظر، واحتجوا على رأيهم بوجود بعض الأصداف والأسماك المتحجرة فى أعالى الجبال، لأن هذه الأشياء مما لا يتكون إلا فى البحر فظهورها فى رؤوس الجبال دليل على أن الماء صعد إليها مرة من المرات، ولن يكون ذلك حتى يكون قد عم الأرض.

ولكن بعض أهل النظر من المتأخرين يرى مخالفة هذا الرأى، ويقول إن الطوفان لم يكن عاما، ولهم على ذلك شواهد يطول شرحها..

وأيا كان الأمر فإنه عندما رست السفينة قيل:

﴿يا نوح اهبط بسلام منّا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك﴾

ونزل نوح ومن معه فى رعاية الله وعنايته، وقد طهرت الأرض من الشرك، ومن الأوثان والأصنام، ومن الشر على جميع أنواعه.

نزلوا وليس على وجه الأرض كافر، وأخذوا يعملون ويعبدون..

ولقد ذكر عن الرسول صلى الله عليه وسلم حديث صحيح معناه:

أن نبى الله نوح لما حضرته الوفاة قال لابنه:

إنى قاص عليك وصية: آمرك باثنتين، وأنهاك عن اثنتين..

آمرك بلا إله إلا الله، فإن السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعت فى كفة، ووضعت لا إله إلا الله فى كفة، رجحت بهن لا إله إلا الله..

وآمرك بسبحان الله وبحمده، فإن بها صلات كل شيء وبها يرزق الخلق.

وأنهاك عن الشرك، والكِبْر.

قيل يا رسول الله هذا الشرك قد عرفناه فما الكِبْر؟ هل هو أن يكون لأحدنا نعلان حسنان وشراكان حسنان؟

فقال: لا..

قيل: أهو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها؟

قال: لا..

قيل: أهو أن يكون لأحدنا دابة يركبها؟

قال: لا..

قيل: هل هو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟

قال: لا..

قيل: يا رسول الله: فما الكِبْر؟

قال سفه الحق وغمْط الناس، أى التكذيب بالحق والتعالى على الناس.

مما تقدم ومن حديث النبى عليه الصلاة والسلام عن نوح عليه السلام يتبين أن الله سبحانه طهّر الأرض من الكفر بالطوفان وعاد بنو البشر إلى التوحيد.

* * *

عندما جاء الطوفان على أيام سيدنا نوح، طهّر الله العالم الأرضى مادة وروحًا. طهره مادة بهذا الطوفان الذى كان فيه الموج كالجبال، وطهره روحًا بأن دمر الشرك بالغرق الذى لم يترك على ظهر البسيطة كافرًا بالله، وعاش هذا الجيل من المؤمنين مع سيدنا نوح فى أمن روحى وفى نعيم مادى.

ولقد كانت الثقة متبادلة.. وكان التعاون تامًا، وكان الإيمان مسيطرًا وكانت تعاليم السماء مطاعة والزمن يمر فى رخاء.

– ولكن كم استمرت هذه الحياة السعيدة. لا شك أنها استمرت بطبيعة الحال مدة حياة نوح عليه السلام. استمرت طيلة حياة الجيل الأول.

– ولكن الناس هم الناس أينما كانوا، فما أن نشأ الفتيان والفتيات حتى بدأ التنافس والتنازع من أجل المال والثراء. ومن أجل الجمال والاستمتاع به.

ومن أجل الجاه والنفوذ والسيطرة والاستعلاء، فالتحكم فى النزعات والأهواء ليس من السهولة بمكان. والتسامى بالغرائز صفة لا ينالها إلا أولو العزم.

وما من شك فى أن الانحراف لم ينشأ طفرة، بل نشأ بصورة تغلغلت على مر الزمن، وأخذ طريقين متلازمين متفاعلين يزيد كل منهما بزيادة الآخر وهما طريق العقيدة وطريق الأخلاق..

– ولا ريب أن أساس الانحراف إنما هو العقيدة، ومن أجل ذلك كان إصلاح العقيدة إصلاحًا للأخلاق وكان فساد العقيدة فسادًا للأخلاق.

– بدأ الانحراف فى العقيدة متجهًا نحو الشرك.

– بدأ الانحراف فى الأخلاق متجهًا نحو الكبرياء والتفاخر والترف الفاسد.

– وتركز هذا الانحراف أقوى ما يكون فى إقليم عربى سماه القرآن بالأحقاف فبلغ فيه قمته.

– كان هذا الإقليم فى اليمن بين عمان وحضر موت، وكان أرضًا

ووديانًا مطلة على البحر تسمى الشحر.. وقد سمى هذا الوادى أيضا باسم له مغزاه وهو اسم مغيث.. فقد كان غيثًا بالخير والنعم.

- كان يسكن هذا الوادى قبيلة تسمى عاد، وقد منحها الله من نعمه الكثير، أما من ناحية إقليمهم فقد هيأ الله لهم واديًا أمدهم فيه بأنعام وبنين، ومتّعهم فيه بجنات وعيون، وزادهم الله فى الخلق بسطة، فجعلهم ضخام الأجسام أقوياء، وكانوا من القوة بحيث قالوا يومًا ما فى خيلاء وفخر:

﴿من أشد منا قوة﴾.

- ولما كان الله قد وفر لهم كل أسباب الحياة الهنيئة الناعمة وعبر عن ذلك سبحانه بقوله:

﴿وأترفناهم فى الحياة الدنيا﴾.

كان من المنتظر أن يحمدوا الله ويشكروه على هذه النعم الظاهرة والباطنة.

ولكن صدق الله العظيم إذ يقول:

﴿إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى﴾.

أى أن الإنسان إذا رأى نفسه فى غنى ونعيم طغى وبغى. وقد كان هذا شأن عاد.

هــود
عليه السـلام

يروى ابن حبان بسنده عن أبى ذر عن الرسول صلى الله عليه وسلم حديثًا طويلاً خاصًا بالأنبياء والمرسلين يقول فيه:

منهم أربعة من العرب: هود، وصالح، وشعيب، ونبيك يا أباذر.

وهود عليه السلام هو النبى العربى الذى أرسله الله إلى عاد القبيلة العربية وهى من العرب العاربة.

والعرب العاربة هم العرب الذين كانوا قبل نشـأة إسماعيل عليه السـلام ومنهم عاد وثمود.

أما العرب الذين كانوا بعد إسماعيل ومن ذرية إسماعيل فهم العرب المستعربة.

ولقد بلغ الانحراف بقوم عاد أن أشركوا بالله وعبدوا الأصنام فكانوا بذلك أول من عبد الأصنام بعد الطوفان فأرسل الله لهم هودًا عليه السلام.

- وأخذ هود يبشر بالتوحيد شأنه شأن الأنبياء جميعًا فقال لهم:

﴿يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون﴾ (الأعراف آية ٦٥).

وكان موقف السادة الكبراء أو على حد التعبير القرآنى كان موقف الملأ الذين كفروا من قومه، العداوة والبغضاء والرمى بالسفاهة والكذب.

- ولم ييأس هود منهم وإنما أخذ يذكرهم بنعم الله الظاهرة والباطنة التى يتقلبون فيها والتى تستوجب الحمد والشكر.

وأعلن لهم قانون الاستغفار والتوبة مبينًا زاوية أخرى - غير الزاوية التى ذكرها نوح عليه السلام من قبل - وهى زاوية زيادة القوة.

- ﴿ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارًا ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾ (هود آية: ٥٢).

ثم هددهم بالقانون الإلهى الثابت وهو أنهم إذا أعرضوا ورفضوا وأبوا واستكبروا فإن عقاب الله لا مناص نازل بهم وتلك سنة الله فى خلقه.

- ومع ذلك فلم يستجيبوا لنعمه ولا لتهديده واستمروا يتابعون أهواءهم فيبنون على الروابى والمرتفعات قصورًا هى آيات فى الفن، ويصنعون من أدوات الزينة والترف كل ما تهفو إليه النزعات وتتطلبه الأهواء.

وظلوا سادرين فى غيهم لا يستجيبون لنداء الحق ولا يرجعون عن الباطل.

- بل تمادوا فى باطلهم، وسخروا من هود عليه السلام ومن اتبعه، وأعلنوها صريحة سافرة:

- ﴿إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين﴾ (المؤمنون آية ٣٧).

وطلبوا من هود عليه السلام أن يعجل لهم العذاب الذى وعدهم به

- وفى يوم من الأيام رأوا فى أفق السماء شيئا أشبه بسحابة داكنة ظنوها سحابة ممطرة لكنها كانت الريح المدمرة المهلكة، لقد أهلكهم الله بريح باردة شديدة سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام متتابعة لا تهدأ ولا تفتر فصرعتهم جميعًا ولم تبق من الكافرين أحدًا ونجى الله هودًا ومن آمن معه.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا عصفت الريح:

اللهم إنى أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به.

صـــالح

عليه السلام

– انفصل جيش المسلمين عن المدينة مسرعًا فى اتجاه تبوك وكان على رأسه الرسول صلى الله عليه وسلم فلما وصل إلى الحِجْر عند بيوت ثمود بعد أيام من رحلته نزل الناس يستقون من آبارها ويتزودون من مياهها وعجنوا منها ونصبوا القدور بها، أما الرسول صلى الله عليه وسلم فإنه لما قرب منها قنع رأسه وأسرع راحلته ونبّه الناس إلى أن دخول مثل هذا المكان يقتضى التفكر لما مر به من أحداث وعظات وعبر تدمع لها العين ويحزن لها القلب وتملأ الإنسان بخشية الله والخوف من عذابه.

ولما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المسلمين تزودوا من مياه الآبار وعجنوا منها وجعلوها فى طعامهم ينضجونه على النار نادى الناس قائلاً:

لا تشربوا من مائها شيئاً، ولا تتوضأوا منه للصلاة، وما كان من عجين

عجنتموه فاعلفوه الإبل ولا تأكلوا منه شيئًا ولا يخرجن أحد منكم الليلة إلا ومعه صاحب له..

ويقول ابن هشام: لما مر الرسول صلى الله عليه وسلم بالحجر سجى ثوبه على وجهه – أى غطاه به – واستحث راحلته ثم قال: لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون، خوفًا أن يصيبكم مثل ما أصابهم

ما قصة هذا المكان.. ومن هم أهله؟

أما المكان فهو الحِجْر فيما بين الحجاز وتبوك، أما أهله فثمود وهي قبيلة من العرب العاربة، كانوا زمنيًا بعد عاد قوم هود، وقد انحرفت بهم العقيدة وانحرفت بهم الأخلاق ونزلوا إلى المستوى الذى لا يتناسب مع بنى الإنسان فعبدوا الأصنام.

وأرسل الله لهم النبى العربى الثانى الذى نشأ فى الجزيرة وهو صالح عليه السلام. وأخذ صالح يبشر برسالة التوحيد:

﴿قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره﴾ (هود آية: ٦١).

وأخذ صالح يذكرهم بنعم الله عليهم ويقول:

لقد جعلكم الله خلفاء الأرض بعد أن دمر عادًا حين كذبت برسولها.. ولقد أحلكم الله فى إقليم من الأرض تتخذون فيه قصورًا تشيدونها. فيها الترف والنعيم.. ولقد مكنكم الله من الجبال تنحتون فيها البيوت التى تمتاز

بجوها الرطب فى الصيف فتقيكم الحر وتمتاز بجوها الدافئ فى الشتاء فتقيكم البرد.

أتتركون فيها ها هنا آمنين، فى جنات وعيون.. ونخيل محملة بالثمار؟

أتتركون فى هذا النعيم الذى أسبغه الله عليكم ثم تكفرون، وتعبدون غيره؟

هل يتأتى ذلك فى منطق الحق؟

كلا.. لابد من أن تعودوا إلى الله حتى يستمر فى الإنعام عليكم وحتى يبقيكم فى هذا النعيم وإلا فلا تلومن إلا أنفسكم.

واستمر صالح يبشر برسالة التوحيد والخير فاستجاب له أهل الصدق من ثمود.

بدأ نبى الله صالح يبشر برسالة التوحيد فى وسط مشرك يعبد الأصنام، ولقد اجتهد ما شاء الله له أن يجتهد.. مذكرًا بنعم الله تعالى التى تتوالى على هؤلاء الذين أقامهم الله فى جنات وعيون مبينًا أنه فى دعوته رسول أمين ويعلن:

﴿وما أسألكم عليه من أجر، إن أجرى إلا على رب العالمين﴾ (الشعراء: آية ١٠٩).

إنه لا يطالب بدين ولا مال، ولا يزاحمهم فى جاه ولا رياسة، ولا يريد

منهم إلا أن يتقوا الله ويطيعوه، فطاعته إنما هى طاعة الله لأنه مجرد رسول من لدنه.

وآمن به بعض الذين استضعفوا، ووقفوا جبهة واحدة فى وجهه جميع الملأ الذين استكبروا من قومه يناقشون ويجادلون، ويكذبون ويقولون للذين استضعفوا لمن آمن منهم:

﴿أتعلمون أن صالحًا مرسل من ربه﴾.

فيردون عليهم: ﴿إنا بالذى آمنتم به كافرون﴾.

وفى يوم من الأيام دخل عليهم صالح وهم مجتمعون فى ناديهم وأخذ يدعوهم، فأعلنوا أنهم لن يؤمنوا إلا إذا أتى لهم بمعجزة قائلين:

﴿ماأنت إلابشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين﴾ (الشعراء آية: ١٥٤).

ولم يكتفوا بهذا بل اختاروا هم المعجزة، وذهب بهم خيالهم ما شاء لهم أن يذهب.. لقد اقترحوا عليه أن يأتيهم بناقة ضخمة تشرب ماء البئر اليوم لتحيله إلى لبن فى الغد.

وكان نبى الله صالح حريصًا على هدايتهم، محبًا لصلاحهم، فأخذ يدعو الله متضرعًا أن يحقق المعجزة، أخذ يدعو الله وهو الذى أعلن:

﴿إن ربى قريب مجيب﴾.

واستجاب له القريب المجيب وأرسل الناقة، وأعلن صالح أنها ناقة الله دعوها تسرح وتأكل فى أرض الله.. ﴿ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم﴾. (الأعراف آية: ٧٣).

لكنهم لم يؤمنوا، فإن الكبرياء كانت قد تمكنت من قلوبهم بحيث أصبح لا فكاك لهم عنها، وكمن للناقة أحدهم فرماها بسهم أصاب ساقها، وشد عليها آخر بسيفه فنحرها، ووصل بهم الاستهتار أن طلبوا إلى صالح عليه السلام أن يحقق لهم ما وعدهم به من عذاب فقال صالح:

﴿تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام، ذلك وعد غير مكذوب﴾ (هود آية: ٦٥).

فلما انقضت الأيام الثلاثة، وعند شروق الشمس أخذت الذين ظلموا صيحة من السماء من فوقهم، يصحبها رجفة من الأرض من تحتهم فماتوا عن آخرهم..

ونجى الله صالحًا والذين آمنوا معه برحمة منه.

إبراهيم

عليه السّلام

يقول الله تعالى:

﴿واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقًا نبيًّا﴾ (مريم آية: ٤١).

نشأ سيدنا إبراهيم بإقليم بابل وعاصر عهد الملك الجبار: النمرود وشب سيدنا إبراهيم على عين الله ورعايته، وآتاه الله رشده فى سن مبكرة ثم آتاه الله النبوة، ووصفه بأنه صدِّيق..

وصدِّيق كلمة لها جانبان: جانب الصدق، وجانب التصديق.

ولقد كان إبراهيم عليه السلام صادقًا لا يكذب..

أما جانب التصديق، فإنه الإيمان اليقينى المباشر السريع بالأخبار التى ترد عن الله سبحانه، أو عن أحد المعصومين، وهو الاعتقاد اليقينى التام فيما لا يقتضى عملاً، وتنفيذ ما يترتب على الاعتقاد من عمل فيما إذا اقتضى عملاً..

وما من ريب فى أن الاعتقاد اليقيني يتمخض حتماً عن عمل إذا استلزم الأمر ذلك..

ولقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا أبا بكر بالصديقية، ولقد كان سيدنا أبو بكر صادقًا لا يكذب، وكان يسارع إلى تصديق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل ما يخبر به، وكان يسارع إلى العمل بما تقتضيه الأخبار إن كانت تقتضى عملاً.. وكان وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم لسيدنا أبي بكر بالصديقية فى مكة قبل الهجرة بمناسبة حادثة معينة هى حادثة الإسراء.

ففى يوم من الأيام رأى أبو جهل رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسًا فجاء حتى جلس إليه وقال له كالمستهزئ:

هل كان من شيء؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم.

قال: ما هو؟

قال: إنه أسرى بى الليلة.

قال: إلى أين؟

قال: إلى بيت المقدس.

قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟

قال: نعم.

قال: فلم ير أن يكذبه مخافة أن ينكر الحديث إذا دعا قومه إليه.

قال: أرأيت إن دعوت قومك تحدثهم بما حدثتني؟.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم.

عندئذ انطلق أبوجهل إلى قريش فقال: هيا يامعشر بنى كعب بن لؤى فانتفضت إليه المجالس وجاءوا حتى جلسوا إليهما.

فقال أبو جهل: حدث قومك بما حدثتنى.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنى أسرىَ بى الليلة.
قالوا: إلى أين؟

قال: إلى بيت المقدس.

قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟

قال: نعم.

فإذا بالقوم بين مصفق، وبين واضع يده على رأسه متعجبًا..

يقول الحسن: إنه فى يوم الحديث عن الإسراء: ارتد كثير ممن كان أسلم؛ وذهب الناس إلى أبى بكر فقالوا له: هل لك يا أبا بكر فى صاحبك؟ إنه يزعم أن قد جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة.

فقال لهم أبو بكر إنكم تكذبون عليه.

فقالوا: لا، ها هو ذاك فى المسجد يحدث به الناس.

قال أبو بكر: والله لئن كان قاله: لقد صدّق، فما يعجبكم من ذلك؟

فوالله ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أونهار فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه.

ومن يومئذ سمى أبو بكر رضى الله عنه بالصديق.

ولقد كان سيدنا إبراهيم عليه السلام صديقًا يتمثل فيه جانبا الصديقية وهما الصدق وسرعة التصديق لخبر الله تعالى.

* * *

لقد تساءلنا فى نهاية الحديث الماضى عن مظاهر الصديقية فى حياة سيدنا إبراهيم. وأول مظهر نتحدث عنه هو امتثاله عليه السلام لأمر الله فى مجابهة قومه بأن دينهم باطل وأن عبادتهم فاسدة، وأن آلهتهم مزيفة.

لقد كانوا يعبدون الأصنام. كانوا يعبدون أحجارًا ينحتونها بأيديهم ثم يسجدون لها. واتجه إبراهيم عليه السلام، أول ما اتجه، إلى أبيه، وكان حريصًا على هدايته محبًّا لصلاحه، فخاطبه قائلاً:

﴿يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئًا﴾ (مريم آية: ٤٢).

وشرح لأبيه أنه مرسل من قبل الله، وأنه يعلم عن الله ما لا يعلمه أبوه وأنه يدعو إلى الله، وأن من اتبعه فإنما يتبع الطريق الذى رسمه الله للهداية والرشد وشرح لهم أن عبادة الأصنام إنما هى اتباع لاغواء الشيطان، وسير فى طريق إبليس، فهى فى الواقع عبادة لابليس نفسه لأنه الذى زين هذا الطريق وحببه إلى نفوس الضالين.

ثم بين أن مآل العصاة أن يحل بهم عذاب الله، وأنه يخاف على أبيه أن يمسه عذاب منه. من أجل ذلك يدعوه إلى الأسلوب الربانى فى العبادة.

ولكن الالف والعادة كانا قد تمكنا من نفس أبيه، ولها منطقها الذى لا يستند إلى غير الإلف والعادة، فقال لابراهيم:

﴿أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم، لئن لم تنته لأرجمنك﴾ (مريم آية: ٤٦).

ثم أمره بأن يذهب عنه ويفارقه إذا لم يكف عن دعوته تلك.

وما كان إبراهيم عليه السلام أحمق أو سفيهًا، وما كان عاقًّا لأبيه ومن أجل ما فطر عليه من هذه الصفات الكريمة كانت إجابته لأبيه:

سلام عليك: أى أننى بالنسبة لك سلام تام فلن أسىء إليك، ولن أحاول القيام بما تكره، بل بالعكس من ذلك سأستغفر لك ربى، عسى أن يغفر لك ويتوب عليك، فإنه سبحانه كان بى حفيًا: أى لطيفًا، وهو سبحانه دائمًا لطيف بعباده الذين يحققون العبودية له لا لغيره.

على أنني سوف أعتزلكم في عبادتكم، ولن أدنس جبهتي بالسجود لصنم وإنما سأتجه بعبادتي ودعائي إلى الله وحده، وأرجو أن أنجو من عذابه فلن أكون بدعاء ربي شقيًا.

واستمر إبراهيم يستغفر لأبيه برًا به، وشفقة عليه فلما تبين له أنه عدو الله كف عن الاستغفار وتبرأ منه..

روى الإمام البخاري بسنده، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم:

ألم أقل لك لا تعصني؟

فيقول (له) أبوه: فاليوم لا أعصيك.

فيقول إبراهيم يارب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟

فيقول الله: إني حرّمت الجنة على الكافرين.

ثم يقال يا إبراهيم ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار.

لم يستسلم إبراهيم إلى اليأس حين رأى موقف أبيه منه مع أنه أقرب

الناس إليه، وما من شك فى أن أصحاب الهمم العالية لا يستسلمون إلى اليأس، فإذا ما سدت فى وجوههم بعض النوافذ حاولوا أن يعالجوا نوافذ أخرى علهم ينجحون فى فتحها بل إن العقبات تزيد أرباب الهمم العالية عزمًا على عزم ونشاطًا مضاعفًا.

اتجه سيدنا إبراهيم إلى قومه بعد أن لم ينجح مع أبيه، اتجه إلى قومه قائلاً:

﴿اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ (العنكبوت آية: ١٦).

ثم أخذ يبين لهم أن الذى يعبدونه إنما هو أصنام نحتوها بأيديهم، وأنهم حينما يسمونها آلهة، فإنهم يكذبون على أنفسهم، وعلى الحق. فهؤلاء الذين تعبدونهم من دون الله لا يملكون لكم رزقًا فابتغوا عند الله، الرزق، واعبدوه وحده لا شريك له، واشكروا له إحسانه فإنكم راجعون إليه لا محالة.

وإذا كذبتم فإن ذلك له أمثلة سبقتكم: إن أممًا من السابقين كذبوا رسلهم فأتاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ويندمون حيث لا ينفعهم الندم..

ثم ما شأن هذه الأصنام؟

هل يسمعونكم إذ تدعون؟

هل ينفعونكم أو يضرون؟

بل أيملكون لأنفسهم نفعًا، أو يمنعون عن أنفسهم ضرًّا؟

إنني برىء منهم جميعًا، إنهم عدو لى إلا رب العالمين، إنه هو الذى خلقنى، وهو الذى يهدينى سواء السبيل..

ثم إنه هو الذى يرزقنى فيطعمنى ويسقين، وهو الذى يملك الشفاء، وإذا مرضت فهو يشفين.

وهو الذى بيده أمر الإنسان: إماتة واحياء، وهو الذى يأمر باتباع سبيله.

أطمع أن يغفر لى خطيئتى.

﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾.

وما كان جواب قومه إلا أن قالوا:

﴿وجدنا آباءنا لها عابدين﴾.

لقد أقروا باجابتهم هذه أن أصنامهم لا تسمع لمن يدعوها ولا تنفع من عبدها، ولا تضر من كفر بها أو اعتدى عليها، ولم يأخذهم الخجل حينما عترفوا بأن الحامل لهم على عبادتها مجرد الاقتداء باسلافهم الذين سبقوهم فى الضلال والانحراف.

والواقع أن التقليد، والعادة، والالف هى العقبات الصعبة فى طريق

المصلحين وقد كان ذلك منذ أن بدأ المصلحون دعوتهم، ولقد كان بعض ما صادف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دعواته، لقد قالوا له هم أيضا:

﴿حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا..﴾

ويرد القرآن عليهم فى صورة لاذعة فيقول:

﴿أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئًا ولا يهتدون﴾ (المائدة آية: ١٠٤).

إن النفوس إذا ألفت شيئًا فترة طويلة من الزمن لم يكن من السهل انصرافها عنه..

والإلف - لا العقل ولا المنطق - هو الذى يعرقل دائمًا المصلحين خلال التاريخ، وإن الذى يزلزل الإلف إنما هو شعور الإنسان بالمسئولية.

ومن أجل ذلك حاول كل الأنبياء أن يشعروا الإنسان بأنه مفكر وأنه مسئول عن كل تصرفاته ومحاسب على أعماله وكل إنسان بما كسب رهين.

جاء الأمر الإلهى إلى إبراهيم عليه السلام أن يحطم الأصنام.

وأخذ إبراهيم ينتظر إتاحة الفرصة التى تمكنه من تنفيذ الأمر الإلهى، وما كان تنفيذ هذا الأمر بالشىء الهين، فإنه لو بدأ فى تحطيمها على مرأى منهم لحطموه قبل أن يحطمها فلا مناص من انتظار الفرصة..

ولقد كان يعلم أن هذه الفرصة وشيكة الحدوث، فقد كان لهم عيد يحتفلون به فى كل عام خارج مدينتهم وكانوا يذهبون إليه فتخلو المدينة أو تكاد، ولما جاء يوم العيد وخرجوا يلهون ويعيثون ويحتفلون، أسرع إبراهيم عليه السلام بعدته التى كان أعدها من قبل إلى قصر الأصنام فوجد عجبًا:

لقد وجد القوم قد وضعوا طعامًا أمام الأصنام قربانًا إليها، فأخذ يسخر من عقليات قومه التى صبغتها العادة وأثر فيها الإلف إلى هذا الحد يخاطب الأصنام قائلاً:

﴿ألا تأكلون؟ مالكم لا تنطقون﴾ (الصافات آية: ٩١، ٩٢).

ثم أخذ يحطمها صنمًا صنمًا، وأخذت تتهاوى تحت معوله واحدًا واحدًا حتى أصبحت حطامًا. اللهم إلا الصنم الأكبر فإنه لم يصبه بسوء وذلك لحكمة قدرها فى نفسه..

ورجع القوم من عيدهم ورأوا ما حل بالأصنام وتساءلوا:

﴿من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين!﴾ (الأنبياء آية: ٥٩).

وجاء الرد من البعض:

﴿سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم﴾ (الأنبياء آية: ٦٠).

وأسرعوا إلى إبراهيم فى غضب وغيظ، وأتوا به فى الساحة الكبرى.

وكانت قد امتلأت بالناس، وهذا ما كان يتوقعه، وبوجود إبراهيم تكون المناقشة علنية، وفى أكبر جمع ممكن.. وسألوه:

﴿أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم﴾؟ (الأنبياء: ٦٢).

وبلغت سخريته بهم قمتها فقال:

بل فعله الصنم الأكبر الذى تبقى سالما، لقد ثار غضبه عليهم، فقام إليهم وفتك بهم فلم يدع منهم إلها إلا حطمه، واسألوهم عن السر فهم به أعلم، لأنهم هم الذين نالهم الأذى، وهم يعرفون من الذى فعل بهم ذلك.. اسألوهم إن كانوا ينطقون..

وأدركت القوم عند ذلك حيرة شديدة، وعادوا إلى أنفسهم باللوم والعتاب، وجالت بارقة من التفكير المستقل الحر بأذهانهم، وأوشكوا أن يعترفوا بالحق المحض بل لقد قالوا لأنفسهم: إنكم أنتم الظالمون..

لكن سرعان ما استعاد الالف والتقليد والعادة المكانة الأولى من نفوسهم فنكسوا على رءوسهم وعادوا إلى ضلالهم، وقالوا فى انفعال وغضب:

﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾ (الأنبياء آية: ٦٥).

وكانت فرصة نفيسة أن يسأل إبراهيم هذا الجمع وهذا الملأ قائلًا فى تهكم لاذع:

﴿أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئًا ولا يضركم.. أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون﴾؟ (الأنبياء آية: ٦٦، ٦٧).

حطم إبراهيم الأصنام تبعًا لأمر الله، فأتى به قومه على أعين الناس ليحاكموه وليشهد الناس محاكمته، فجادلهم وسخر منهم، فما كان منهم إلا أن قالوا: ﴿احرقوه وانصروا آلهتكم﴾.

لقد استقر رأيهم على إلقائه فى النار ليموت حرقًا.

ولقد روى القرآن عنهم أنهم قالوا أيضًا..

﴿ابنوا له بنيانًا فألقوه فى الجحيم﴾ (الصافات آية: ٩٧).

لقد كان الجو فى غاية من التوتر، فقد سفه إبراهيم أحلام الملأ من قومه وسخر بآلهتهم فأثار فى نفوسهم غيظًا مكبوتًا، وما أن صدر الحكم حتى حاول كل واحد أن يساهم فيه.

وما من شك فى أن التفاصيل التى يذكرها من كتبوا عن القصة لا يستند كثير منها إلى أصل موثوق به، ولكن لا بأس من أن نذكر من هذه التفاصيل، أنه حينما اجتمع الملأ الذين كفروا من قوم إبراهيم وعلى رأسهم النمرود، وأصدروا الحكم أخذوا يهيئون وسيلة التنفيذ، فحبسوه فى بيت وبنوا بنيانًا بقرية يقال لها «كوش» ثم جمعوا - كما يقول الشيخ الصاوى - صلاب الحطب وأصناف الخشب مدة شهر، حتى كان الرجل يمرض فيقول: لو عوفيت لأجمعن حطبًا لإبراهيم، وكانت المرأة تغزل

وتشترى الحطب بغزلها احتسابًا فى دينها، وكان الرجل يوصى بشراء الحطب وإلقائه فى المكان الذى ستشعل فيه النار.

فلما جمعوا ما أرادوا أشعلوا فى كل ناحية من الحطب نارًا فاشتعلت النار واشتدت حتى أنه كان الطير ليمر بها فيحترق من شدة وهجها وحرها، فلما أرادوا أن يلقوه فيها أعيهم الحيل فى كيفية إلقائه فصنع لهم رجل من الأكراد يسمى: «هيزن» منجنيقا فعمدوا إلى إبراهيم فأخذوا يقيدونه ويكتفونه، وهو يقول - حسبما رواه العالم الثقة الإمام ابن كثير - لا إله إلا أنت سبحانك، لك الحمد ولك الملك، لا شريك لك..

ويروى الإمام البخارى بسنده عن ابن عباس أنه قال:

﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾.

قالها إبراهيم حين ألقى فى النار، وقالها محمد حين قيل له:

﴿إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل.. فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء﴾ (آل عمران آية: ١٧٣-١٧٤).

أما الشيخ الصاوى فإنه - من جانب - رأى إبراهيم صورة من صور الإخلاص لله والاستجابة له والتفانى فى طاعته وهو يوشك أن يلقى فى النار، ورأى من جانب آخر أعداء طغاة ظلمة يوشكون أن يلقوا به فى النار فأخذ يذكر الأمر فى صورة شاعرية، وذلك أنهم حينما كانوا على وشك

قذف إبراهيم عليه السلام فى النار صاحت -كما يذكر- السماء والأرض ومن فيهما من الملائكة وجميع الخلق إلا الثقلين صيحة وحدة:

أي ربنا، إبراهيم خليلك يلقى فى النار وليس فى أرضك أحد يعبدك غيره فأذن لنا فى نصرته.

فقال الله تعالى: «إنه خليلى ليس لى خليل غيره وأنا الإلٰه ليس له إلٰه غيرى.. فإن استغاث بأحدكم أو دعاه فلينصره فقد أذنت له فى ذلك، وأن لم يدع غيرى فأنا وليه وأنا أعلم به' فخلوا بينى وبينه.

وماذا جرى بعد هذا؟

إنه جميل ذلك التصوير العاطفى الذى صورت به تلك اللحظة الحاسمة التى أوشك الطغاة أن يلقوا فيها بإبراهيم فى النار، فإن إبراهيم - فيما رأى هؤلاء الكاتبون - صورة للبراءة البريئة التى يوشك الغاشمون أن ينكلوا بها فى صورة بشعة إرضاء لاهوائهم، وإشباعًا لجبروتهم، وهذه الصورة على هذا الوضع تستثير دائمًا كتّاب العاطفة فيتفننون فى التصوير والعرض..

لقد كان إبراهيم عليه السلام فى هذه اللحظة محل عناية الخلائق ماعدا الثقلين، وكان على الخصوص محل عناية الملائكة، وقد استأذنوا الله فى نصرته فأذن الله لهم بشرط ألا يتدخلوا فى الأمر إلا إذا طلب إليهم إبراهيم ذلك.

وأتاه الملك الموكل بالمياه والمطر، وعرض عليه أن يطفئ النار بأمطار

من السماء وبمياه تتفجر من الأرض، ورد عليه إبراهيم بأن لا حاجة بى إليك: حسبى الله ونعم الوكيل.

وأتاه ملك الهواء وعرض عليه أن يرسل الريح عاصفة مزلزلة فتطير النار فى الهواء، فقال له إبراهيم:

لا حاجة بى إليك: حسبى الله ونعم الوكيل..

وأتاه جبريل عليه السلام يعرض عليه كثيرًا من وجوه الإنقاذ، وقال له: ألك من حاجة؟ ويرد عليه إبراهيم:

أما إليك فلا..

ويرى جبريل الموقف، ويشفق على إبراهيم، ويؤمن أن إبراهيم لو دعا ربه لاستجاب، ولكنه لا يسمع دعاء ولا يرى تضرعًا فيقول له: فاسأل ربك!

ويرد إبراهيم: حسبى من سؤالى علمه بحالى..

هذه الصورة لإبراهيم هى حقا صورة الرجل الذى ألقى بقياده تامًا كاملاً إلى الله سبحانه، إنه الرجل الذى ينفذ ما يؤمر به من غير تردد ولا فتور، وينتهى عما ينهى عنه فى تصميم وعزم، ولا يسأل غير الله أحدًا، بل إن ثقته بعلم الله الكامل المطلق الشامل تمنعه من سؤاله، والله سبحانه وتعالى يقول فى حديث قدسى:

«من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ماأعطى السائلين..»

ولقد كان إبراهيم عليه السلام مشغولاً بذكر الله عن مسألته.. وكان إبراهيم عليه السلام مفوضًا الأمر إلى الله تفويضًا كاملاً، مسلمًا وجهه إليه إسلامًا تامًا. ومن أجل ذلك جاء النداء الإلهى:

﴿يا نار كونى بردًا وسلاما على إبراهيم﴾.

وانظر إلى التعبير الإلهى، إنه سبحانه لم يقل: يا نار كونى بردًا على إبراهيم، ولو كان هذا هو التعبير لآذته النار ببردها، ولكنه سبحانه - وهو أحكم الحاكمين - أضاف إلى البرد السلام فكانت بردًا غير ضار، وكانت سلامًا ممتعًا..

وما من شك فى أن الله سبحانه لا يتخلى عن عباده المخلصين فى هذه اللحظات الحاسمة، وهو سبحانه الذى يقول:

﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ (الطلاق آية: ٢).

أى يجعل له مخرجًا من كل ضيق، ومن كل أزمة، ومن كل كرب، ومن كل غم، وييسر له وسائل الرزق بحيث يأتيه من حيث لا ينتظره..

لقد ألقى إبراهيم فى النار ولا يتأتى أن نحرم القارئ الكريم من التصوير اللطيف الذى رسمه أسلافنا لفترة مكث إبراهيم فى النار..

قضية إبراهيم عليه السلام هى قضية داع إلى الله، أمره سبحانه بتحطيم الأصنام فحطمها، طاعة لأمر الله، وهو فى سلوكه محب لله، متفان فيه، يجاهد بكل ما يملك فى سبيل هداية الناس إلى الله.

وهاهم أولاء الطغاة، يوثقونه كتافًا، ويلقونه فى النار، وليس له من ذنب إلا أن يقول ربى الله..

ولا يجول بخلد إنسان أن الله سبحانه يتركه دون إنقاذ، ولقد أمر الله النار أن تكون بردًا وسلامًا عليه.

هل فعل الله به غير ذلك؟

لقد أراد المفسرون للقرآن الكريم أن يشرحوا إكرام الله له فى هذا الموقف: فقالوا:

إن الملائكة تلقته تحمله فى رفق حتى وضعته على الأرض فإذا عين ماء عذب وإذا ورد أحمر، وإذا نرجس يحيط به، وأتاه جبريل بقميص من حرير الجنة وأتاه بأريكة يجلس عليها، وألبسه القميص، وأجلسه على الأريكة وجلس معه يحدثه ويؤنسه ويقول له فيما يقول:

يا إبراهيم، إن ربك يقول لك: أما علمت أن النار لا تضر أحبابى؟

ومكث إبراهيم فى النار بضعة أيام، ويتحدث المفسرون أيضًا عن شعوره فيخبرون عنه أنه قال:

«ما كنت أيامًا قط أنعم من الأيام التى كنت فى النار»؟

ومهما يكن من شيء: فإن الله قد حفظ إبراهيم فلم تضره النار، ويتحدث الله عن أعداء الله فيقول عنهم:

﴿فأرادوا به كيدًا فجعلناهم الأخسرين﴾ (الأنبياء آية:٧٠).

ويقول سبحانه:

﴿فأرادوا به كيدًا فجعلناهم الأسفلين﴾ (الصافات: ٩٨).

لقد أرادوا أن ينتصروا فكان نصيبهم الخذلان الواضح، ولقد أرادوا الرفعة فكان عاقبة أمرهم أن اتضعوا، ولقد وطنوا أنفسهم على الغلبة فدارت عليهم الدائرة وغُلبوا..

وهكذا كانت حادثة إبراهيم تحقيقًا للوعد الأزلي بنجاة رسله وبنجاة المؤمنين.

يقول سبحانه:

﴿ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا، كذلك حقًّا علينا ننْج المؤمنين﴾ (يونس آية: ١٠٣).

ثم ماذا كان بعد ذلك؟

إن الذي كان بعد ذلك، هو ما أخبر الله عنه بقوله:

﴿ونجيناه ولوطًا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين﴾ (الأنبياء آية: ٧١)

فلنتابع إبراهيم فى مقره الجديد.

ولكننا نقول فى ثقة كاملة، إن حادثة إبراهيم لم تمر دون أن تترك أثرًا هائلاً بين عُبَّاد الأصنام هؤلاء..

لقد رأى الناس أن رب إبراهيم حفظ إبراهيم، وأن آلهتهم لم تتمكن من حماية نفسها هى فضلاً عن حماية غيرها، وتزلزلت العقيدة فى أنفسهم، ولابد أن يكون التيار الإيمانى فى هذه البقعة قد غير اتجاهه وأخذ يستشرف إلى الوضع الصحيح.

إن حادثة إبراهيم لم تمر دون أن تترك أثرًا عميقًا، ودون أن تزلزل الشرك من جذوره، وحكمة الله فوق كل حكمة، وتدبير الله أسمى من كل تدبير.

يقول شاعرنا العربى هذا البيت من الحكمة العميقة:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلى الله بعض الناس بالنعم

وقد أنعم الله على إبراهيم عليه السلام بمحاولة قومه أن يقتلوه حرقًا بالنار، وفى مقابل ذلك ابتلى الملك الطاغية نمرود بالملك.

لقد ابتلاه بالملك فلم يقل كما قال سليمان عليه السلام:

﴿هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم﴾ (النمل آية: ٤٠).

كلا لم يقل ذلك، وإنما كان مثله كمثل فرعون، فقد استخف نمرود قومه فأطاعوه.

أنا ربكم الأعلى.

فقالوا: سمعًا وطاعة.

ولما رأى هذا الطاغية سيدنا إبراهيم يدعو لتأليه غيره، استدعاه وسأله عن شأنه وعن ربه فقال إبراهيم:

ربى الذى يحيى ويميت.

وحاول الطاغية المغالطة، فقال:

أنا أحيى وأميت.

وفى تفسير مغالطته يقول محمد بن إسحاق:

«يعنى أنه إذا أُتى بالرجلين قد تحتم قتلهما، فإذا أمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر، فكأنه قد أحيا هذا وأمات الآخر» اهـ.

وما إلى هذا قصد سيدنا إبراهيم، ورأى عليه السلام أن الاستمرار فى هذه الحجة لا طائل تحته، فإن الطاغية سيمارى ويجادل. فعدل عليه السلام عن ذلك حجة لا يتأتى للمتأله الرد عليها قال:

﴿فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب﴾ ! (البقرة آية: ٢٥٨).

يريد أن يقول: إن هذه الشمس التي خلقها الله من قبل أن تولد أنت، وسخرها تجرى لمستقر لها، وجعلها تشرق كل صباح من المشرق، وتغرب كل مساء في المغرب.

إن هذه الشمس التي جعلها ربي تسير على هذا النسق، حاول أنت أن تعكس سيرها. فاجعلها تدور في طريق عكسي بحيث تشرق مما نسميه نحن المغرب، وتغرب فيما نسميه المشرق.

أما رد الطاغية على هذا فهو ما صوره الله تعالى بقوله:

﴿فبهت الذى كفر، والله لا يهدى القوم الظالمين﴾ (البقرة آية: ٢٥٨).

وبعض الناس في كل زمان ومكان يغزوهم الكبرياء، وتشتاق نفوسهم إلى التأله، ويصلون من ذلك إلى قليل أو كثير، وذلك إن الكبرياء تأله، والخيلاء تأله، فيعاتبهم الله لمنازعتهم إياه في صفات الألوهية.

ولقد عاقب الله هذا الطاغية، وجعل عقابه يأتي عن طريق خلق لله ضعيف، هو الناموس.

لقد عذبه الله بالناموس، وأهلكه بالناموس، وكان مصيره مصير جميع الطغاة.

غضب من الله في الدنيا، وعذاب أليم في الآخرة.

* * *

منذ أن خلق الله الكون والبشر يحبون معرفة سر الحياة والموت، وكيفية إحياء الموتى، والأنبياء وهم محبون لله، وهم محبوبون من الله، يحبون دائماً أن يعرفوا من أسرار الله ما خفى عنهم.

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول دائماً:

﴿رب زدنى علماً﴾.

ومن هذا القبيل - قبيل زيادة العلم والاطلاع - طلب سيدنا إبراهيم من الله أن يريه كيف يحيى الموتى، فقال مخاطباً ربه:

﴿رب أرنى كيف تحيى الموتى﴾.

ويرد الله عليه قائلاً:

﴿أو لم تؤمن﴾

أى أو لم تؤمن بالبعث والقدرة المطلقة الشاملة؟

وكان إبراهيم عليه السلام مؤمناً أقوى ما يكون لإيمان، بيد أن بين الإيمان والمشاهدة فارقاً ملموساً، ومن أجل ذلك كان المثل الأعلى فى الإسلام يعبر عنه بالشهادة فيقال: أشهد أن لا إله إلا الله.

وأجاب إبراهيم فى سرعة سريعة: إنى مؤمن، وما أردت بالمشاهدة إلا الاطمئنان القلبى الذى يحدث عن المشاهدة، يقول الإمام ابن كثير:

وقد كان إبراهيم عليه السلام يعلم قدرة الله على إحياء الموتى علماً

يقينيًا لا يحتمل النقيض، ولكن أحب أن يشاهد ذلك عيانًا، ويترقى من علم اليقين إلى عين اليقين، فأجابه الله إلى سؤاله وأعطاه غاية مأموله» اهـ.

لقد قال الله له:

خذ أربعة من الطير فاضممهن إليك، والقهن بحيث يأتينك إذا ناديت وتأمل أشكالها وهيئتها لئلا تلتبس عليك بعد الإحياء، أو تتوهم أنها غير ذلك، ثم اذبحها واجعلها أجزاء وفرقها على الجبال المحيطة بك، فاجعل على كل جبل منهن جزءًا، وبعد ذلك ادعهن فسيأتينك سعيًا، واعلم أن الله عزيز حكيم.

والواقع أن القرآن معنى كل العناية بإقامة الأدلة على إثبات البعث، وإحياء الموتى، وقد عالج الموضوع من زوايا متعددة وأقام عليه مختلف الأدلة ومثل له بعدة ألوان من التمثيل.

وقد سأل الجاحدون للبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلين: من الذى يحيى العظام بعد أن أصبحت بالية؟

ويرد الله سبحانه بأن الذى يحيى العظام هو الذى أنشأها أول مرة، ولقد أنشأها أول مرة من العدم، وكل موجود إنما كان عدمًا ثم وجد، فإذا كان الله ينشئ من العدم فإنه من باب أولى يعيد جمع ما تفرق وأن ذلك أسهل، ويعبر الله عن ذلك فى إيجاز بليغ جميل فيقول:

﴿قل يحييها الذى أنشأه أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾ (يس آية: ٧٩).

ثم أيتأتى فى الذهن أن الذى خلق السموات والأرض فى عظمتها وسعتها، وفى إبداعها وتنسيقها، لا يمكنه إعادة ما مات وإيجاد ما تفرق، مع أن ذلك أسهل من خلق السموات والأرض؟

إن الله سبحانه يخلق فى كل لحظة خلقًا جديدًا نراه ونؤمن به، وما البعث إلا ظاهرة هى أسهل من الخلق والإنشاء وما يجحد بها إلا الذين لم يتدبروا صنع الله الذى أتقن كل شىء خلقه.

كان إبراهيم عليه السلام معنيًا بتطهير العقيدة عن الله من كل ما يحيط بها من شرك.

وما من شك فى أن عبادة الأصنام إشراك بالله سبحانه، ولا يفيد فى هذا المقام أن يقول عُبّادها:

﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾.

فإن ذلك لا ينفى أنهم يعبدونها من دون الله أو مع الله، وعبادتها من دون الله كفر بالله، وعبادتها مع الله إشراك به.

وقد يندهش بعض الناس من موقف الإنسانية فى بعض الأزمنة، وفى بعض الأمكنة من عبادة الأصنام ويتساءل:

أما كان لهؤلاء العابدين للأحجار من عقل يعقل، أو فؤاد يدرك؟

أيجوز فى أفهام الناس أن يعبدوا أحجارًا أو معادن صنعوها لا عقل لها ولا شعور فيها؟

أيتأتى أن تهوى الإنسانية إلى هذا المستوى من البلاهة؟

وهنا نأتى إلى تفسير هذه العقيدة فى بعض الأقاليم التى نشأت بها:

إن الكواكب فى السماء تشرق متلألئة وضاءة ترتاح النفس إلى ضوئها، وتستريح إلى لمعانها.

والنور يرسل شعاعه الفضى إلى الأرض فيبدد الظلمات، ويكون هاديًا ودليلاً، ويفتن الشعراء والعاطفيين بنوره الخافت، وأضوائه، ثم ها هى ذى الشمس ترسل شعاعها الذهبى حينما تشرق، وترسل شعاعها الذهبى فى ساعة الأصيل وهى فيما بين ذلك تتلألأ فى قوة هائلة، وتتوهج فى جبروت طاغ، وفى كل لحظاتها تبعث الدفء والحياة فى جميع أرجاء المعمورة.

كانت هذه الكواكب على مر الزمن مثار جاذبية وتأمل، ثم مثار حب وافتتان، ثم مثار إكبار وتقديس، وانتهت الإنسانية فى أمرها إلى العبادة.

والإنسان دائمًا يحب أن يكون معه أثر من آثار معبوده، وصورة له أو تمثال له، صغير أو كبير.

وصُوِّرت الكواكب، واتُّخذت لها التماثيل، وكانت الأصنام على شكل

الهياكل العلوية على ما يقول الشهر ستانى، وكانوا يعبدونها باعتبارها رمزًا للهياكل العلوية. وهذه الهياكل العلوية التى هى النجوم والكواكب ما كانت فى أذهانهم إلا مقرا للأرواح، ومجالاً للعقول الروحانية.

ولقد كانوا يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى.

فأصل عبادة الأصنام ناشئ – فى بعض أسبابه – عن عبادة الكواكب.

أما عبادة الكواكب فلأنها مقر الأرواح العالية التى هى – فى عرفهم – الملائكة. فقد كانوا يعتبرون أنفسهم أحقر من أن يتجهوا مباشرة إلى الخالق العظيم بالعبادة فتوسلوا إليه بملائكته ليشفعوا لهم عنده فى القرب، وفى الرزق، وفى السلامة من الكوارث، وفى العافية على وجه العموم.

ولقد بين الإسلام أن الله أقرب إلى الإنسان ممن يكون بجواره، وأنه مع الإنسان أينما كان، وأنه هو وحده الذى يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء.

ولقد صادف سيدنا إبراهيم هذا الفريق أيضًا من عبدة الكواكب وكان له معهم موقف محدد.

لقد صادف سيدنا إبراهيم ألوانًا من الانحرافات فى عقيدة الألوهية فقد صادف أولاً عبدة الأصنام، ثم صادف نموذجًا من المدّعين للألوهية يزعم أنه يحيى ويميت، ولقد أبان سيدنا إبراهيم لكل من هذين الفريقين

درجة الحق فى عقيدة الألوهية.

ثم صادف فريقًا ثالثًا يعبد الكواكب، فى أسلوب سافر ودون وساطة، من أصنام وأوثان.

وكانت العقيدة فى الكواكب متغلغلة فى نفوسهم، بحيث لا يتأتى مجابهتها، بأسلوب مباشر من الرفض يبدأ به الإنسان فى أول كلامه، وكان لابد من استعمال الافتراض، ومن إفساح المجال للأخذ والرد فى الموضوع.

وافترض إبراهيم عليه السلام افتراضًا لا يؤمن به ولا يتمشى مع الحقيقة، افترضه ليقود الخصم إلى الصدق الصادق والحق الواضح.

لقد جلس مع هؤلاء الذين يعبدون الكواكب، وربما كانت الجلسة فى معبدهم الذى يجتمعون فيه إذا أمسى المساء يتطلعون إلى الكواكب فى صورة شاعرية وفى نوع من التأمل فى هذه الكائنات الظاهرة الخفية، الواضحة المجهولة، التى يرونها مضيئة لامعة ولكنها مقنعة لاتبدى أسرارها، ولاتعلن عن خفاياها، وأمسى المساء، وبدأت النجوم تظهر الواحدة تلو الأخرى.

وما أن أشرق أول كوكب حتى أشار إليه إبراهيم عليه السلام مفترضًا أنه الله، فهش الجميع وبشوا، وبدأ على وجوههم الأنس به والمودة له: إنهم يعرفونه رجلًا ناضجًا، حكيمًا متبصرًا، وها هو ذا يعترف بآلهتهم.

وأخذوا يتطلعون إلى الكوكب فى مسيره، ثم فى انحداره إلى الغروب، ثم هاهم أولاء يرونه قد زال عن أعينهم واختفى، وبدأ الامتعاض على وجه إبراهيم، وقال:

﴿لا أحب الآفلين﴾.

«لا أحب إلا الحاضر باستمرار، أما ما يغيب ويختفى ويزول فلا تكون له صفة الثبات والدوام والخلود فإنى لا أقدسه ولا أعتبره إلهًا، فالإله باق مستمر خالد قريب».

بدأوا يفكرون ويتشككون، ويضيقون ذرعًا بآلهتهم وبإبراهيم.

وخانهم المنطق فى الرد عليه، وأبت عاداتهم ومألوفاتهم أن تستجيب للعقل والمنطق فكان الضيق البادى عليهم.

ولكن إبراهيم فاجأهم بما خفف عن عقولهم ونفوسهم، بافتراضه حينما رأى القمر بازغًا أنه الله، وسرت فى القوم همسات الارتياح، وأصوات الاستحسان، وتطلعوا إلى القمر مفتونين بشعاعه الفضى وبجماله المتألق، ولكنهم رأوه هو الآخر ينحدر، فأخذت قلوبهم تخفق مع انحداره، وتوقعوا الخاتمة، وتوقعوا ما سيقوله إبراهيم الذى أعلن لهم حينما زال القمر واختفى:

﴿لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين﴾.

مبينًا بذلك أن هدى الله ليس فى عبادة الكواكب، ولا فى عبادة القمر.

وعلا وجوه القوم سهوم، ولزموا الصمت، واستمروا فى تأمل إلى الصباح وإذا بالشمس تشرق ساطعة جميلة، فيقول إبراهيم:

﴿هذا ربى هذا أكبر﴾.

ولكنها هى الأخرى غير مستقرة، إنها إلى زوال. فلما زالت قال:

﴿يا قوم إنى برىء مما تشركون، إنى وجهت وجهىَ للذى فطر السموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين﴾ (الأنعام آية: ٧٩).

خلّص إبراهيم عليه السلام عقيدة الألوهية من جميع ألوان الشرك المعروفة لعهده.

لقد خلصها من عبادة الإنسان، وخلصها من عبادة الأصنام، وخلصها من عبادة الملائكة، وخلصها من عبادة الكواكب، وأعلن فى النهاية:

﴿إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين﴾.

إلى التوحيد الخالص كان يدعو منذ أن آتاه الله رشده فى سن مبكرة وهو فى بابل، وإلى التوحيد الخالص كان يدعو وهو فى رحلته من بابل إلى بلاد الشام.

كان يرافقه فى رحلته زوجته، وكان يرافقه لوط عليه السلام، وكان من أول من آمن به وقد كان ابن أخيه.

وما كان الركب متعجلاً فى رحلته، إنها رحلة إلى الله، ولذلك كانوا ثلاثتهم، يتنهزون الدعوة إلى الله كلما حانت الفرصة، وإذا اقتضت الدعوة الاقامة أياماً، أو أسابيع أقام الركب يدعو بسلوكه المتسامى وبقوله العذب وبمنطقه الفصيح.

ثم استقر المقام فى النهاية بالشام، وهى ما عناه الله سبحانه بالأرض المباركة فى قوله تعالى:

﴿ونجيناه ولوطًا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين﴾ (الأنبياء آية: ٧١).

أقام إبراهيم فى أرض الشام ما شاء الله له أن يقيم، ثم جاءت فترة أمسكت السماء فيها مطرها وأجدبت بسبب ذلك الأرض، فلم تنبت ولم تثمر فهاجر إبراهيم ومن معه إلى مصر.

أقام فى مصر يدعو إلى الله ويتاجر، ويبدو أن تجارته نمت وأصبحت له شهرة، ويبدو أن صلة قامت بينه وبين القصر الملكى فى مصر، بيد أن دعوة التوحيد تزعج دائمًا الطغاة والجبارين ومدعى الألوهية، ومن أجل ذلك لم تطب الإقامة لإبراهيم فى مصر، فقد تنكر له الملك، وتنكرت له الحاشية، ولكنه مع ذلك خرج من مصر على مودة ظاهرية شكلية بادية، وكان من مظاهرها إهداء القصر لإبراهيم عليه السلام «هاجر» تقوم على خدمته وخدمة أسرته.

وكان أبو هريرة رضى الله عنه يذكر هاجر ويقول لقريش:

تلك أمكم يا بنى ماء السماء.

وتذكر كتب السير أن إبراهيم عليه السلام، رجع من بلاد مصر إلى أرض الشام ومعه أنعام وعبد، ومال جزيل، وصحبتهم هاجر القبطية المصرية.

فلما استقر به المقام من جديد بأرض الشام، وكان لوط عليه السلام فى هذه الفترة قد بلغ من النضج بحيث يمكنه أن يستقل بالدعوة، رأى إبراهيم عليه السلام - لمصلحة الدعوة - أن يرسل لوطا إلى بقعة أخرى ليكون للدعوة مركزان:

مركز يقوم عليه إبراهيم عليه السلام، ومركز يقوم عليه لوط عليه السلام.

ولعل لوطًا كان قد نبئ فى تلك الآونة.

ولعله لم يتنبأ إلا فى مكانه الجديد.

ومهما يكن من شىء فقد ارتحل لوط إلى سدوم ليدعو إلى الله..

وسندعه مؤقتًا مستغرقًا فى دعوته ونواصل مرافقة إبراهيم عليه السلام.

* * *

فارق إبراهيم عليه السلام ديار مصر إلى الشام هو ولوط وسارة، ومعهم

هاجر وكان معهم مال كثير، واستقر إبراهيم فى أرض الشام، فأرسل لوطًا إلى سدوم.

فلما استقر بإبراهيم المقام، وهدأت الأمور، رأت سارة أن حياة إبراهيم عليه السلام بدون ولد يلعب فى البيت ويبتسم ويضحك حياة ينقصها عنصر من عناصر البهجة، ورأت أن حياة الدعوة محتاجة إلى ولد يشرب مبادئها، ويشب فى جوها، ويسير على قواعدها، ثم يتابع الرسالة ويحمل الدعوة بعد أبيه، فعرضت على إبراهيم أن يدخل بهاجر.

وماذا فى ذلك؟

إن هاجر - فيما رأت سارة، وفيما رسم لها تفكيرها - خادمتها، وستستمر هى رغم دخول إبراهيم بهاجر سيدة البيت الأولى، وستستمر منزلتها من هاجر هى: منزلة ربة البيت وبجوارها خادمة قد كرمتها فوهبتها لزوجها لمجرد مهمة محددة: هى إنجاب الولد.

وتم الزواج، وحملت هاجر، وشعرت هاجر بأن الوضع قد تغير بسبب هذا الحمل، وشعرت بأنها وشيكًا ستكون أمًّا، وسيكون زوجها أبًا: أى شديد الصلة بها، وثيق الرابطة بابنها، وشعرت بأنها تمتاز بما ينقص سارة، وأنها لم تعد مجرد الخادمة التابعة، بل أصبحت من الأسرة، لها حقها، ولها كرامتها.

وربما كانت فى كل ذلك لا هم لها إلا تمهيد جو كريم يشب فيه ابنها

بحيث لا يرى أثرًا لماضى أمه المتواضع، ولا يرى جوًا تكون أمه فيه أقل من باقى الزوجات.

ولعلها لم تكن فى كل ذلك ناظرة إلى نفسها، وإنما ناظرة إلى هذا الأمل الحلو الذى يوشك أن يتحقق، وإلى هذه السعادة التى توشك أن تنبثق، إنها ستعطى إبراهيم ما تمناه حين دعا الله أن يهب له ولدًا من الصالحين، وستسعد هى بأن تكون أما.

وشعرت سارة بالوضع الجديد، ولاحظت فى مسلك إبراهيم عليه السلام من هاجر تغييرًا. لقد أصبح يعاملها كزوجة بعد أن كان يعاملها كخادمة، ومع أنه لم يكن يهينها أو يمتهنها فيما مضى، لأنه على خلق كريم.

ومع أن نضجه واتزانه ورويته كانت تمنعه من إظهار ألوان من الخفة تبدو فى مسلك من حرم الولد فترة طويلة من الدهر ثم إذا به فجأة وعلى لهفة إلى الولد يرى الأمل العذب يوشك أن يتحقق.

ومع أنه كان رفيقًا بسارة محبًا لها متوددًا إليها.

مع كل ذلك، شعرت سارة بأن الموقف قد تغير.

وهاهى ذى تتبع حركات هاجر، الصغيرة منها والكبيرة، بفؤاد يقظ تسمع أذنها ما تقول هاجر وما لم تقله، وترى عينها ما تفعل هاجر وما لم تفعل وكذلك كانت أيضًا - بل ومن باب أولى - فيما يتعلق بإبراهيم عليه السلام. وكبتت غاظتها أول الأمر، ولكنها فى النهاية

لم تحتمل كبت عاطفتها، وأخذت تبدى ما خفى فى نفسها شيئًا فشيئًا، وأخذت هاجر تتلطف وتتستر حتى لتقول الروايات:

«إنها اتخذت أثوابًا طويلة الذيل لتعفى أثرها على سارة أى لتخفى سيرها ومواضع أقدامها فتضيع المعالم ولا يتأتى لسارة أن تعلم خط سيرها حينما تتبعها فى حلها وترحالها.

إلام انتهى هذا الوضع بالنسبة لها؟

ذلك ما سنتحدث عنه:

اتجه إبراهيم إلى الله متضرعًا وقال:

﴿رب هب لى من الصالحين﴾ (الصافات آية: ١٠٠).

واستجاب الله دعاءه وبشره بغلام حليم.

ولد هذا الغلام بأرض الشام، ولدته هاجر التى وهبتها سارة لإبراهيم زوجة له. فلما دخل بها حملت، وجاء يوم رأى فيه بيت إبراهيم عنصرًا جديدًا فى حياته هو إسماعيل المولود الجديد.

ودبت الغيرة فى قلب سارة فلم تحتمل رؤية إسماعيل وأمه، فأشارت على إبراهيم أن يتخير لها مكانًا آخر، واستخار إبراهيم ربه، ثم حمل الأم وطفلها إلى المكان الذى أمره الله باقامتها فيه: إلى مكة.

لقد وضعها عند شجرة كبيرة «فوق زمزم فى أعلى المسجد» وليس بمكة

يومئذ أحد، وليس بها ماء، إذ لم يكن ماء زمزم قد تفجر بعد.

لقد وضعها هنالك وترك لها شيئًا يسيرًا من الزاد يتمثل فى جراب من تمر وفى سقاء من ماء.

وهم إبراهيم بالعودة من حيث أتى، وتطلعت هاجر هنا وهناك، وأجالت بصرها شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا فلم تر أنيسًا، ولم تلمح أثرًا للحياة فتعلقت بإبراهيم ترجوه فى أن لا يتركها بهذا الوادى الذى لا أنيس به، وصمت إبراهيم عليه السلام، وأعادت هاجر الرجاء، وصمت إبراهيم عليه السلام، وكررت هاجر الرجاء فلم تجد إلا صمتًا. صمتًا تتمثل فيه الرحمة والمودة، والحب والحنان، ولكنه صمت مُصرٌّ وسكوت عازم.

فقالت هاجر: الله أمرك بهذا؟

فقال: نعم.

فقالت: إذن لا يضيِّعنا.

وتركته ينصرف وعادت إلى ابنها تضمه بين ذراعيها فى حنان وحب. وسرحت بخيالها فى المستقبل المجهول، وفى تصاريف القدر، وكلها ثقة فى عناية الله ورعايته.

انطلق إبراهيم عائدًا حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا الله رافعًا يديه قائلاً:

﴿ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾ (إبراهيم آية: ٣٧).

وهدأت نفسه، وسار فى طريقه مفوضًا الأمر إلى الله لا تهمس فى الكون همسة ولا تطرف فيه عين إلا بعلمه وإرادته.

أما أم إسماعيل فقد انفردت فى هذا المكان مع ابنها الرضيع تجول نظراتها فى عالم الإشفاق، ويجول إيمانها فى جو الثقة، تجرها طبيعتها إلى الخوف، وينزع بها يقينها إلى الأمن، ثم ألقت بقيادها إلى الله.

وضمت طفلها إلى صدرها، وأغمضت عينيها، وأرسل الله النعاس انقاذًا لها من التردد بين ما توحى به طبيعتها وفطرتها، وما يوحى به إيمانها ويقينها.

وعاشت أم إسماعيل على جراب التمر وسقاء الماء مقتصدة، مسرفة فى الاقتصاد، ولكن جراب التمر وسقاء الماء ما لبثا أن نفدا.

وضع إبراهيم عليه السلام ابنه الرضيع إسماعيل وأمه هاجر عند بيت الله الحرام وتركهما، ومعهما زاد قليل لم يلبث أن نفد، وجاعت الأم وعطشت وجاع ابنها وعطش، وجعل يتلوى باكيًا، صارخًا فى منظر يفتت القلوب، ولم تتحمل الأم رؤيته على هذه الحالة، فانطلقت كراهة أن تنظر إليه على هذه الحالة فوجدت الصفا أقرب المرتفعات إليها فأسرعت نحوه،

وارتقت عليه وأخذت تجيل بصرها فى الوادى هل ترى من أحد، فلم تر أحدا.

فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف ثوبها مشمرة ملابسها ثم سعت سعى الإنسان المجهود، لقد كانت تسعى، وقد أنهكها الجوع والعطش تدفعها عاطفة الرحمة بابنها، كانت تسعى وكلها رحمة بهذا الرضيع الذى يلوح أمام عينيها وفى ذهنها منظره يتلوى جوعًا وعطشًا.

لقد أخذت تسعى حتى جاوزت الوادى، ووصلت إلى جبل المروة، فارتقته وأخذت تنظر، وعادت من جديد هابطة، وهكذا أخذت تتردد حيرى والهةً بين الأكمتين سبع مرات:

وهذا هو أساس منسك السعى بين الصفا والمروة فى شعيرة الحج

قال ابن عباس، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

فلذلك سعى الناس بينهما.

والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾.

إن الحاج إلى بيت الله الحرام يسعى بين الصفا والمروة سبع مرات، إنه فى هذا يترسم خطا هذه السيدة، إنه يرسمها مستشعرًا ما كانت تشعر به من رحمة وحنان.

وإذا كانت رحمتها وحنانها إنما كانا من أجل ابنها الرضيع المسكين فإن الرحمة التي ينبغي أن يستشرف إليها الحاج راجيًا أن تملأ نفسه وأن تفعم جوانحه، إنما هي الرحمة بالإنسانية جمعاء، الرحمة بكل من يحس بالألم، أو يشعر بالضيق بسبب ما يحل به من جوع أو ظمأ، أو بسبب ما يحيط به من مكر وكيد، أو بسبب ما يشعر به من خوف وقلق، الرحمة بكل من كان فى حاجة إلى الرحمة.

وتعود إلى أم إسماعيل فنجدها يلوح لها بريق من الأمل، فها هى ذى تسمع صوتًا وخيل إليها – وهى فى عنفوان عاطفتها – أن نبضات قلبها، أو خفقان ثوبها يعكر عليها السماع فقالت: صه أى أسكت – وكانت تريد نفسها بذلك – ثم تسمعت وكلها آذان، وصمتت وكلها شعور، فسمعت صوتًا من جديد، فصاحت بأعلى صوتها مستنجدة فى لهفة قائلة:

قد أَسمعتَ إن كانَ عندكَ غوثٌ.

فإذا هى بالملك عند موضع زمزم يهز الأرض، فإذا بالماء يظهر، وإذا بالنبع يتفجر، وإذا بالسعادة كلها تلوح عند هذا الماء المتلألئ فى شعاع الشمس.

وإذا بقلب هذه السيدة يسجد لله شكرًا، وإذا بلسانها ينطلق ثناء وحمدًا، ثم إذا بها تسمع الملك يقول:

«قال الملك لأم إسماعيل»:

«إن الله لا يضيع أهله».

شربت أم إسماعيل وأرضعت ولدها – وقال لها الملك – كما روى الإمام البخارى – لا تخافوا الضيعة فإن هذا البيت يبنيه هذا الغلام وأبوه، وأن الله لا يضيع أهله.

هل كان بيت الله مبنيا قبل ذلك؟ ومن بناه؟

إن إبراهيم عليه السلام يقول:

﴿ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم﴾.

فهل كان بيت الله المحرم موجودا قبل إبراهيم؟

إن حديث الإمام البخارى يقول:

وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله.

ويقول الله تعالى فى تحديد لا لبس فيه:

﴿إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركًا﴾.

وبكة فى قول الله تعالى هى: مكة، فمتى بنى البيت؟

يروى الإمام البيهقى فى دلائل النبوة بسنده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

بعث الله جبريل إلى آدم، فأمره ببناء البيت فبناه آدم.

ثم أمره بالطواف به وقيل له:

أنت أول الناس، وهذا أول بيت وضع للناس.

وروى عبد الرزاق عن عطاء رضى الله عنه أن آدم أول من بنى البيت.

والأحاديث النبوية متسقة مع القرآن الكريم تشير إلى أن أول بيت وضع للناس إنما هو البيت الحرام، وأن أول من بناه هو آدم.

وما من شك فى أن البيت كان يهمل ويترك أحيانًا فيتهدم ولكن معالمه تبقى حتى يأتى من يجدده.

وقد جدده سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل. والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾.

ولم يقل سبحانه:

وإذ يضع إبراهيم القواعد.

وإبراهيم وإسماعيل كانا إذن يرفعان القواعد التى وضعها آدم عليه السلام.

ولا بأس بأن نتعجل سير التاريخ من أجل تكميل قصة البيت حتى لا تكون متفرقة مشتتة.

لا بأس من أن نتعجل سير التاريخ فنصل إلى إسماعيل عليه السلام، وقد أصبح شابًا فتيًا يأتيه أبوه فيقول له – كما يروى الإمام البخارى:

الله أمرنى بأمر.

قال: فاصنع ما أمرك ربك.

قال: وتعيننى؟

قال: وأعينك.

قال فإن الله أمرنى أن أبنى ها هنا بيتًا.. وأشار إلى أكَمة مرتفعة على ما حولها.

قال فعند ذلك رفعا القواعد من البيت. فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان:

﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾.

قال: فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان:

﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾.

قال إبراهيم عليه السلام:

﴿إنى ذاهب إلى ربى سيهدين﴾.

وحزم أمره فغادر العراق متجها إلى الشام، وفى أثناء الطريق أحس إبراهيم بأنه يسير دون أن يكون فى صحبته ولد يؤنسه ويعينه.

لقد شعر بالحاجة إلى وريث للدعوة معين فيها، أحس بالشعور الفطرى شعور الأبوة، يريد أن تتحقق الأبوة، والحنين إلى الأبوة كالحنين إلى الأمومة فطرى فى الانسان.

ولم يكن إبراهيم عليه السلام قد أنجب إذ ذاك أولادًا، فاتجه إلى الله فى تبتل وضراعة وخشوع، وقال:

﴿رب هب لى من الصالحين﴾.

الصالحين للدعوة، والصالحين للحياة، والصالحين فى أنفسهم، والصالحين لله.

إن كلمة الصالحين فيها من المعانى ما فيها.

ويجيب الله سبحانه وتعالى دعاءه قائلاً:

﴿فبشرناه بغلام حليم﴾.

وما من شك فى أن الحلم من الأسس الأصيلة للنجاح فى الدعوة.

أتى هذا الغلام على كبر من سن والده، وأتى وله لهفة للولد، وأتى بكر والده، وكان وحيدا، وكان أمل والده فيه وفى مستقبله كبيراً، وخصوصًا لأن الله منحه عقلاً وذكاء ونجابة، ومن أجل ذلك كان قرة عين والديه وكان

حبهما له كبيرًا.

أخذ الغلام يشب ويترعرع، حتى بلغ السن التى يتمكن فيها من السعى والعمل وبلغ أيضًا من حب والديه مبلغًا عظيمًا، وكان الحب يزداد مع الأيام، ويكبر على مر السنين، وإذا بوالده يرى فيما يراه النائم أنه يذبح ابنه؛ وكان الوالد يعلم أنها إشارة له بذبح ابنه. إنها إشارة إلهية فما كان للشيطان عليه من سبيل، إنه ابتلاء جديد من نوع الابتلاء الذى اختبره الله به من تحطيم الأصنام والإلقاء فى النار، لقد نجح فى الاختبار السابق واجتازه فى ثقة بالله لاحد لها.

بيد أن الابتلاء السابق كان واضح المعنى، وكان سافر الملامح.

لقد كان أمرًا صريحًا بتحطيم الأصنام، وكان تحطيمًا مفهوم الدلالة، فما ينبغى أن يعبد مع الله أحد، وما يجوز فى منطق العقل والقلب والشعور السليم أن ينصرف الإنسان عن مانح النعم.

وكان الإلقاء فى النار أيضًا واضح المعنى، إنه فى سبيل الله، وفى سبيل الله يهون كل ألم.

لقد نجح فى الابتلاء الماضى وحفظه الله سبحانه وكتب له النجاة كما يفعل سبحانه بكل من والاه.

ولكن هذا الابتلاء الجديد غير مفهوم المعنى، وليس واضح الملامح. إنه قتل إنسان، إنه ذبح إنسان، وهذا الانسان ابن، والوالد هو الذى يذبحه..

سبحانك ربي: لقد حفظت هذا الغلام رضيعًا، وفجرت له الماء رحمة به، وقد كان من الممكن أن تنتهى به الحياة إذ ذاك، ولكنك سبحانك جلت حكمتك، أبقيته وحفظت حياته، فكان من المفروض أن تستمر به الحياة إلى أن تبلغ غايتها.

لعل مثل هذه الآراء جالت بذهن إبراهيم، أو بذهن إسماعيل، ولكنها كانت فى مقابلة الإشارة الإلهية بالذبح كالهباء فى الهواء، لم تثبت، ولم تقف على قدميها، وكان لابد مما ليس منه بد، وتهيأ إبراهيم عليه السلام لذبح ابنه، بِكْره، وحيده، لقد تهيأ لذبح إسماعيل، فما هى الحكمة.

أشار الله إلى إبراهيم فى الرؤيا بذبح ابنه.

والحكمة فى ذلك كما يقول الإمام ابن القيم.. أن الله سبحانه أجرى العادة البشرية أن بكر الأولاد أحب إلى الوالدين ممن يولد بعده.

وإبراهيم لما سأل ربه الولد، ووهب له، تعلقت شعبة من قلبه بمحبته، والله سبحانه وتعالى قد اتخذه خليلاً، والخلة منصب يقتضى توحيد المحبوب بالمحبة، وأن لا يشارك بينه وبين غيره فيها.

فلما أخذ الولد شعبة من قلب الوالد، أحب الله سبحانه لخليله أن يكون له كلية، فأمره سبحانه بذبح هذا الذى أخذ حبه شعبة من قلبه، وذلك ليخلص له كاملاً. وجاء إبراهيم عليه السلام فى يوم من الأيام إلى ابنه قائلاً:

﴿يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك، فانظر ماذا ترى﴾ (الصافات آية: ١٠٢).

أما قوله لابنه: فانظر ماذا ترى فإنه لم يكن تخييرا له، وإنما أحب الوالد أن يأتى بابنه رغبة وطاعة فيكون له الأجر والثواب.

ولو تردد الابن أو أبى أو خالف أباه لأخذه رغم أنفه.

يقول الامام الرازى:

الحكمة فى مشاورة الابن فى هذا الباب أن يطلع ابنه على هذه الواقعة فيظهر له صبره فى طاعة الله فتكون فيه قرة عين لإبراهيم حيث يراه قد بلغ فى الحلم إلى هذا الحد العظيم، وفى الصبر على أشد المكاره، إلى هذه الدرجة العالية.

ويحصل للابن الثواب العظيم فى الآخرة، والثناء الحسن فى الدنيا.

وحينما سمع إسماعيل عليه السلام من أبيه هذا الخبر وكان يشعر شعورًا واضحًا أن أباه لا يسير فى حياته إلا بتوجيه إلهى، وأن الشيطان لا سبيل له على أبيه أجاب فورًا:

﴿يا أبت افعل ما تؤمر، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين﴾ (الصافات آية: ١٠٢)

ماذا حدث بعد ذلك؟

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال:

قال الابن: يا أبت اشدد رباطى كيلا أضطرب، والفف ثيابك حتى لا ينتضح عليها من دمي شيء فينقص أجرى، وتراه أمى فتحزن، واستحد شفرتك، وأسرع بها على حلقى ليكون أهون علىّ.

وإذا أتيت أمى فاقرأ عليها السلام منى، وإن رأيت أن ترد عليها قميصى فافعل فإنه عسى أن يكون أسلى لها عنى.

فقال ابراهيم عليه السلام: نعم العون أنت يابنى على أمر الله.

لقد تهيأ كل شيء لتنفيذ الرؤيا، ومع ذلك فإن الذبح لم يتم فماذا حدث؟

هم سيدنا ابراهيم بذبح ابنه، وتهيأ كل شيء لتنفيذ الذبح.

الأب موقن بأن رؤياه إلهام من الله، والابن موقن بأنه على صواب حينما رضى بالموت تنفيذًا لأمر الله.

لقد استسلم الأب لأمر الله، واستسلم الابن لأمر الله، والقرآن حينما تحدث عن حالتهما هذه قال:

﴿فلما أسلما﴾.

لقد أسلما رغم محاولة الشيطان أن يلعب دورًا فى هذا الاختبار والابتلاء.

لقد جاء الشيطان يوسوس إلى إبراهيم عليه السلام موحيًا بأن الأمر

لا يخرج عن أن يكون رؤيا، وكم فى الرؤى من أضغاث أحلام، وهل من العقل أن يذبح إنسان ابنه مطيعًا رؤياه.

لعلها وهم من الأوهام، ولعلها خيال، مجرد خيال.

على أنه فى الرؤيا - حسب وسوسة الشيطان - لم يؤمر بذبح ابنه، ولكنه رأى أنه يذبحه، وفرق بين أن يؤمر بذبحه، وبين أن يرى أن يذبحه.

وأحس سيدنا ابراهيم بالشيطان يريد أن ينفذ إلى قلبه، وإلى تفانيه فى الله، وإلى موطن اليقين والرضا من قلبه، فرجم الشيطان بسبع حصيات ورده خاسئًا مدحورًا.

ولم ييأس الشيطان، وهو العنيد اللجوج، لقد انصرف عن الأب إلى الابن قائلًا:

إنها مجرد رؤيا، أيذبحه أبوه من أجل رؤيا.

وأحس الابن بالمحاولة الخبيثة، وعرف أنها محاولة شيطانية، فرجم الشيطان بسبع حصيات.

ولم ييأس الشيطان وهو العنيد اللجوج، فذهب مسرعًا إلى الأم:

أدركى ابنك، إن أباه يريد أن يذبحه، استنقذيه منه، قبل فوات الأوان.

ورجمته، لثقتها بأن زوجها لا يتصرف إلا فى إطار الوحى، لقد رجمته هى الأخرى بسبع حصيات، لقد رجم الجميع مصدرًا من أهم مصادر الشر

وهو الشيطان، وهذا الرمز الجميل، أعنى رجم مصدر من مصادر الشر هو الذى يتكرر كل عام حينما يوشك الحجاج إلى بيت الله الحرام، أن ينتهوا من حجهم.

إن حكمة رمى الجمار فى الحج، إنما هى رجم مصدر من أهم مصادر الشر والإثم والمعصية وهو إبليس.

رجمه مرارًا وتكرارًا.

وتنتهى أعمال الحج بهذه الصورة الرائعة، صورة العزم المصمم على الابتعاد المطلق عن الإثم والمعصية، وذلك تسجيل مؤكد، وإعلان مشهود وإشهاد سافر على أن الحاج قد عزم عزمًا لا تزعزعه أعاصير الشهوة أو مغريات الفتنة، على أن يصبح خير كله لا مجال لنزغات الشيطان للتسلل إلى نفسه فقد أصبح - بتطهير نفسه، وبرجم الشيطان - من عباد الله المخلصين الذين لا سلطان للشيطان عليهم.

لقد أسلم ابراهيم واسماعيل عليهما السلام، فلما أسلما، أى خلصا لله كلية واستسلما إليه استسلامًا مطلقًا جاء النداء، وذلك أنه فى اللحظة الأخيرة نودى ابراهيم عليه السلام.

﴿يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا، إنا كذلك نجزى المحسنين، إن هذا لهو البلاء المبين، وفديناه بذبح عظيم﴾(الصافات آية: ١٠٤-١٠٧).

لقد أسلما إسلامًا استتبع الفداء، والإسلام لله على هذه الصورة أى

الاستسلام الكامل لله يستتبع حتماً الفداء فى كل عصر، وفى كل مصر.

إن من أسلم نفسه لله عاملاً فى سبيله، قائماً بما يرضيه، تكفل الله به حماية ونصراً، عناية ورعاية فى الدنيا والآخرة:

﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون، هم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة﴾ (يونس آية: ٦٢-٦٤)

لقد تحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرؤى، ونذكر من ذلك الأحاديث الصحيحة التالية:

- الرؤيا الصادقة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة.

- وأن رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة. وأنه لم يبق من النبوة إلا المبشرات قالوا: وما المبشرات؟

قال: الرؤيا الصالحة.

هذه الأحاديث التى نقلناها عن الإمام البخارى رضى الله عنه تساندها أحاديث أخرى، وينتهى الأمر بالأحاديث إلى تقسيم مايراه النائم إلى ثلاثة أقسام:

- قسم من الله وهو الرؤيا الصادقة.

● وقسم من الشيطان.

● وقسم مما يحدث به الرجل نفسه فى اليقظة فيراه فى النوم.
وهذه الأقسام تشتمل على جميع مايراه الانسان فى النوم

أما العلم الحديث فقد بين فى وضوح تام أثر العوامل الخارجية، والعوامل الداخلية الباطنية فى الرؤيا.. وجعلها كلها أثرًا لحديث النفس، أى للشعور، فتكون امتدادًا لجو اليقظة أو للاشعور، فتكون تنفيسًا للكبت وهذا الذى يذكره العلم الحديث تفسيرًا للرؤيا حق لامراء فيه. والدين يذكر كل ما يذكره العلم الحديث، ويزيد عليه ماهو بديهى عند كل إنسان: من وجود نوع ثالث.

وهذا النوع من الرؤيا الصادقة تعترف به الأديان السماوية الكبرى جميعها فهى تتحدث عن رؤيا يوسف عليه السلام، ورؤيا الملك الذى استدعى يوسف عليه السلام من السجن لتأويل رؤياه ويقول القرآن الكريم فى شأن رسولنا عليه الصلاة والسلام:
﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق، لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون﴾ (الفتح آية: ٢٧)
بيد أن الطريف فى موضوع الرؤيا: أن لها معبرين، أو مؤولين أو مفسرين فإنها فى الأغلب الأعم، رمزية، وحل هذه الرموز إنما هو فن قائم بنفسه اشتهر به رجال، وكتبت فيه كتب.

ولقد كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يسأل الصحابة رضوان الله عليهم عن رؤياهم ويعبرها لهم ويحدثهم هو أحيانا عن رؤيا له.

وتعبير الرؤيا وتفسيرها فن يشترك فيه الآن علماء التحليل النفسى وهؤلاء الذين يلهمهم الله التعبير من الصالحين.

بيد أن علماء التحليل النفسى يقتصرون على تعبيرها فى جوانبها الحسية المادية ويكتفون بذلك، أما الآخرون: فإنهم يعبرونها فى جوانبها الغيبية الصادقة.

ولا يضير الحق أن يسجن علماء التحليل النفسى أنفسهم، وأن يسجن العلم الحديث نفسه، فى سجن المادة والحواس، فإن الحق فى أمر الرؤيا واضح أبلج، والناس - من شرقيين وغربيين، ومن قدماء ومحدثين يلاحظون وجود الرؤيا الصادقة ووقوعها يجرى فى دائرة تجاربهم.

* * *

إن الله لا يضيع أهله، ومن أجل ذلك فجّر ماء زمزم رحمة باسماعيل وأمه هاجر، وما أن تفجر الماء حتى حام حوله الطير وكأنه كان منه على ميعاد وكان من تدبير الله سبحانه أن مرت فى هذه الفترة بالقرب من الماء المتفجر قافلة من جرهم، فلما رأوا الطيور تحوم حول مكان زمزم أخذتهم الدهشة لأنهم يعلمون أن الطيور لا تحوم إلا على ماء، ويعلمون من جانب آخر أن هذا المكان - وقد مروا به من قبل - لا ماء فيه.

ولأجل أن يقطعوا الشك باليقين أرسلوا رسلاً منهم يستثبتون الخبر فإذا هم بالماء فرجعوا إلى قومهم فرحين متهللين وأخبروهم فأقبل الجميع وكانت أم إسماعيل على الماء.

فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟

قالت: نعم، ولكن لاحق لكم فى الماء، وقبلوا شرطها، ونزلوا بجمعهم ثم أرسلوا إلى أهليهم فجاءوا ونزلوا معهم.

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فآنس ذلك أم اسماعيل وهى تحب الأنس.

أنست أم إسماعيل بهم، وعاشروها فأحسنوا معاملتها، وشب ابنها بينهم وكانت لغتهم العربية، فأخذها اسماعيل عنهم وأصبحت لغته ولغة ذريته من بعده.

ولقد اشتهر بالعربية الفصيحة البليغة حتى لقد قال بعضهم: إن عربيته كانت أفصح من عربية «يعرب بن قحطان».

شب اسماعيل عليه السلام بين جرهم فيه الفتوة، والرجولة، والذكاء والمروءة، وأعجبتهم أخلاقه فزوجوه فتاة منهم.

وكانت أم اسماعيل قد تقدمت بها السن فاختارها الله لجواره.

وكان ابراهيم عليه السلام يأتى بين الفينة والفينة «يطالع تركته» على

حد تعبير الحديث الشريف، أن يتفقد حال من تركهم بجوار البيت الحرام.. وذات يوم جاء ابراهيم على عادته، وكانت هاجر قد ماتت، وكان اسماعيل قد تزوج، وطرق إبراهيم الباب فخرجت له زوجة اسماعيل، فسألها عنه، فقالت: خرج يطلب الرزق فسألها عن عيشتهم فقالت له:

نحن بشر حال، نحن فى ضيق شديد، وشدة محزنة، وأخذت تشكو إليه أمرها، ضيقة بحياتها، بطرة بعيشها.

ولقد رأى من خلال حديثها أنها ترى العالم بمنظار أسود، وتغلب على كل شيء فيه جانب التشاؤم وتجرى بخيالها فى أودية الهموم حتى وإن كانت الهموم بعيدة عنها، ورأى أن هذا النوع من النساء يجعل الحياة بعيدة عن السعادة.

وما من ريب فى أن من آيات الله أن خلق لنا من أنفسنا أزواجا لنسكن إليها وجعل بيننا مودة ورحمة، فإذا فقد ذلك فإن الزواج يكون مأساة مستمرة، رأى ابراهيم كل ذلك فقال لها: إذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له: يغير عتبة بابه.

وكما قابلته بتجهم فقد ودعته باستخفاف.

فلما جاء اسماعيل، كأنه أنس شيئًا فقال: هل جاءكم من أحد؟

قالت: نعم، جاءنا شيخ من صفته كذا وكذا، وكانت فى حديثها كالمستخفة به. وقالت: كالمتحدية، وأخبرته أننا فى جهد وشدة.

فقال اسماعيل: هل أوصاك بشيء؟

قالت: نعم، أمرنى أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غير عتبة بابك.

قال: ذاك أبى، وقد أمرنى أن أفارقك، فالحقى بأهلك، فطلقها.

لقد وصل الأمر بسيدنا ابراهيم عليه السلام أن كان خليل الله سبحانه وتعالى، يقول عز وجل:

﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ (النساء: آية ١٢٥)

وقد يتساءل إنسان عن الصفات التى أهلت ابراهيم عليه السلام لهذه المنزلة العظمى، وهذا يجرنا إلى الحديث على شخصية سيدنا ابراهيم من الناحية الخلقية.

يقول عبيد بن عمير، فيما رواه ابن أبى حاتم:

كان ابراهيم عليه السلام يضيف الناس، فخرج يومًا يلتمس انسانًا يضيفه فلم يجد أحدًا يضيفه، فرجع إلى داره، فوجد فيها رجلاً قائمًا فقال:

يا عبد الله ما أدخلك دارى بغير اذنى؟

قال: دخلتها بإذن ربها.

قال: ومن أنت؟

قال: أنا ملك الموت أرسلنى ربى إلى عبد من عباده أبشره بأن الله قد اتخذه خليلاً.

قال: من هو؟ فو الله إن أخبرتنى به ثم كان بأقصى البلاد لآتينه، ثم لا أبرح له جارًا حتى يفرق بيننا الموت.

قال: ذلك العبد أنت.

قال: أنا؟ قال نعم.

قال: فيم اتخذنى (ربى) خليلاً؟

قال: بأنك تعطى الناس ولا تسألهم.

وجوهر هذه القصة التى رويناها من أجله أن ابراهيم عليه السلام كان يعطى الناس ولا يسألهم.

وما من شك فى أن ذلك عامل من أهم العوامل التى تقرب إلى الله سبحانه، ومعنى ذلك أنه كان يعطى الناس ولا يسألهم، إنه كان يضحى ويبذل ولا ينتظر من وراء ذلك من الناس جزاءً ولا شكورًا.

وهذه الصفة من مظاهر الكرم، وقد كان سيدنا ابراهيم عليه السلام كريمًا وصفة الكرم فيه مشهورة معروفة. يقول صاحب كتاب «الصدق»

روى العلماء أن إبراهيم الخليل صلوات الله عليه كان لايأكل إلا مع الضيف، فربما لايأتيه الضيف ثلاثة أيام فيطويها، وربما كان يمشى الفرسخ (الفرسخ قريب من ثلاثة أميال) أوأقل، أوأكثر، تلقيًا للضيف.

على أن الله سبحانه وتعالى قد أشار إلى كرم سيدنا ابراهيم، وذلك حينما

أتته الملائكة فى صورة بشر، فقدم لهم عجلاً سميناً مشوياً يقول سبحانه:

﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى، قالوا: سلامًا، قال سلام، فما لبث أن جاء بعجل حنيذ﴾ (هود آية: ٦٩) (أى بعجل سمين مشوى)

لقد ظن ابراهيم عليه السلام أن هؤلاء بشر، فلما قدم لهم العجل الشهى لم يمدوا أيديهم إليه، فلما رأى ذلك منهم أحس بشىء من الخوف وذلك - من عادة الناس إذ ذاك - أن العدو لا يأكل من طعام عدوه، وأن من هم بفتك إنسان لا يأكل طعامه.

فلما رأى الملائكة ما بدا على وجهه طمأنوه، وعرفوه أنهم لا يريدون به شرًّا.

ولا ريب فى أن من أسلم وجهه لله لا يتأتى منه إلا أن يكون كريمًا، ولقد روى الله سبحانه عن قوم أخلصوا وجوههم لله فكانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

وما من شك أن صفة الكرم من الصفات التى تقرب إلى الله، ولكنها وحدها لم تكن السبب الذى جعل ابراهيم خليلاً، وسنذكر بعض الصفات الأخرى إن شاء الله.

لقد تحدث الله سبحانه عن ابراهيم عليه السلام فى القرآن الكريم فى حوالى خمسة وثلاثين موضعًا ومن أجمعها فيما يتعلق بشخصيته وبخلقه، وفيما يتعلق بالثناء عليه، قوله تعالى:

﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه، ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين، إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين﴾ (البقرة آية: ١٣٠، ١٣١).

ومفتاح الأمر فى خلق ابراهيم عليه السلام، وفى الثناء عليه أيضا، هو اسلامه، وهو لم يكتف بأن أسلم فى نفسه وإنما قد وصى بهذه العقيدة بنيه، يقول تعالى:

﴿ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب، يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ (البقرة آية: ١٣٢)

والإسلام الذى دان به ابراهيم عليه السلام، ووصى به بنيه إنما هو إسلام الوجه لله سبحانه: أى التسليم لله فى جميع الأمور ما صغر منها وما كبر.

ن لله سبحانه وتعالى نظامًا معينًا فى الأوضاع الأخلاقية، والأوضاع الاجتماعية، فى العالم الإنسانى.

وتبتدئ هذه الأوضاع بإسلام الوجه لله سبحانه وهذا هو أساسها ولقد حدد ابن الأنبارى المتوفى سنة ٣٢٨ هـ معنى الإسلام من الناحية اللغوية البحتة، فقال:

المسلم معناه: المخلص لله فى عبادته، من قولهم سلم الشىء لفلان: خلص له، فالإسلام معناه إخلاص الدين والعقيدة لله تعالى:

ولقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى الإسلام فقال:

أن يسلم لله قلبك، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك.

والإسلام بهذا المعنى لا يختص ولا يشير إلى بيئة معينة، ولا إلى شخص معين، ولا إلى زمن معين..

إن هذه الكلمة: مجرد الكلمة: تضعنا مباشرة في جو عالمي مطلق، بل في جو عالمي يتخطى حدود هذا العالم الأرضي - إذا أمكن ذلك - فلا يتقيد به ولا يتحدد بحدوده..

إن إسلام الوجه لله هو دين الملائكة، وهو دين الأنبياء، وهو دين الله الذي لا دين غيره، وهل لله دين غير إسلام الوجه لله سبحانه؟

ومن أجل ذلك كانت كلمة: إسلام، وكلمة دين بمعنى واحد:

إن الدين في أي عصر، وفي أي زمن، معناه الخضوع لله، والاستسلام له، والعمل على مرضاته، وهذا نفسه هو معنى الإسلام، والدين والإسلام إذن بمعنى واحد.

هذا المنهج - من إسلام الوجه لله والخضوع له، إنما كان المنهج الإبراهيمي وهو المنهج الذي رسمه الله سبحانه دينا للإنسانية أجمع، ومن هنا كان قول الله تعالى:

﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه﴾.

وملة ابراهيم هى منهجه فى الحياة، ومنهجه فى الحياة هو الإلقاء بقياده كلية إلى الله سبحانه.

الإلقاء بقياده إلى الله فى القول، والإلقاء بقياده إلى الله فى القلب والإلقاء بقياده إلى الله فى العمل.

وإذا ما ألقى الإنسان بقياده إلى الله سبحانه فى حياته كلها كان مسلمًا وحفظه الله كما حفظ إبراهيم عليه السلام.

ويصف الله سبحانه وتعالى سيدنا ابراهيم عليه السلام فيقول:
﴿وإبراهيم الذى وفّى﴾ (النجم آية: ٣٧)

وكلمة (وفّى) من الكلمات التى تتضمن معان لا تكاد تحد، يقول الإمام ابن كثير: «وفى جميع ما أمر به، وقام بجميع خصال الإيمان وشعبه، وكان لا يشغله مراعاة الأمر الجليل عن القيام بمصلحة الأمر القليل، ولا ينسيه القيام بأعباء المصالح الكبار عن الصغار.

وشرح الإمام ابن كثير لهذه الكلمة هو أيضًا شرح عام يتضمن ما لا يكاد يعد من الجزئيات، ولا ريب أن ابراهيم كان دائمًا عند مرضاة الله لا يوجد إلا حيث يحب الله تعالى، ولا يتكلم إلا بما يحب الله سبحانه..

ولقد اختبره الله سبحانه، فصبر على الاختبار، ونجح فيه، وابتلاه الله سبحانه، فتحمل الابتلاء، وأرضى الله فى شأنه، وكان كلما نجح فى اختبار كافأه الله سبحانه بالحياة.

لقد حطم الأصنام استجابة لأمر الله، وأرادوا حرقه بالنار، فكانت النار عليه برداً وسلامًا، ونجاه الله من بلاء ذبح ابنه، وفداه بذبح عظيم.

ولقد حاول حبر الأمة الصحابى الجليل ابن عباس رضى الله عنه وعن أبيه أن يحدد الجوانب التى تتضمنها كلمة «وفى» ورأى أن إبراهيم عليه السلام وفّى بجميع شعب الإيمان التى يسميها ابن العباس سهام الإسلام، ولقد حددها حبر الأمة بثلاثين جانبًا أوشعبة أوسهمًا تتضمن عشرًا منها آية:

﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾. (التوبة آية: ١١١).

ففى هذه الآية الكريمة يذكر الله سبحانه الإيمان باعتباره الأساس ثم يصف المؤمنين بأنهم:

﴿التائبون، العابدون، الحامدون، السائحون، الراكعون، الساجدون، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، والحافظون لحدود الله﴾ (التوبة آية: ١١٢).

وقد يسأل إنسان عن السائحين فى هذه الصفات الكريمة.

والسائحون فى العرف الدينى هم الذين يهاجرون فى سبيل الله سواء أكان ذلك للعبادة، أم كان للجهاد.

ويستمر ابن عباس رضى الله عنه فى تعداد السهام التى وفّى بها ابراهيم عليه السلام، ويرى أن عشرة أخرى منها ذكرتها سورة الأحزاب فى الآية الكريمة التى تبتدئ بقوله تعالى:

﴿إنّ المسلمين والمسلمات﴾[1].

ومن السهام فى الآية: الصدق، والصبر، والخشوع، والذكر.

ولقد تضمنت سورة: «المؤمنون» من أولها ستة سهام، منها، أداء الزكاة، ومنها مراعاة الأمانة[2].

أما السهام الأربعة الباقية فإنها فى سورة «المعارج» تبتدئ بقوله تعالى: ﴿والذين يصدقون بيوم الدين﴾[3].

---

(١) الأحزاب آية: ٣٥ وهى: ﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات، والقانتين والقانتات، والصادقين والصادقات، والصابرين والصابرات، والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات، والصائمين والصائمات، والحافظين فروجهم والحافظات، والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما﴾.

(٢) قال تعالى: ﴿قد أفلح المؤمنون، الذين هم فى صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون، والذين هم للزكاة فاعلون، والذين هم لفروجهم حافظون، إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين، فمن ابتغى وراء ذلك، فأولئك هم العادون. والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون، والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾.

(٣) المعارج آية: ٢٦، والآيات هى: ﴿إلا المصلين، الذين هم على صلاتهم دائمون، والذين فى أموالهم حق معلوم، للسائل والمحروم. والذين يصدقون بيوم الدين، والذين هم من عذاب ربهم مشفقون. إن عذاب ربهم غير مأمون، والذين هم لفروجهم حافظون، إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون، والذين هم بشهاداتهم قائمون، والذين هم على صلاتهم يحافظون﴾.

والرأى الذى نراه هو ما قال به الحسن رضى الله عنه وهو أنه ما أمره الله تعالى بشىء إلا وفّى به.

* * *

من الصفات البارزة عند سيدنا إبراهيم كثرة التجائه إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء. والدعاء صورة محببة إلى الله سبحانه إلى درجة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«من لم يدع الله يغضب عليه».

وهذا الحديث يسير فى انسجام مع ما رواه الإمام أحمد عن النعمان بن بشير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«إن الدعاء هو العبادة» ثم قرأ:

﴿وقال ربكم ادعونى أستجب لكم، إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين﴾. (غافر: ٦٠).

ولقد وصف الله سبحانه وتعالى نفسه بأنه قريب، وبأنه مجيب، وبأنه رءوف رحيم، وبأنه ودود، وقال:

﴿وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ (البقرة: ١٨٦).

ومنزلة الدعاء بهذه المثابة لأنه تضرع إلى الله، والتجاء إليه وحده،

وتحقيق لقوله تعالى:

﴿وإياك نستعين﴾

وذلك إنما هو تحقيق لإسلام الوجه لله هو أخص خصائص التدين السليم.

ولقد كان سيدنا ابراهيم يدعو الله ويلجأ إليه فى كل أموره حتى أنه فى الحالات التى كان يغلبه فيها الحياء من الله فيصمت لسانه، كان حاله فيها ناطقًا بالدعاء.. لقد دعا الله من أجل انجاب الأولاد فقال:
﴿رب هب لى من الصالحين﴾ (الصافات: ١٠٠).

ولما ذهب لرؤية ابنه ووجده غائبًا سأل زوجه عن طعامها فقالت: اللحم، فسألها عن شرابها، فقالت: الماء، فدعا الله قائلا:

اللهم بارك لهم فى اللحم والماء.

ولما بنى هو وابنه الكعبة أخذا فى الدعاء قائلين:

﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ (البقرة آية: ١٢٧).

ولقد كانت هذه الكلمة فى مفتتح دعائهما، وكانت بين كل فقرة من الدعاء وأخرى، وكانت فى مختتم الدعاء.

ولقد كان من دعائهما وهما يبنيان:

﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك، وأرنا

مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾ (البقرة: ١٢٨).

أما الدعاء الذى يشكر عليه كل مسلم سيدنا إبراهيم فإنه الدعاء الجميل الذى دعا به سيدنا ابراهيم عند البيت وفى وسط الجزيرة العربية:

﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾ (١٢٩).

وكان الله سبحانه وتعالى يستجيب دائماً دعاءه، فإذا ما صمت سيدنا ابراهيم ولم تنطق شفتاه بالدعاء أدركته أيضاً رحمة الله فأذهبت عنه السوء.

وقد يتساءل إنسان عن السر فى أن الله سبحانه وتعالى كان دائماً يستجيب دعاء نبيه إبراهيم.

ولاستجابة الدعاء شروط إذا توافرت تمت الاستجابة: منها ما رواه ابن عباس رضى الله عنهما قال:

تليت الآية عند النبى صلى الله عليه وسلم:

﴿يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالاً طيباً﴾

فقام سعد بن أبى وقاص فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة، فقال:

ياسعد، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذى نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه مايتقبل منه أربعين يومًا، وأيما عبد نبت لحمه من السحت، والربا فالنار أولى به.

والشرط الأساسي في استجابة الدعاء أن يحقق الإنسان العبودية في نفسه بالنسبة لله وحده، تحقيقًا صادقًا، وتحقيق العبودية ليس كلمة تقال، وليس عملاً بدون نية ولا نية بدون عمل، وإنما تتكاتف الجوارح واللسان والقلب، فتتحقق.

﴿إياك نعبد، وإياك نستعين﴾.

هي أن يؤدي الإنسان الفروض، ويكثر من النوافل، ويخلص قلبه لله وجماع كل ذلك إنما هو ما يقوله الله تعالى في حديث قدسي:

«من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى من أداء ما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب لي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذ به لأعيذنه.

ولقد حقق سيدنا إبراهيم العبودية فكان لله في صدق، فكان الله له استجابة ورعاية، وعناية وتوفيقًا.

جاهد إبراهيم عليه السلام في سبيل الله ما شاء الله له أن يجاهد وأخذت السنون تمضي فإذا به يرى الشعيرات البيضاء تتناثر في رأسه وفي لحيته، ويسأل عن مغزاها فيقال له: إنها علامة الوقار، فيقول اللهم زدني وقارًا.

وانتهت به الحياة كما تنتهي بكل مخلوق، انتهت به راضيًا عن ربه، مرضيًّا عنه من ربه، انتهت به الحياة، وقد تجاوز المائة عام بكثير، أمضاها كلها في عمل دائب في سبيل الله، وتولى دفنه ابناه اسماعيل واسحاق صلوات الله عليهم أجمعين.

يقول الإمام ابن كثير:

فقبره وقبر ولده اسحاق وقبر ولد ولده يعقوب في المربعة التي بناها سليمان بن داود عليه السلام، ببلد حبرون، وهو البلد المعروف بالخليل اليوم.

وهذا متلقى بالتواتر أمة بعد أمة، وجيلاً بعد جيل، من زمن بني إسرائيل وإلى زماننا هذا، إن قبره بالمربعة تحقيقًا. فأما تعيينه منها فليس فيه خبر صحيح معصوم فينبغي أن تراعى تلك المحلة وأن تحترم احترام مثلها، وأن تبجل وأن تجل أن يداس في أرجائها، خشية أن يكون قبر الخليل أو أحد أولاده الأنبياء عليهم السلام تحتها.

ويروى أنه وجد عند قبره هذه الأبيات السهلة الجميلة العميقة المغزى:

إلهي جهولاً أمله   يموت من جا أجله
ومن دنا من حتفه   لم تغن عنه حيله
وكيف يبقى آخرًا   من مات عنه أوله
والمرء لا يصحبه   في القبر إلا عمله

وخير ما يمكن أن يتأتى تقديرًا لحياة سيدنا إبراهيم إنما هو قول الله تعالى:

﴿ولقد اصطفيناه فى الدنيا، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين﴾.

وإن للسادة الصوفية شرحًا جميلًا لكلمة «الصالحين» حينما ترد فى مثل هذه المقامات:

إنهم يقولون: الصالحون للحضرة الإلهية، فيكون معنى الآية الكريمة: وانه فى الآخرة لمن الصالحين، لحضرتنا.

ولقد أتت عدة أوصاف لإبراهيم عليه السلام فى القرآن الكريم نذكر منها: أنه كان مسلمًا: أى أسلم وجهه لله وأخلص له العبادة.

وأنه كان أمة: والأمة والجماعة من كان على الحق ولو كان وحده فهو قدوة يقتدى بها فى الحق، وهو إمام.

وأنه كان قانتًا: والقانت هو الخاضع الخاشع.

وأنه كان حنيفًا: والحنيف هو الذى لا ينحرف ولا يميل ميل نزعات، أو ميل شرك.

وأنه كان حليمًا.

وأنه كان أوّاهًا: والأواه كثير التأوه، وذلك يعنى رقة القلب.

وأنه كان منيبًا: والمنيب هو الراجع إلى الله فى كل أموره.

كان شاكرًا لأنعم الله، أى قائمًا بشكر الله على نعمه التى لا تحصى، وأنه فى النهاية كان خليل الله. يقول سبحانه: واتخذ الله إبراهيم خليلاً.

ولقد امتد أثر سيدنا ابراهيم حتى وصل فى الجزيرة العربية إلى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام. لقد كان فى الجزيرة العربية أريج طيب لا يزال باقيًا ينبعث شذاه أثناء العصر الجاهلى، إنه أثر الدين، الدين الذى بشر به إبراهيم عليه السلام.

وكان فيها عبير زكى من الخلق الكريم ممثلا فى هذا، أو فى ذاك، ممن يمكن أن نسميهم «الإبراهيميون».

والإبراهيميون هم هؤلاء الذين يسمون «الحنفاء» وهى تسمية تطلق على كل من كان يبحث عن دين ابراهيم ويتبعه، وكانوا متناثرين فى الجزيرة العربية هنا وهناك تجمعهم غاية واحدة هى البحث عن دين ابراهيم، وكان من أنبه هؤلاء زيد بن عمرو بن نفيل، وكان الخطاب - والد سيدنا عمر - أخاه لأمه.

وتبدأ قصة زيد مع دين إبراهيم على الكيفية التالية:

اجتمع زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل، وعثمان ابن الحويرث، وعبدالله بن جحش فى عيد لقريش عند وثن لهم كانوا يذبحون عنده الذبائح، فلما اجتمع القرشيون وبدأوا ينحرون الذبائح ويشربون ويلهون، انفرد زيد وصحبه وقال بعضهم لبعض:

تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض.

فلما أعطوا المواثيق والعهود على الصدق والإخلاص والكتمان قال قائلهم: تعلمن والله ما قولكم على شيء، لقد أخطأوا دين ابراهيم وخالفوه .. ما وثن يعبد لا يضر ولا ينفع؟ فابتغوا لأنفسكم.

والتزموا فيما بينهم أن يبحث كل ما استطاع عن دين ابراهيم، وأن يخبر كل واحد منهم الآخرين بما أدى إليه بحثه.

يقول كتاب السير عن هؤلاء مقارنين بينهم:

ولم يكن فيهم أعدل أمرًا، وأعدل ثباتًا، من زيد بن عمرو بن نفيل.

وبدأ هؤلاء الأربعة باعتزال الأوثان وفارقوا الأديان من اليهود والنصارى والملل كلها بحثًا عن دين ابراهيم، أو - بتعبير آخر - بحثًا عن الحقيقة: والحنيفية هي دين ابراهيم. اعتزل زيد دين قومه وكان لابد له بسبب ذلك من أن ينطوي على نفسه نوعًا ما ، فلما اعتزلهم وما يعبدون شق عليهم ذلك واعتبروه إهانة لهم أن يعتزل آلهتهم وكان أشدهم عداوة له وايذاء هو أخوه لأمه: الخطاب.

لقد آذاه الخطاب كثيرًا حتى لقد أخرجه إلى أعلى مكة، ووكل به شبابًا من قريش، وسفهاء من سفهائهم وأمرهم أن يمنعوه من دخول مكة مخافة أن يفسد عليهم دينهم، أو يتابعه أحد على ما هو عليه.

وحال الشبان بينه وبين مكة فكان لا يدخلها إلا سرًّا فإذا علموا به

أخرجوه ونالوا منه الإيذاء.. ولكن الإيذاء لم يفت من عضده ويوهن عزيمته.. كلا.

آذت قريش زيد بن عمرو، وكان الخطاب أشدهم فى ذلك ، وصمد زيد، وقد كان يرجو أن يجد فى زوجته المعين، وقد عز المعين، والنصير، حيث عز النصير ولكنها كانت مثل امرأة نوح، عونًا لأعدائه ونصيرًا لهم.

لقد كانت عينًا للخطاب عليه، ولكن ذلك كله لم يصرفه عن البحث عن الحق . وها هو ذا يغادر مكة طلبًا للحق: فقد خرج إلى الشام يلتمس ويطلب فى أهل الكتاب الأول دين ابراهيم، وسأل عنه.

ولم يزل فى ذلك حتى أتى الموصل والجزيرة كلها، ثم أقبل حتى أتى الشام، فجال فيها حتى أتى راهبًا ببيعة من أرض البلقاء كان ينتهى إليه – كما تذكر كتب السير – علم النصرانية فيما يزعمون فسأله عن الحنيفية.. دين إبراهيم.

فقال له الراهب: إنك لتسأل عن دين ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم، لقد درس من علمه وذهب من كان يعرفه ولكنه قد أظل خروج نبى وهذا زمانه.

وفرح زيد حين علم أنه فى زمن يخرج فيه نبى يهدى إلى الحق، ولكنه مع ذلك لم ييأس من الوصول إلى دين إبراهيم فى انتظار النبى الجديد.

وكان كلما سمع براهب عالم أو حَبْر ضليع عم شطره يسأل عن دين

ابراهيم، وكانت إجابتهم تقريبًا واحدة، فقد قال له راهب آخر:

أراك تريد دين ابراهيم يا أخا مكة، إنك لتطلب دينًا ما يوجد اليوم أحد يدين به وهو دين أبيك ابراهيم: كان حنيفًا، لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا، كان يصلي ويسجد إلى هذا البيت الذي ببلادك، فالحق ببلدك فإن الله يبعث من قومك في بلدك من يأتي لدين ابراهيم: الحنيفية، وهو أكرم الخلق على الله.

ورغم ذلك ما وهن لزيد عزم، ولا فترت له همة.

وفي يوم من الأيام رأته أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها مسندًا ظهره إلى الكعبة يقول:

يا معشر قريش، والذي نفس زيد بيده، ما أصبح أحد منكم على دين ابراهيم غيري.

ماذا كانت عقيدته؟ ما الذي وصل إليه؟ ما هي ثمرة أبحاثه وسياحاته؟

لقد وصل حقًا إلى جوهر عقيدة ابراهيم عليه السلام.

وهذا الجوهر هو إسلام الوجه لله، لقد نظر زيد إلى الكون فوجده محكومًا بنواميس لا تتخلف، ووجد أن هذه النواميس رتبت بحكمة حكيمة، وبتدبير متقن لا حظ فيها للمصادفة، فعلم أنها استجابة للحكيم

الذى أحكمها وطاعة للخبير الذى فصلها، لقد أسلمت الأرض فكانت حسبما أراد الخالق سبحانه فما له لا يسلم هو؟

انظر اليه يقول:

وأسلمت وجهى لمن أسلمت   له الأرض تحمل صخرًا ثقالا
ودحاها فلما استوت شدها   سواء وأرسى عليها الجبالا

ولقد أسلمت السحاب حاملة المياه العذبة فماله لا يسلم هو؟

ويعبر عن ذلك قائلاً:

وأسلمت وجهى لمن أسلمت   له المزن تحمل عذبًا زلالا
إذا هى سيقت إلى بلدة   أطاعت فصبت عليها سجالاً

ولقد أسلمت الريح فما له لا يسلم هو؟ ويصوغ ذلك فى قوله:

وأسلمت وجهى لمن أسلمت   له الريح تصرف حالاً فحالاً

كل شىء فى الكون استجاب فما له لا يستجيب؟ والاستجابة هى الإسلام الذى هو جوهر العقيدة الإبراهيمية، وقد أسلم زيد فحقق بذلك جوهر العقيدة الإبراهيمية. بيد أن هذا الجوهر لا يغنى عن ذكر شىء من التفاصيل.

لقد أسلم زيد بن عمرو وجهه لله تعالى، ومن أول الواجبات نحو هذه العقيدة أن لا يشرك الإنسان بربه غيره فى العبادة.

ومن أجل ذلك أعلن زيد بن عمرو فى شعره أنه اعتزل عبادة الأصنام إنه يقول:

عزلت اللات والعزى جميعًا كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزى أدين ولا ابنتيها ولا صنمى بنى عمرو أزور

يقول محمد بن اسحاق: وكان زيد بن عمرو قد ترك عبادة الأوثان وفارق دينهم، وألزمته عقيدة إسلام الوجه لله أن لا يأكل مما ذبح للأصنام، أو باسم الأصنام وكان لا يأكل إلا ما ذبح على اسم الله وحده.

قال موسى بن عقبة:

سمعت من أرضى يحدث عن زيد بن عمرو أنه كان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول:

الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء ماء، وأنبت لها من الأرض، لم تذبحونها على غير اسم الله؟ إنكارًا لذلك وإعظامًا له.

ويروى بعض من رأى زيدًا عند عودته من الشام أنه كان يراقب الشمس حتى إذا زالت: استقبل الكعبة فصلى ركعة - سجدتين - ثم يقول:

هذه قبلة ابراهيم واسماعيل، لا أعبد حجرًا، ولا أصلى له، ولا آكل ما ذبح له، ولا أستقسم بالأزلام، وانما أصلى لهذا البيت حتى أموت.

وكان زيد يحج فيقف بعرفة ويلبي قائلاً:

لبيك لا شريك لك، ولاند لك.

ثم يندفع من عرفة ماشيًا وهو يقول:

لبيك متعبدًا مرموقًا.

وحجة هذا، وكلماته تلك فى حجه، من أجمل المظاهر لإسلام وجهه لله من كلماته فى هذا المجال أيضًا: لبيك حقًا حقًا، تعبدًا ورقًا.

وكان يقول فى ذلك أيضًا:

أمنت بما آمن به ابراهيم، وهو يقول: أنفى لك عان راغم، مهما تجشمنى فإنى جاشم، ثم يخر فيسجد.

ولقد شغل زيد نفسه أيضًا بالجانب الأخلاقى فى مكة: لقد كان يأتى للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته – وكانت العرب تفعل ذلك – فيقول له: لا تقتلها، ادفعها إلى أكفلها فإذا ترعرعت فخذها إن شئت.

وروى الإمام البخارى أن زيدًا كان يحيى الموءودة: يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته لا تقتلها، أنا أكفيك مؤنتها، فيأخذها، فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك وإن شئت كفيتك مؤنتها.

كانت جلسة زيد بن عمرو بن نفيل المفضلة هى أن يجلس مسندًا ظهره إلى الكعبة متحدثًا إلى المقبل والمدبر بالطيّب من القول وبالكريم

من الأخلاق. فإذا سأله سائل: لمَ العبادة؟ ولمَ التقوى؟ ولمَ العمل الصالح؟ فإنه يقول:

ولكن أعبد الرحمن ربى ليغفر ذنبى الرب الغفور
فتقوى الله ربكم احفظوها متى ما تحفظوها لا تبور
ترى الابرار دارهم جنان وللكفار حامية سعير
وخزى فى الحياة وأن يموتوا يلاقوا ما تضيق به الصدور

وأحيانًا يتخذ الموت واعظًا ويذكر من يمر به عن طريق غير مباشر بأن الموت مصيره كما هو مصير كل مخلوق وأن الحكمة كل الحكمة هى أن يتجنب الإنسان فعل الشر فيقول:

عجبت وفى الليالى معجبات وفى الأيام يعرفها البصير
بأن الله قد أفنى رجالاً كثيرًا كان شأنهم الفجور

ولكنه يعجل فيقول: إنه اذا عثر الإنسان فأتى الآثام فإن باب التوبة مفتوح:

وبينا المرء يعثر ثاب يومًا كما يتروح الغصن النضير

ويتحدث عن عاقبة الآثام فى هذه الحياة الدنيا. تقول السيدة أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها:

سمعت زيد بن عمرو بن نفيل وهو مسند ظهره إلى الكعبة يقول:

يامعشر قريش، إياكم والزنى فإنه يورث الفقر.

وخلص زيد إلى التوحيد الحق، وإلى الإخلاص المخلص، وهو يعبر عن ذلك بقوله:

إلى الله أهدى مدحتى وثنائيا   وقولاً رضيا لا يني الدهر باقيا
إلى الملك الأعلى الذى ليس فوقه   إلـه ولا رب يكون مـدانيًا

ولقد أثارت حالته هذه اهتمام بعض علماء الكلام من قديم الزمان، وهم من أجل ذلك يذكرونه، عند تعريفهم للنبى صلى الله عليه وسلم. ويتساءلون: أهو خارج عن التعريف أم داخل فيه:

يقول الجلال الدوانى فى تعريف النبى صلى الله عليه وسلم:

هو إنسان بعثه الله تعالى إلى الخلق لتبليغ ما أوحاه إليه.

وعلى هذا لا يشمل من أوحى إليه ما يحتاج إليه لكماله فى نفسه من غير أن يكون مبعوثًا إلى غيره كما قيل فى زيد بن عمرو بن نفيل، اللهم إلا أن يتكلف.

ولقد كان سعيد بن المسيب يذكر زيدًا فيقول:

توفى وقريش تبنى الكعبة قبل أن ينزل الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس سنين. ولقد نزل به وإنه ليقول: أنا على دين ابراهيم، فأسلم ابنه سعيد بن زيد واتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتى عمر

ابن الخطاب وسعيد بن زيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألاه عن زيد بن عمرو بن نفيل، فقال: غفر الله له ورحمه فإنه مات على دين إبراهيم.

قال فكان المسلمون بعد ذلك اليوم لا يذكره ذاكر منهم إلا ترحم عليه واستغفر له، ثم يقول سعيد بن المسيب: رحمه الله وغفر له.

لوط

عليه السلام

قلنا فيما سبق إن لوطًا عليه السلام غادر الشام إلى سدوم منفصلا عن إبراهيم عليه السلام ليكون مركزًا ثانيًا للدعوة وكان ذلك بإذن إبراهيم وبأمره.

أما السبب فى تصرف ابراهيم عليه السلام هذا التصرف فهو أن أهل سدوم اشتهر عنهم فى المدن والأقاليم المجاورة، أن القاعدة عندهم إنما هى الفساد، وأن من الشذوذ أن تجد للخير فيهم أثرًا.

لقد كانوا يقطعون الطريق ولا يدعون أحدًا يمر فيه إلا إذا أخذوا منه العشر، هذا إذا لم ينهبوا ماله كله.

ولم يكن للأمانة عندهم من وزن وكانت الخيانة هى القاعدة حتى لقد كانوا يخونون الرفيق والصديق. وقد كانوا يأتون فى ناديهم المنكر، ناديهم هو مكان اجتماعهم وحديثهم – وكان ما يدور فيه إنما هو الغيبة والنميمة.

وهو البذيء من الأقوال والسيئ من الأفعال.

هذا كله فضلاً عن تلك الجريمة الخلقية المنافية للطبيعة الإنسانية التى درجوا على ممارستها حتى نسبت لقومهم.. والتى أصبحت فى هذا المجتمع القاعدة العامة، والطريقة الشاملة.

وكان من الواضح البديهى أن اللعنة حلت على هذا المجتمع، وأنه إذا لم يغير ما هو عليه من رذيلة فإن التدمير سيلحقه حتمًا.

﴿إن الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم﴾ (الرعد آية: ١١)

وهذه الآية الكريمة كما تعنى الجماعات فإنها أيضًا تعنى الأفراد . أى أن الله لا يغير ما بشخص حتى يغير ما بنفسه.

ولما شاع أمر هذه المدن السبع التى كانت تسمى سدوم، واشتهر أمرها، أحب إبراهيم عليه السلام أن يهديهم إلى الله، ولأن يهدى الله بك رجلاً خير لك من الدنيا وما فيها.

أحب ابراهيم ذلك وصادف ذلك هوى فى نفس لوط عليه السلام، وكان أن سافر لوط إليهم هاديًا وناصحًا ومرشدًا.

وذهب لوط إليهم فى قوة الشباب، وتحمس المؤمنين الصادقين، وإخلاص النية فى سبيل الله، وأخذ ينصح ويرشد ويذكر بأيام الله ومعاقبة المفسدين، ولكنه فوجئ بقلوب فى جمود الصخر وقسوته، وبنفوس أشربت حب الرذيلة ، إلى درجة أنهم حينما كان لوط يذكرهم بالله كانوا

يتداعون إلى إخراجه يقولون:

﴿أخرجوا آل لوط من قريتكم﴾..

ثم يذكرون العلة فى ذلك فيقولون:

﴿إنهم أناس يتطهرون﴾.

فكان الطهر والصفاء والنقاء فى نظرهم من الأسباب التى تدعو إلى الطرد من مدنهم.. ورغم ذلك فقد استمر لوط يذكر بالله وباليوم الآخر، وكان موقفه فى ذلك مثل الموقف الذى قصه الله سبحانه وتعالى حينما يقول:

﴿لم تعظون قومًا الله مهلكهم أومعذبهم عذابًا شديدًا؟﴾

﴿قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون﴾. (الاعراف: ١٦٤).

وكان لا مناص من تدمير سدوم وتطهير الأرض من فساد عم سدوم كلها.

يقول تعالى:

﴿وإن لوطًا لمن المرسلين. إذا نجيناه وأهله أجمعين. إلا عجوزًا فى الغابرين، ثم دمرنا الآخرين، وإنكم لتمرون عليهم مصبحين. وبالليل أفلا تعقلون؟﴾. (الصافات: ١٣٣-١٣٨).

إسماعيل

عليه السلام

ونكمل هنا الحديث عن اسماعيل عليه السلام

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:..

اتخذوا الخيل (أى اقتنوها أو ربّوها) واعتقوها (أى توارثوها منتجين لها غير مهملين لسلالتها) فإنها ميراث أبيكم إسماعيل.

ويقول أصحاب السير والأخبار: إن إسماعيل عليه السلام أول من استأنس الخيل. لقد كانت من قبله وحشية تنفر من الناس وتفر منهم، فآنسها اسماعيل ورباها، وعلمها وركبها. وهذا يضعنا مباشرة أمام اسماعيل الفارس، وكان اسماعيل بطبيعته وفطرته فارسًا وجاءت ظروف الحياة فألجأته أيضًا لأن يكون فارسًا. وذلك أنه كان يحب الصيد. ومن أجل هذه الهواية التى كانت فى الوقت نفسه ضرورة للعيش وللحياة فى هذا المكان الذي لا زرع فيه ولا ضرع، والذى يضطر الإنسان فيه إلى

اقتناص رزقه اقتناصًا، من أجل هذه الهواية كان إسماعيل عليه السلام يبرى النبل، ومن أجلها ذلل الخيل.

والفروسية نوع من الشهامة، ومن الشهامة أن يصبر الإنسان على ما يصادفه من مصاعب. ولقد كان من صفات سيدنا إسماعيل الصبر، إنه تهيأ بالصبر لأن يضحي بنفسه فى سبيل مرضاة الله، ومن الشهامة أن يكون الإنسان حليمًا. ولقد وصف الله سيدنا اسماعيل بالحلم من قبل أن يولد.

ويبدو أن سيدنا اسماعيل كان أنيقًا حتى فى أسلوبه ولغته. فلقد كانت اللغة العربية من قبله يتحدث بها كلغة تفاهم، فطوعها سيدنا إسماعيل للشاعرية وللخيال، وللكناية والمجاز، ولذلك يقولون: إنه أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة، ويقولون: إنه أول من تكلم بالعربية البينة.

ولعل مما يرجع إلى شهامته وإلى أناقته هذه الصفة الكريمة التى تحلى بها طيلة حياته.. والتى هى من أخص خصائص الرجولة الحقة، ألا وهى صدق الوعد.. يقول تعالى:

﴿واذكر فى الكتاب اسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبيًّا﴾. (مريم: ٥٤).

ثم يذكر الله تعالى عملين من أعماله لها مغزاها العميق فيقول:

﴿وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة﴾. (مريم: ٥٥).

لقد كان يتحلى بالصلاة ويأمر بها أهله، ويتحلى بالزكاة ويأمر بها أهله..

أى أنه كان حريصًا على حسن صلته بالمجتمع ومظهر ذلك الزكاة، والزكاة هنا معناها البذل والتضحية فى سبيل الله فى أعم صورة وأوسع نطاق: لقد كان حسن الصلة بالله، حسن الصلة بالمجتمع، ومن أجل ذلك يعقب الله سبحانه وتعالى على صفاته وأعماله بقوله سبحانه:

﴿وكان عند ربه مرضيًّا﴾. (مريم: ٥٥).

وبعد : فلقد روى عن سيدنا عمر بن عبد العزيز أنه قال:

شكا اسماعيل عليه السلام لربه عز وجل حر مكة فأوحى الله إليه أن سأفتح لك بابًا من الجنة إلى الموضع الذى تدفن فيه، ويجرى عليك روحها إلى يوم القيامة.

شعيب

عليه السلام

روى ابن إسحاق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا ذكر شعيب عليه السلام قال:

«ذاك خطيب الأنبياء».

وذلك من أجل ما اشتهر به شعيب عليه السلام، من الفصاحة والبلاغة وإدارة الكلام الحق المقنع، متناسقًا مع الظروف والمناسبات.

ويقول الله تعالى:

﴿وإلى مدين أخاهم شعيبًا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره﴾. (هود آية مدين: ٨٤).

ومدين مدينة وإقليم فى أطراف الشام مما يلى ناحية الحجاز، ومدين أيضًا قبيلة كانت تقطن هذه البقعة من الأرض التى سميت باسم القبيلة.

ولقد أرسل الله لهم شعيبًا عليه السلام ليعالج أمراضًا اجتماعية وخلقية ودينية انتشرت فيهم.

والله سبحانه وتعالى يرسل الرسل ليبينوا للناس أمرين:

الأول منهما: رسم طريق الهداية فى أصوله وقواعده، طريق الهداية فى العقيدة، وطريق الهداية فى الإخلاق، وطريق الهداية فى التشريع، أى رسم الطريق الذى يسود به الأمن فى المجتمع، وتكون به السعادة، وهو طريق لا يرسمونه من عند أنفسهم، ولا يخترعونه من بنات أفكارهم وإنما يتلقونه عن الله فيبلغونه للناس، ويعملون جهدهم على نشره وتحقيقه.

والأمر الثانى الذى من أجله أرسل الرسل: هو بيان الآثام التى أمر الله سبحانه وتعالى باجتنابها، وهى آثام تضر بالفرد فى نفسه، وتضر بالمجتمع.

وإذا كانت بعض هذه الآثام منتشرة فى البيئة التى يرسل فيها الرسول فإنه يعنى بها عناية خاصة.

ولقد انحرف أصحاب مدين فى جميع المجالات الروحية، أى فى العقيدة، وفى الأخلاق، وفى التشريع فكان من العدل الإلهى أن لا يعذبهم حتى يرسل لهم رسولاً، يقول سبحانه:

﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ (الاسراء آية: ١٥).

ولقد سمى الله قوم شعيب أصحاب الأيكة فقال:

﴿كذب أصحاب الأيكة المرسلين﴾ (الشعراء آية: ١٧٦).

والأيكة شجرة من الأيك، كانوا يعبدونها من دون الله، وهذا هو الانحراف والفساد فى العقيدة، وهذا الانحراف هو أول شيء ينبه عليه الرسل ويعملون على إزالته.

ولقد حاول سيدنا شعيب عليه السلام اقتلاع هذه العقيدة من أنفسهم بشتى الوسائل، فهو ينبههم أولا إلى أنه رسول أمين، وكان ذلك من البدهيات عندهم، فهم لم يعلموا عنه خيانة.

وينبههم ثانيًا إلى أنه لا يسألهم عن دعوته أجرًا، فهو يحتسب أجره عند الله وهذه صفة المخلصين.

إنهم لا يطلبون دنيا، ولا يكنزون مالاً ولا يطلبون ثراء بسبب دعوتهم أو رسالتهم التى ينشرونها، وإنه لمن الواضح أن الفرق بين الداعية المخلص، والداعية المزيف، هو أن الداعية المخلص لا ينظر إلى دنيا يجمعها أو إلى ملاذ ينغمس فيها.

أما الداعية المزيف، فهمُّه كل همِّه اكتناز المال والاستمتاع بالثراء.

ولكن قومه – فى الأغلب الأعم منهم – لم يستجيبوا لدعوته، وأخذوا فى معارضته، ووصل بهم الأمر أن كانوا يجلسون فى كل مكان آهل بالمارة، يهددون من تحدثه نفسه باتباع شعيب ويصدون عن سبيل الله من آمن به، وذلك من أجل أن يستمر الجميع على طريق واحد هو طريقهم المعوج، المنحرف. ولقد كان مما قاله لهم:

﴿ولا تقعدوا بكل صراط توعدون، وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجًا﴾ (الأعراف آية: ٨٦).

ثم أخذ يذكرهم بنعم الله عليهم.

﴿واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم﴾ (الأعراف آية: ٨٦).

وأخذ يذكرهم بعاقبة من لم يؤمن قائلاً:

﴿وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾. (الأعراف آية: ٨٦).

وأخذ مع كل ذلك يحاول اقتلاع جذور الفساد في المجتمع.

لقد كان مجتمع مدين في غاية الفساد، وكان لابد من أن يغير قوم مدين ما بأنفسهم من السوء إلى صفات الخير خشية أن يدمرهم الله تدميرًا.

ومن أجل أن لا يهلكهم الله بعذاب من عنده، ومن أجل أن لا يأخذهم أخذ عزيز مقتدر منتقم، حاول سيدنا شعيب إصلاحهم، وكانت الخطوة الأولى في الإصلاح وهذه الخطوة الأولى في كل إصلاح روحي ديني أخلاقي إنما هي الاستغفار والتوبة.

وقال لهم سيدنا شعيب عليه السلام:

﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه﴾.

ثم ذكر لهم صفتين من صفات الله أرق ما يكون، وأرأف ما يكون:

﴿إن ربي رحيم ودود﴾ (هود آية: ٩٠).

وهو لرحمته ووده سيتجاوز عما سلف إذا رجعوا إليه بالاستغفار والتوبة الخالصة النصوح.. أما موضوع التوبة فهو هذه الجرائم الكثيرة التى كانوا يأتونها فى مجتمعهم ومنها الإفساد فى الأرض، ولقد قال لهم شعيب:

﴿ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها﴾ (الاعراف آية: ٨٥).

وقال لهم: ﴿ولاتعثوا فى الأرض مفسدين﴾ (الشعراء آية: ١٨٣).

والإفساد فى الأرض جريمة من أكبر الجرائم فى النظرة الدينية، وهى جريمة تؤسس عادة على الإلحاد، أو على الانحراف فى الدين.. وكلما ظهر فى المجتمع ضعف الإيمان، أكثر أهله الإفساد فى الأرض، وقد بين الله سبحانه جزاء المفسدين فى الأرض فقال:

﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادًا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض﴾ (المائدة آية: ٣٣).

أما الاسم الذى اشتهر به أهل مدين والذى كرر شعيب عليه السلام الحديث عنه معهم أمرًا وناهيًا فهو اسم يتصل بالتجارة.

لقد كانت التجارة عندهم فى غاية السوء، فقد كانوا يطففون الكيل والميزان فيزيدون إذا أخذوا، وينقصون إذا أعطوا، فأخذ سيدنا شعيب يقول لهم:

﴿أوفوا المكيال والميزان بالقسط﴾ (هود آية: ٨٥).

ويقول: ﴿أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين، وزنوا بالقسطاس المستقيم﴾ (الشعراء آية: ١٨١-١٨٢).

وبين لهم أن بقية الله - أى رزقه الحلال - خير لهم من أخذ أموال الناس بالباطل، ولكن ظاهرة تطفيف الكيل والميزان كانت متمكنة من نفوسهم.. حيث لم تكن الاستجابة إلا فى الأفراد القلائل الذين آمنوا بشعيب عليه السلام، وظاهرة التطفيف، والآثام التى حذر القرآن الكريم منها وبين جزاءها فقال فى أسلوب فيه إنذار وتهديد:

﴿ويل للمطففين﴾.

والويل واد فى جهنم ذو عذاب أليم.

ثم بين سبحانه وتعالى المطففين بقوله:

﴿الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾.

ثم أخذ الله سبحانه يعجب من أمرهم فيقول:

﴿ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾.

واستمر شعيب عليه السلام يعالج الأمراض المتنوعة بأسلوبه المنطقى، وبسلوكه المستقيم، فاستجاب له من أراد الله له الهداية والرشد، وصد عنه الغالبية العظمى من قومه، واستمروا على ما هم عليه من فساد وجور

وظلم فكانت عاقبتهم هى عاقبة الشر والمعاصى والآثام وهى ما عبر الله سبحانه وتعالى عنه بقوله:

﴿ولما جاء أمرنا نجينا شعيبًا والذين آمنوا معه برحمة منا، وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين، كأن لم يغنوا فيها ألا بعدًا لمدين كما بعدت ثمود﴾ (هود آية: ٩٤-٩٥).

أيـــوب

عليه السلام

تتجاور فى رحاب الكون، منذ وجد الكون، ظواهر الخير والشر والحسن الأخلاقى، والقبح الأخلاقى، كما يتجاور النعيم والشقاء، والسعادة والبؤس.

وقد يرى الإنسان من خلال التاريخ مظهرًا بلغ الذروة فى الوفاء وفى الصبر فيسعد برؤية نموذج للفضيلة قد تحقق بالفعل.

ـ وقد يرى الإنسان من خلال التاريخ مظاهر للغدر والخيانة، وقعت هنا أو هناك، فيبتئس ويحزن.

وفى التاريخ، وهو يحدثنا عما يجرى فى رحاب الكون، عظة وعبرة وذكرى.

نقول هذا بمناسبة حديثنا عن قصـة أيوب صلوات الله وسلامه

عليه، والقرآن الكريم يحدثنا عن أيوب عليه السلام فى عدة من السور، فيقول فى سورة الأنبياء:

﴿وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين﴾ (الأنبياء آية: ٨٣).

وفى هذه الآية الكريمة لا يطلب أيوب شيئًا بصيغة الطلب الصريحة، وإنما يتجه إلى الله معلنًا حالته، ذاكرًا أنه مسه الضر، ثم يخاطب الله سبحانه بصفة من صفاته هى أنه سبحانه أرحم الراحمين، ولا شك أن صورة الالتجاء إلى الله على هذه الكيفية إنما هى صورة من صور الأدب العالى فى الدعاء.

وما من شك فى أن أيوب عليه السلام لم يتجه إلى الله بهذا النداء إلا وقد بلغ من الاضطرار إلى الحد الأعلى، والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء﴾ (النمل آية: ٦٢).

ومن أجل التجائه إلى الله واضطراره قال الله سبحانه وتعالى مبينًا نتيجة التجائه إليه:

﴿فاستجبنا له، فكشفنا ما به من ضر، وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين﴾ (الأنبياء آية: ٨٤).

ما هى قصة أيوب؟

لقد آتاه الله ثراءً عريضًا، ونعمة موفورة، وكان ثراؤه ألوانًا عدة، كان عنده من الثروة الزراعية متمثلة فى المزارع والحدائق والرياض الشيء الكثير. ويتحدث الإمام ابن كثير عن الأراضى المتسعة بأرض الثنية من أرض صوران التى كانت له ثم يذكر عن ابن عساكر أنها كلها كانت له.

وكانت له أموال من الأنعام والمواشى لا تكاد تعد.

ومنحه الله نعمة القوة والصحة والوسامة، ووهبه زوجة يتمثل فيها كل ما يتطلبه الرجل من الزوجة من خلق كريم، ومن رقة وجمال، ولم يبطر أيوب ولم يتكبر. إن النعمة لم تبطره، وإن الغنى لم يتحرف به، لم يكن من هذا النوع الذى قال الله فيه:

﴿إن الإنسان ليطغى، أن رآه استغنى﴾.

ولم يكن من هذا النوع الذى «يدع اليتيم، ولا يحض على طعام المسكين» ذلك النوع الذى يصفه الله بأنه يكذب بالدين. كلا، لقد كان صابرًا على النعمة والصبر على النعمة هو شكر لها.

ومن شكرها ومن الصبر عليها أن يؤدى الإنسان حق الله فيها، ولقد كان أيوب يؤدى حق الله فى النعمة: كان يطعم الجائع، ويكسو العارى، وينجد ذا الحاجة الملهوف.

وهذا الصبر على النعمة - وقد يبتلى بعض الناس بالنعم - والصبر فيما بعد على الشدة والمرض هما اللذان كانا السبب فى اتخاذ صبر أيوب مثلًا،

والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿إنا وجدناه صابرًا، نعم العبد إنه أواب﴾.

منح الله أيوب عليه السلام الثراء العريض، والنعمة الموفورة، والصحة والوسامة.

ثم أخذ المال يتناقص، وأخذت النعمة في الزوال، وضعفت الصحة شيئًا فشيئًا، ثم جاءت لحظة من اللحظات وقد زال تمامًا ذلك كله. جاءت وقد باع أيوب آخر ما عنده مما يمتلك، وأنفق أيوب آخر ما يقتنى، وأصبح من الفقر بحيث لا يجد ما يسد جوعه، ومن المرض بحيث لا يستطيع أن يعمل.

وأشفق عليه في المبدأ الأهل والاصدقاء، من ذوى الثراء والنعمة، ثم أخذ اشفاقهم يفتر، وأخذ عطفهم يتلاشى وأخذت صلتهم به تزول شيئًا فشيئًا بحسب ما تتضمنه نفوسهم من عوامل الوفاء قوة وضعفًا، ثم زال كله بمرور الزمن، وذلك أن مرضه طال وابتلى جسده - كما يقول الإمام ابن كثير - بأنواع من البلاء، وطال مرضه حتى عافه الجليس، وأوحش منه الأنيس، وانقطع عنه الناس.

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيما رواه عن ابن أبي حاتم: أن نبي الله أيوب ليث به بلاؤه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلين من اخوانه كانا من أخلص إخوانه له، كانا يغدوان إليه

ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه:

تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد من الصالحين.

قال صاحبه: وما ذاك؟

قال: منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه ربه فيكشف ما به.

فلما راحا إليه لم يصبر الرجل على ذكر ذلك له.

فقال أيوب: لا أدرى ما تقول، غير أن الله عز وجل يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله فأرجع إلى بيتى فأكفر عنهما، كراهية أن يذكر إلا فى حق.

ومعنى ذلك أن أيوب عليه السلام وصلت به شفقته على الناس، ووصل به تقديسه لله سبحانه وتعالى إلى درجة أنه كان حين يسمع رجلاً يقسم بالله على أمر من الأمور يذهب إلى بيته فيخرج كفارة اليمين إشفاقا على الرجل أن يكون قد حلف كذبا، وتقديسًا لله أن يقسم به على زور دون أن يكفر عن القسم.

- وقد كان أيوب عليه السلام يتحلى بصفات جامعة.

منها: أنه كان لا يبيت قط ليلة وهو شبعان مع علمه بمكان جائع.

ومنها ما أخبر به من أنه لم يكن قط له قمصان وهو يعلم بمكان عار.

ومنها الصفة التى ذكرها القرآن الكريم مثنيا عليه بها وهى أنه أواب.

والأواب هو الذى يرجع إلى الله سبحانه وتعالى فى جميع أوقاته.. يرجع إليه بالحمد على نعمه وآلائه ويرجع إليه بالتفكر فى جميل صنعه، والتدبر فى بديع آياته ويرجع إليه بالذكر حتى يكون لسانه دائمًا رطبًا بذكر الله.

- وقد كان أيوب عليه السلام فى عنفوان محنته وفى شدة ابتلائه ذاكرًا لله سبحانه وتعالى، عالمًا أن ما به إنما هو نعمة من الله يسديها له.

يقول الإمام ابن كثير مصورًا مرض أيوب:

لم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه، يذكر الله عز وجل، وهو فى ذلك كله صابر محتسب ذاكر لله عز وجل فى ليله ونهاره، وصباحه ومسائه.

يقول الله تعالى:

﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾.

ويقول رسولنا صلوات الله وسلامه عليه: أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل.

ويزيد رسولنا صلى الله عليه وسلم موضوع الابتلاء وضوحًا فيقول:

يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه.

وهذا الابتلاء إنما هو اختبار وامتحان من الله، وهو عادة يتمخض عند الصادقين عن رضا من الله سبحانه يغمر الصابر المحتسب، وعن رحمة من الله سبحانه تحيط بمن نجح فى الاختبار وتكون التجليات الإلهية والآلاء

الربانية، وتكون السعادة العظمى.

– ولقد نجح أيوب فى الاختبار فكشف الله ما به من ضر.

وينكشف ابتلاء أيوب عن قصة من أجمل قصص الوفاء عن قصة للوفاء لا تكاد تجد لها مثيلاً فى خلال التاريخ شرقيه وغربيه، إنها قصة وفاء زوجته.

لقد لازمته هذه الزوجة الكريمة ملازمة تامة، وكانت الوحيدة التى حنت عليه طيلة ابتلائه، فقد كانت تقدر حق الزوجية كل التقدير، وتقوم بواجبها خير قيام، إنها تذوقت معه السعادة فى أيام نعمته، وهاهى ذى تتوفر بكل جهدها عليه فى أيام ابتلائه، لقد أخذت تدبر أمر المعيشة له ولها بكل وسيلة شريفة حتى اضطرتها الظروف فى النهاية إلى أن تعمل عند ذوى النعمة فخدمت بعد أن كانت مخدومة، وترددت على الأثرياء بعد أن كان قصرها يزدحم بالمترددين عليها، وكان الناس يشفقون عليها فيستخدمونها حتى ولو لم يكونوا فى حاجة إلى خدمة، من أجل أن يعطوها القليل الذى يسد جوعها وجوع زوجها.

– ومع ذلك فإن القضاء لم ينته فى أمرها وأمر زوجها إلى هذا الحد فحسب، فقد ترددت اشاعة فى جميع الارجاء أن من يستخدم امرأة أيوب ربما ناله من بلائه، وحل عليه من شقائه، وترددت على الأبواب فلم تفتح الأبواب لها، وبحثت عن عمل فلم تجد، وطوت هى وزوجها اليوم، وباتا جائعين وفى جوارهما القصور والنعيم، وبالقرب منها ذوو الثراء من

الأقارب والأباعد، وفكرت هذه السيدة وأطالت التفكير، فكرت فى أمر الخروج من هذا المأزق المفاجئ، ومن هذه الشدة الجديدة، وكانت ذات شعر طويل جميل، فرأت وهى فى محنتها أن لا حاجة لها بهذا الشعر، وماذا تصنع به وحياتها وحياة زوجها على أبواب النهاية.

- يقول الإمام ابن كثير: فلما لم تجد من يستخدمها عمدت فباعت لبعض بنات الاشراف احدى ضفيرتيها، بطعام طيب كثير فأتت به أيوب فقال:

من أين لك هذا؟ وأنكره.

فقالت: خدمت به أناسا، فلما كان الغد لم تجد أحدا فباعت الضفيرة الأخرى بطعام فأتته به، فأنكر أيضا وحلف لا يأكله حتى تخبره من أين لها هذا الطعام، فكشفت عن رأسها خمارها، فلما رأى رأسها محلوقا قال فى دعائه:

﴿رب إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين﴾.

- ولعل أيوب عليه السلام لم يقلها من أجل نفسه، وإنما قالها من أجل زوجته من أجل وفائها.. من أجل اخلاصها، من أجل الجميل الذى أسدته.

واستجاب الله للنداء، وهو الذى يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، وعادت الحياة باسمة: فيها الثراء وفيها النعمة، وفيها ذكريات

للوفاء وللصبر وشعور غامر برضوان من الله ومحبة منه سبحانه.

يروى أنه حينما دعا بدعائه أوحى الله إليه: قد رددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم، فاغتسل بهذا الماء فإن فيه شفاءك، وقرب عن صحابتك قربانا، واستغفر لهم فإنهم قد عصوني فيك.

يــونس

عليه السلام

روى الإمام البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«لا ينبغى لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى».

ويونس بن متى هو صاحب الدعوة المشهورة، التى يقول عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«لم يدع مسلم ربه فى شىء قط بها إلا استجاب له».

وهذه الدعوة هى:

«لا إله إلا أنت، سبحانك إنى كنت من الظالمين».

وهى دعوة تبدأ بالتوحيد الخالص يتمثل فى قوله تعالى: لا إله إلا أنت. وتثنى بالتنزيه، تنزيه الله عن كل ما يتنافى مع الكمال، وذلك يتمثل فى قوله: «سبحانك».

ثم تنتهى بالاعتراف الخاشع الخاضع المتمثل فى قوله:

«إنى كنت من الظالمين».

وهذه الكلمات القليلة التى يتمثل فيها الإيجاز المعجز فى اللفظ، والتى يتمثل فيها السمو السامى فى المعنى لا تطلب شيئًا فى صراحة، ولا تنادى بشىء بأسلوب مباشر، ولكنها مفعمة بالطلب، مفعمة بالاستغاثة.

لقد دعا بها سيدنا يونس وهو فى بطن الحوت.

ويحسن أن نبدأ القصة من أولها:

ولقد أرسل الله سيدنا يونس عليه السلام إلى أهل «نينوى» من أرض الموصل، وكان سيدنا يونس ككل الأنبياء، متحمسًا لدعوته، قائمًا بها فى الصباح والمساء، وكلما استطاع إلى ذلك سبيلا، ومتخذًا لها كل الوسائل التى فى إمكانه لتنتشر وتعم.

ولكن قومه قابلوا تحمسه بفتور، وقابلوا دعوته إلى الإيمان بالكفر الأصم، وقابلوا عنايته بعناد لا يلين.

وإذا كان سيدنا نوح فى مثل هذا الموقف الذى لا بارقة من أمل فى إصلاحه دعا على قومه قائلاً:

﴿رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارًا. إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولايلدوا إلا فاجرًا كفارًا﴾ (نوح آية: ٢٦-٢٧).

فإن سيدنا يونس رأى أن لا فائدة فى المكث بينهم فأنذرهم بحلول

العذاب بهم بعد ثلاثة أيام، وخرج من بينهم معلنًا أنه يخرج من أجل النجاة من عذاب الله الذى يوشك أن يحل بهم لكفرهم وطغيانهم.

وغادر المدينة متعمدًا أن يكون ذلك على مرأى ومشهد من أهلها.

وما أن فارقهم نبى الله حتى بدأ الخوف بل الرعب يدب إلى قلوبهم، ويتغلغل فى نفوسهم. ولقد أخذتهم ذاكرتهم فى إلقاء الضوء على صدقه وأمانته، وعلى فضائله ومكارم أخلاقه، وعلى أنه لم يعهد عليه الكذب ولا الخديعة وترجح عندهم صدقه، ثم أيقنوا بهذا الصدق، وتأكدوا أن العذاب لا محالة نازل بهم وأخذ خيالهم يصور لهم العذاب وألوانه، وفجائعه، فاجتمعوا وتشاوروا فيما بينهم وانتهوا إلى اتفاق عام، هذا الاتفاق العام يصوره أسلافنا فى صورة أخاذة يرويها الإمام ابن كثير على الوضع التالى:

قال ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغير واحد من السلف والخلف: فلما خرج من بين ظهرانيهم، وتحققوا نزول العذاب بهم، قذف الله فى قلوبهم التوبة والإنابة، وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم، فلبسوا المسوح، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، ثم لجأوا إلى الله عز وجل، وصرخوا وتقربوا إليه، وتمسكنوا لديه، وبكى الرجال والنساء والبنون والبنات والأمهات، وخارت الأنعام والدواب والمواشى، ورغت الإبل وفصلانها، وخارت البقر وأولادها، وثغت الغنم وحملانها، وكانت ساعة عظيمة هائلة. وهذه هى الصورة التى رسمها أسلافنا. فماذا كان من أمره وماذا كان بعد من أمرهم؟

فارق يونس عليه السلام قومه بعد أن أنذرهم بعذاب مدمر فتضرعوا إلى الله سبحانه بالتوبة والإنابة والاستغفار، مقدمين بين يدى ذلك كله: الإيمان الصادق فكانت ثمرة ذلك نجاتهم التى صورها الله بقوله:

﴿إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾ (يونس آية: ٩٨).

وهذا الذى صنعه الله بهم يساير نواميس الله سبحانه التى سنها نظامًا عامًا للبشرية، وهى أن عذاب الله سبحانه ينزل على الأفراد أو على المجتمعات بنسبة بعدهم عن الإيمان، وأن رحمته تغمر الأفراد والمجتمعات بنسبة قربهم من الإيمان، والنجاة دائمًا مكفولة فى نواميس الله للمؤمنين الصادقين.

أما يونس عليه السلام فإنه لما ضاق بقومه ذرعًا فارقهم مغاضبًا منذرًا بالعذاب.

ولم تكن هذه المفارقة عن استئذان من الله سبحانه أو عن أمر منه، وإنما ظن هو أن هذا فى شريعة الله أوسع من أن يحتاج إلى إذن، وأنه غير مضيق عليه من قبل الله فى المكث أو فى المفارقة، أى أنه فى مجال المباح.

وعزب عن ذهنه فى ساعة مغاضبته لقومه أن المفارقة، بدون استئذان إذا جازت بالنسبة للأفراد العاديين، فإنها لا تجوز بالنسبة لمن يصطفيهم الله للعبودية الخالصة، ومن يجتبيهم مرسلين من قبله.

إن هؤلاء لا يتحركون إلا به، ولا يسكنون إلا عن أمره، وهم فى كل ما يأتون به وما يدعون قد ألقوا بمقاليد أمورهم بين يديه يصرفهم حسبما يشاء.

ولعل ذلك هو ما تعنيه الكلمة القرآنية الكريمة فى قوله تعالى:

﴿فاصبر لحكم ربك، ولا تكن كصاحب الحوت﴾ (سورة القلم: آية ٤٩).

وصاحب الحوت هو سيدنا يونس الذى لم يصبر على كفر قومه وعنادهم ففارقهم عن غير إذن من الله، فكان من تقدير الله سبحانه أن وصل يونس عليه السلام إلى شاطئ البحر وركب مركبًا مشحونًا ثقيل الحمولة، وهبت ريح جعلت المركب على حافة الغرق بمن فيها، فكان لابد من تخفيف حمولتها حتى يستقيم أمرها.

واستهم الركاب على من يلقون به فى البحر تخفيفا للحمولة، فوقعت القرعة على يونس عليه السلام. وألقوه فى البحر.

ولما ألقوه فى البحر، ابتلعه حوت كبير، وفجأة رأى سيدنا يونس نفسه فى بطن الحوت. فأسرع مستغيثاً:

﴿فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين﴾ (سورة الأنبياء: آية ٨٧).

روى يزيد الرقاشي قال:

سمعت أنس بن مالك - ولا أعلم إلا أن أنسًا يرفع الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - يقول:

إن يونس النبى عليه السلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو فى بطن الحوت قال:

«اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين».

فأقبلت هذه الدعوة تحت العرش، فقالت الملائكة: يارب صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة. فقال:

أما تعرفون ذاك؟ قالوا: لا يارب ومن هو؟ قال: عبدى يونس.

قالوا: عبدك يونس الذى لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مجابة؟

قالوا: يا ربنا، أو لا ترحم ما كان يصنعه فى الرخاء فتنجيه من البلاء؟

قال: بلى.

فأمر الحوت فطرحه فى العراء.

أمر الله الحوت أن يلقى بيونس فألقاه الحوت بالعراء وهو ضعيف البدن، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين - قرع - ليأكل منها - وهى غذاء مفيد - دون أن يسعى لنيل غذائه وهو بهذه الدرجة من الضعف، وعناية الله فوق كل عناية. يقول ابن كثير: قال بعض العلماء:

«في إنبات القرع عليه حكم جمة، منها أن ورقه في غاية النعومة، وكثير وظليل، ولا يقربه ذباب، ويؤكل ثمره من أول طلوعه إلى آخره، نيا ومطبوخا، وبقشره وببذره أيضا، وفيه نفع كثير، وتقوية للدماغ وغير ذلك». اهـ

أما هذه العناية من الله بيونس، فإن الله سبحانه يحدث عن سببها إذ يقول:

﴿فلولا أنه كان من المسبحين، للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾. (الصافات: آية ١٤٣-١٤٤).

لقد كان يونس عليه السلام مسبحًا، أي منزهًا لله سبحانه، والتعبير الذي يدل عليه التنزيه هو:

(سبحان الله، أو: سبحان الله وبحمده).

أما نداء يونس وهو في بطن الحوت، أي:

«.. لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين».

فإنه دعوة في غاية الحق!!

إنها أولاً توحيد: لا إله إلا أنت.

وثانيا: سبحانك.

وثالثا: اعتراف وصف فيه نفسه بالتقصير في حق الله:

«إنى كنتُ منَ الظالمين».

ومع كل ذلك فإن يونس عليه السلام ككل الأنبياء والرسل فى قمة الخلق الكريم.

والتسبيح إذن من وسائل النجاة والحفظ والحماية.

أما دعاء يونس عليه السلام فقد روى سعيد بن المسيب، قال:

سمعت ابن مالك – وهو ابن أبى وقاص يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«إسم الله الذى إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى، دعوة يونس ابن متى» قال:

فقلت يا رسول الله: هى ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟

قال: هى ليونس خاصة وللمؤمنين عامة إذا دعوا بها، ألم تسمع قول الله تعالى:

﴿فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين، فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين﴾ (الأنبياء الآية: ٨٧).

«فهو شرط من الله لمن دعاه به» أهـ

أما عن يونس عليه السلام نفسه، فإن الله سبحانه وتعالى يقول عنه:

﴿وإن يونس لمن المرسلين﴾.

واخرج الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

«ما ينبغى لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى».

على رسولنا وعليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم».

مـــوسى

عليه السلام

يقول الله تعالى:

﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم، ولا تخافى ولا تحزنى، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾.

وهكذا نرى من مبدأ قصة موسى عليه السلام عناية الله به ورعايته له، وهذه العناية والرعاية ليست خاصة بموسى، وإنما يقدرها الله سبحانه وتعالى لكل من يصطفيهم، إنه يقدرها لهم أزلاً، فيأتون إلى العالم وقد خططت حياتهم ورسمت فى حكمة دقيقة، لقد رسمت من قبل أن يولدوا بحيث اختار الله لهم الآباء الشرفاء والأمهات الأطهار.

يقول إمامنا البوصيرى عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم:

لم تزل فى ضمائر الكون تختار   لك الأمهـــات والآبـــاء

وانظر إلى السيدة مريم رضى الله عنها حينما استعاذت بالرحمن من هذا

الذى تمثل لها بشرًا سويًا، فقال مطمئنًا ومهدئًا:

﴿إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلامًا زكيًا﴾

فلما استغربت ذلك قائلةً:

﴿أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيًا﴾.

بين لها أن المقادير الإلٰهية رسمت الحياة منذ الأزل قائلًا:

﴿كذلك قال ربكِ هو على هين، ولنجعله آية للناس ورحمة منا، وكان أمرًا مقضيًا﴾.

فقد كان أمرًا مقضيًا قبل أن يولد عيسى عليه السلام، وكان أمرًا مقضيًا شاءت أمه أو أبت.

ونعود بعد هذا إلى سيدنا موسى عليه السلام فنرى أن حكمة الله اقتضت أن يولد فى عام يقتل فيه المواليد من أبناء اليهود عقابًا لهم على بغيهم وطغيانهم وإفسادهم، وكان من تدبير هذه الحكمة فى ذلك أن يربى هذا الوليد فى القصر الملكى حيث العناية التامة صحيًا، وحيث العناية التامة ثقافيًا، وحيث الفرصة متاحة فى القصر لمعرفة السياسة وأسرار الحكم وتصريف الأمور وتدبير شئون الدولة وقيادة الأفراد.

لقد كان سيدنا موسى يعد للنبوة، والنبوة قيادة لجميع أقطار الإنسان وقيادة لجميع زوايا المجتمع فى الجانب السلوكى والاجتماعى، فى الإرادات

والنوايا، فى الأخلاق والتصرفات، وفى كل ما يأتيه الإنسان أو يدعه من مسائل العقيدة والأخلاق والتشريع.

ودبرت العناية الإلهية الأمور على الوضع الذى يقصه الله تعالى فى أكثر من سورة من سور القرآن.

ومن الواضح السافر الذى لا لبس فيه أن الله سبحانه وتعالى كان يصطنعه لنفسه كما يقول سبحانه:

﴿واصطنعتك لنفسى﴾.

وأنه سبحانه كان يصنعه على عينه كما قال سبحانه:

﴿ولتصنع على عينى﴾.

وتبدأ قصة موسى عليه السلام بأن أمه حملت به فأصابها من الهم ما الله به عليم، لقد سرح بها خيالها فى مستقبل هذا الحمل وفيما ينتظره من مصير، لقد كانت تفكر فى الأمر نهارًا وكانت تفكر فيه ليلًا، وأصبحت فريسة للهواجس لا تفارقها.

فطمأنها الله سبحانه، وأمرها أن تأخذ الأمر فى يسر تام، لقد أمرها إذا ما تم الوضع أن ترضع الوليد رضعة مشبعة ثم تضعه فى صندوق وتلقيه فى النيل.

وأحكمت أم موسى الأمر إحكاما: أحكمته من جهة الصندوق، وكيفيته، وأحكمته من جهة الإلقاء، ووقت الإلقاء ثم ألقته، داعية الله له

بالحفظ. وما أن بعد عنها، وتوارى عن نظرها حتى أضحت فريسة للهواجس مرة أخرى، وأخذ الشيطان يهمس فى أذنها، فحدثت نفسها قائلة: ماذا فعلت يابنى؟ لو ذبح عندى فواريته وكفنته كان أحب إلى من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيتانه، لقد أصبح قلبها معلقًا به فارغًا من غيره، وكادت تعلن الأمر وتذيع الخبر حتى يرد ولدها عليها ولو كان مذبوحًا. ولكن الله عصمها وثبتها وربط على قلبها لتكون من المؤمنين.

* * *

عن ابن عباس رضى الله عنهما - حسبما روى الثعالبى - قال:

«إن بنى إسرائيل لما كثروا بمصر استطالوا على الناس، وعملوا بالمعاصى ووافق خيارهم شرارهم، ولم يأمروا بالمعروف، ولم ينهوا عن المنكر، فسلط الله عليهم القبط فاستضعفوهم، وساموهم سوء العذاب، فذبحوا أبناءهم».

ورأى ابن عباس هذا، هو الرأى الاشبه بالحق فى سبب سوء التفاهم، الذى حدث بين المصريين واليهود عندما كان سيدنا موسى على وشك أن يتنسم الحياة.

لقد أفسد اليهود فى أرض مصر حينئذ إفسادا كان من المحتم معه إضعاف شوكتهم، وفى هذه الفترة ولد سيدنا موسى، وكان من ثمار ميلاده فى هذه الفترة، أو من حكمة الله لولادته فى هذه الفترة أن تسير به المقادير

فى عناية تامة إلى أن تضعه فى القصر الملكى يربى فيه، ويعد لمواجهة هذا الظلم الفاجر والفساد العنيد.

وولد موسى، فخافت أمه أن يقتل وألقته فى النهر، وانطلق الماء بموسى يرفعه الموج مرة ويخفضه أخرى، حتى أدخله - كما يذكر النيسابورى - بين الأشجار عند دار فرعون إلى روضة هى مستقى جوارى فرعون، وكان بالقرب منها نهر كبير فى دار فرعون، داخل فى بستانه.

فخرجت جوارى فرعون يغتسلن ويستقين، فوجدن الصندوق قد حمله التيار إلى مستقاهن ومغتسلهن، فأقبلن عليه يتنافسن فى التقاطه، فلما أصبح بين أيديهن أخذن فى التنبؤ بما فيه، أهو كنز من ذهب؟ أهو مجموعة من الجواهر؟ أهو أى شىء آخر؟

وانتهى بهن الرأى إلى أن الأسلم فيما يتعلق بهن أن يذهبن به إلى سيدتهن ربة القصر، امرأة فرعون فحملنه على حالته حتى أدخلنه على «آسية» امرأة فرعون، هذه السيدة التى ضرب الله بها مثلا للمؤمنين، فقال:

﴿وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين﴾.

ولقد وصفها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكمال مسوِّيًا فى ذلك

بينها وبين السيدة خديجة الزوجة الأولى لرسول الله صلى الله عليه وسلم، والسيدة فاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والسيدة مريم أم السيد المسيح رضى الله عنهن أجمعين.

وحينما وصلت الجوارى إلى مكان السيدة آسية وضعن الصندوق أمامها فأمرتهن بفتحه، ففتحنه، فرأت غلامًا وسيمًا قسيمًا، وألقى الله تعالى فى قلبها محبته، كما قال الله سبحانه:

﴿وألقيت عليك محبة منى﴾.

لقد أشفقت عليه السيدة الكريمة، ورحمته، وأحبته حبًا لأول نظرة، حبا قويًا كان من أثره أن وطنت العزم على أن تستنقذه من براثن فرعون وعصابته.

وذهبت بالطفل فى طفولته النضرة، وفى منظره البرىء إلى فرعون، وقالت: قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا.

وذكرت له أن طفلًا واحدًا لا يُزيد فى بنى إسرائيل، واستوهبته إياه ولم تزل ترجو وتتعطف وتسترحم حتى وهبه لها.

وسعدت آسية بفوزها، ونعمت بتحقيق رغبتها، ومكثت هنيهة تداعب الطفل وتدلله، ثم سمته (مو - شى) وهو اسم مركب من كلمتين: كلمة «مو» ومعناها الماء وكلمة «شى» بالامالة ومعناها: الشجر. وذلك أن موسى عليه السلام وجد فى الصندوق بين الماء والشجر، ثم عرِّبت الكلمة

فأصبحت موسى.

سعدت السيدة آسية رضى الله عنها بموسى هنيهة من الزمن حينما وهبه فرعون لها، ثم انقلبت سعادتها قلقًا واشفاقًا وذلك حين أحضرت المرضع فلم يقبل على ثديها فأحضرت مرضعًا ثانية فامتنع عليها، وأحضرت ثالثة فرفض الرضاع منها وهكذا.. وأشفقت السيدة الكريمة أن يمتنع عن اللبن فيموت جوعًا وتنتهى حياته فى ساعات فأحزنها ذلك كل الحزن، وأخذت تفكر فى أمره الغريب، لقد نجا من الموت غرقًا وقد كان من الممكن أن ينقلب الصندوق بموجة واحدة فيصير الطفل فى عالم الموتى وقد كان من الممكن أن يقتل قبل إلقائه فى النهر. وكان من الممكن ألا يهبه فرعون لها، لقد نجا الطفل من كل ذلك، أفتكون الأقدار قد ادخرت له الموت جوعًا؟ وأمرت السيدة فى محاولة تجريبية أن يؤخذ إلى السوق وأن يعرض عليه كل من كانت حديثة عهد بالولادة لعله يرضع من إحداهن، ولكنه امتنع وتحقق بذلك قوله تعالى:

﴿وحرّمنا عليه المراضع﴾.

وكان الله سبحانه قد وعد أم موسى برده إليها قائلا: ﴿إنا رادوه إليك﴾.

ومن أجل تحقيق هذا الوعد تصرفت المقادير على النحو التالى

حينما ألقى موسى عليه السلام فى اليم قالت أمه لأخته «قُصّيه» أى تتبعى أثره فأخذت أخته تتبع أثره معتمدة ألا يبدو منها الاهتمام الخاص

به، واستمرت فى ذلك صابرة منتبهة يقظة إلى كل ما يدور، مما يتعلق بموسى، حتى إذا كان فى السوق تعرض عليه المراضع، تدخلت أخته قائلة:

﴿هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون﴾.

فالتفوا حولها وقالوا لها:

وما يدريك بنصحهم له، ولعلك قد عرفت هذا الغلام، فلتدلينا على أهله، فقالت ما أعرفهم وإنما نصحى له وشفقتى عليه رغبة فى سرور الملك، ورجاء منفعته، وأملاً فى رضاه وهباته.

فأرسلوها لتحضر من أشارت بها، فذهبت إلى أمها وأخبرتها الخبر، فجاءت يملؤها الحنان والشوق، ويغمرها الفرح والرضا.

وما أن قدّمت له ثديها حتى التقمه وأخذ يمتص منه إلى أن امتلأ شبعًا وريًّا.. وطار المبشرون إلى امرأة فرعون يبشرونها أن قد وجدنا للطفل مرضعًا، فغمرها الفرح وأرسلت فأتت بها وبه وشاهدت الرضاع، وتثبتت بنفسها من الأمر، ثم قالت لأمه: أقيمى هنا فى القصر لأجل أن ترضعى ابنى هذا وكل أمورك مكفولة، وستجدين الراحة، وستنعمين بما يتنعم به ساكنو القصر. فتذكرت أم موسى وعد الله لها.

﴿إنا رادّوه إليك﴾.

وعلمت أن الله لا يخلف وعده، فقالت فى غير تردد ولا خوف. لا أستطيع أن أدع ولدى، فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى

بيتى فيكون معى لا آلوه خيرا، ولما رأت امرأة فرعون تصميم أم موسى سمحت لها بأخذه فرجعت به إلى بيتها من يومها وتحقق بذلك وعد الله لها.

﴿إنا رادّوه إليك﴾.

مكث موسى مع أمه مدة الرضاع، وأنبته الله نباتًا حسنًا، وحفظه من كل سوء، فلما انقضت المدة التى كانت امرأة فرعون تتعجل نهايتها حُدِّد يوم لعودته إلى القصر، وأعلنت امرأة فرعون يوم عودته، واستعدت لذلك، واستعد من حولها، وكان يومًا مليئًا بالزينة ومواكب المهنئين.

أما ما حدث بعد ذلك فى سنوات الطفولة وأوائل الشباب فإن التاريخ يصمت عنه، وما من شك فى أنه ربى أحسن ما تكون التربية، ويصمت القرآن أيضا عن هذه الفترة ثم يفاجئنا به وقد بلغ أشده واستوى فيقول:

﴿ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكمًا وعلمًا وكذلك نجزى المحسنين﴾ (القصص آية: ١٤).

ونقف قليلاً عند قوله تعالى: ﴿وكذلك نجزى المحسنين﴾ لأنها ترشد إلى أن الله كان قد آتاه حكمًا وعلمًا. فإن موسى عليه السلام قد قدم ما جعله جديرًا بذلك وهو أنه كان من المحسنين، كان ينصر المظلوم، ويعين العاجز، ويساعد من كان فى حاجة إلى عونه وكان سريع الرجوع إلى الله: أى أنه كان حسن الصلة بالله، وكان حسن الصلة بأفراد المجتمع ومن كان كذلك فإن الله سبحانه يثيبه خير مثوبة، يقول سبحانه:

﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة، ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ (يونس آية: ٢٦).

ويقول سبحانه: ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ (النحل آية: ١٢٨).

إنه سبحانه مع المحسنين بالرعاية والتوفيق، ومعهم بالعناية والهداية، ومعهم بالرحمة، وإن رحمة الله قريب من المحسنين.

ومكث موسى عليه السلام فى القصر ماشاء الله أن يمكث، ثم اقتضت الحكمة الإلهية أن يغادر القصر وأن يغادر مصر كلها فارًّا خائفًا.

أما السر فى ذلك، فإنه دخل المدينة فى وقت هدأ فيه السير، وانقطع السائرون، واستكنَّ كل إنسان فى بيته يطلب الراحة والهدوء، وإذا به يجد رجلين يقتتلان: أحدهما من شيعته، والآخر من أعدائه، وكان موسى معروفًا لدى جمهور الشعب، فأخذ الذى من شيعته، يستغيث به ويستنصره وقرب منهما موسى ليفض النزاع ويحسم الخصومة، وإذا به عن غير قصد يلطم الذى هو عدو له لطمة لم يكن يقصد أن تكون قاتلة - وحاشا لنبى أن يقصد ذلك - فإذا فيها القضاء عليه وإذا به يخر ميِّتًا.

وما أن حدث هذا حتى رجع موسى إلى الله بالندم، والتوبة الخالصة النصوح، والاستغفار الخارج من القلب فى أسف شديد على ما حدث.

ويذكر الله سبحانه ذلك على لسان موسى الذى يقول:

﴿هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين، قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم﴾ (القصص آية: ١٥، ١٦).

ثم عاهد الله عهدًا مؤكدًا فيما يستقبل من حياة قائلًا:
﴿رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرًا للمجرمين﴾ (القصص آية: ١٧).

وأيقن موسى أنه لابد من القصاص منه، وأن الأمر سيعرف: إن قريبًا وإن بعيدًا، وأنه لا مفر من مغادرة مصر.

أخذ موسى يفكر فى أمر القصاص وأنه لا مفر منه، وسار فى هم، وبات فى ضيق، وأصبح خائفًا يترقب، لقد أصبح حذرًا مرتابًا.

وإذا به يفاجأ مرة أخرى بالذى استنصره بالأمس يطلب منه العون والنجدة ويستصرخه من جديد، ولم يكن ضمير موسى قد هدأ بعد من حادث الأمس، فتطلع إليه فى غضب، ونظر إليه فى استياء، وقال له فى تأنيب:

﴿إنك لغوى مبين﴾ (القصص آية: ١٨).

وأراد أن يعاقبه على كثرة اشتباكه بالآخرين من أجل أن يلتزم السكينة، وأن يثوب إلى حسن المعاملة، وإذا بالرجل يقول:

﴿يا موسى، أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسًا بالأمس، إن تريد إلا أن تكون جبارًا فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين﴾ (القصص آية: ١٩).

وهكذا أفشى الرجل سر القتيل، وهذا الرجل يمثل صنفًا من الناس عربيدًا جبانًا، لا يحفظ جميلًا، ولا يمثل الاتزان.

وبينما كان موسى عليه السلام مأخوذًا بالمفاجأة التى ما كان ينتظرها من إفشاء سره، إذا به يرى رجلًا آتيًا من أقصى المدينة يسعى متجهًا إلى موسى قائلًا:

﴿يا موسى، إن الملأ - أى الرؤساء - يأتمرون بك ليقتلوك، فاخرج إنى لك من الناصحين﴾ (القصص آية: ٢٠).

وأصبح الأمر بالنسبة لموسى واضح المعالم:

لا مفر من الخروج من مصر، إلى أين؟ بم يسافر؟ ما الطريق؟ إنه لا يدرى.

ولكنه خرج من مصر: خرج خائفًا يترقب، متجهًا إلى الله تعالى فى تضرع واستغاثة، قائلًا:

﴿رب نجنى من القوم الظالمين﴾ (القصص آية: ٢١).

كانت تتمثل فى موسى إذ ذاك الحاجة إلى عون الله والاضطرار إلى

رحمته، والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء﴾ (النمل: ٦٢).

يقول أبو العباس المرسى: الصوفى فى اضطرار دائم، إنه دائمًا مستشعر اضطراره إلى الله، من أجل ذلك فهو مستجاب الدعوة.

وما من شك فى أن الالتجاء إلى الله عن طريق العبودية سبيل صادق فى الاستجابة.

﴿أليس الله بكاف عبده﴾ (الزمر آية: ٣٦).

من هو عبده؟

إنه الذى لايغفل عن العبودية الحقة التى تستجيب للأمر، وتنهى عن المنهيات، وتكون دائمًا فى إطار الطاعة.

كان موسى مضطرا فاستجاب الله نداءه ونجّاه من القوم الظالمين.
أخذ موسى سمته نحو مدين - بالسؤال أوبالحدس وقد كان يسمع عنها وما كان يدرى الطريق إليها، وتضرع إلى الله فى ابتداء طريقه قائلاً:

﴿عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل﴾ (القصص آية: ٢٢).

إنه مضطر أيضًا - وما من شك فى ذلك - واستجاب الله دعاءه، فهداه إلى هدفه.

ووصل مدين، وحينما دخلها وجد جمعًا كثيرًا من الرعاة يسقون أنعامهم

عند بئر مدين، وأخذ ينظر إلى الرعاة فوقع بصره على فتاتين متعزلتين تقريبًا، وتمنعان أغنامهما عن السقيا، وسألهما عن أمرهما فقالتا:

﴿لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير﴾ (القصص آية: ٢٣).

أى لا نسقى أنعامنا حتى ينتهى الرعاة من سقى أنعامهم، وذلك لضعفنا عن الاقتحام فى الزحام.

ويبدو أنهما توقعتا منه سؤالاً عن رجال الأسرة فقالتا:

﴿وأبونا شيخ كبير﴾ (القصص آية: ٢٣).

واستولت المروءة على موسى، هذه المروءة التى هى من شيمة المؤمنين والتى تلزم الإنسان نجدة المحتاج.

﴿فسقى لهما﴾ (القصص آية: ٢٤).

وكان موسى مجهدًا، وكان بالمكان شجرة لها ظل ظليل، فتولى إليها، وجلس ملتجئًا إلى الله مرة أخرى قائلاً:

﴿رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير﴾ (القصص آية: ٢٤)

أخرج ابن مردويه – عن أنس بن مالك – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

لما سقى موسى عليه السلام للجاريتين ثم تولى إلى الظل فقال: ﴿رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير﴾، إنه يومئذ فقير إلى كف من تمر.

وعن ابن عباس قال:

لقد قال موسى عليه السلام: ﴿رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير﴾ وهو أكرم خلقه عليه، ولقد افتقر إلى شق تمرة، ولقد لصق بطنه بظهره، من شدة الجوع.

وفى رواية أخرى عنه أنه عليه السلام سأل فلقًا من الخبز يشد بها صلبه من الجوع. وكان عليه السلام قد ورد ماء مدين.

ومن أجمل ما روى فى ذلك ما قاله الحسن رضى الله عنه من أنه عليه السلام سأل العلم والحكمة.

ومهما يكن من شيء، فإن موسى عليه السلام كان يلجأ إلى الله فى كل أموره، ولقد كان رسولنا صلى الله عليه وسلم يقول:

«من لم يسأل الله يغضب عليه» (رواه ابن ماجه).

وينصح بأن يسأل الإنسان الله فى اليسير من الأمور والعظيم منها.

وكان عليه الصلاة والسلام يقول:

«إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله».

«رواه الترمذى وقال: حسن صحيح».

جلس موسى فى الظل، وما لبث أن جاءته إحدى الفتاتين تمشى على استحياء وقالت له:

﴿إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾ (القصص آية: ٢٥).

يقول ابن كثير:

أى جزاء سقيك، على أن ما مصدرية، ولا يجوز أن تكون موصولة، لأن ما يستحق عليه الأجر فعله، لا ما سقاه، إذ هو الماء المباح، وأسندت الدعوة إلى أبيها، وعللتها بالجزاء، لئلا يوهم كلامها ريبة. وفيه من الدلالة على كمال العقل والحياء والعفة ما لا يخفى.

روى أنه عليه السلام أجابها فقام معها فقال لها:

«امشى خلفى، وانعتى لى الطريق، فإنى أكره أن تصيب الريح ثيابك فتصف لى جسدك، ففعلت».

يقول الله تعالى:

﴿فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين﴾ (القصص آية: ٢٥).

ومن أجمل ما روى عندما التقى موسى بالشيخ، ما أخرجه ابن عسكر عن أبي حازم قال:

لما دخل موسى على شعيب عليهما السلام إذ هو بالعشاء، فقال له شعيب:

كُنْ..

قال موسى أعوذ بالله تعالى.

قال: ولم؟ ألست بجائع؟

قال: بلى، ولكن أخاف أن يكون هذا عوضًا لما سقيت لهما، وأنا من أهل بيت لا نبيع شيئًا من عمل الآخرة بملء الأرض ذهبًا.

قال: لا والله، ولكنها عادتى وعادة آبائى، نقرى الضيف، ونطعم الطعام فجلس موسى عليه السلام، فأكل.

ثم يقول الله تعالى متابعًا النبأ:

﴿قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين﴾ (القصص آية: ٢٦).

يقول الإمام الألوسى:

«إن كلامها هذا كلام حكيم جامع لا يزاد عليه، لأنه إذا اجتمعت الخصلتان - أعنى الكفاية والأمانة - فى القائم بأمرك فقد فرغ بالك وتم مرادك».

وقال عمرو بن عباس، وشريح القاضى، وأبو مالك، وقتادة، ومحمد ابن اسحاق وغير واحد، لما قالت ذلك، قال لها أبوها: وما علمك بهذا؟

فقالت: إنه رفع صخرة لا يطيق رفعها إلا عشرة، وأنه لما جئت معه تقدمت أمامه. فقال:

كونى من ورائى، فإذا اختلفت الطريق فاحذفى لى بعصاة أعلم بها كيف الطريق.

ورأى شعيب عليه السلام شابًا قويًا يبدو عليه القوة، ويبدو عليه الأمانة، وفى وجهه نور، وفى سمته وقار. فأحب أن يربطه به برابطة وثيقة، فقال له:

﴿إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج، فإن أتممت عشرًا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين﴾ (القصص: ٢٧).

وأجاب موسى عليه السلام:

﴿ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علىّ والله على ما نقول وكيل﴾ (القصص: ٢٨).

يقول الإمام البخارى:

«حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا مروان بن شجاع، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جبير قال:

«سألنى يهودى من أهل الحيرة: أى الأجلين قضى موسى؟»

فقلت: لا أدرى حتى أقدم على حبر العرب فأسأله، فقدمت فسألت ابن عباس فقال:

قضى أكثرهما وأطيبهما، أن رسول الله إذا قال فعل.

وروى ابن جرير من طريق محمد بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل:

أى الأجلين قضى موسى؟

قال: أوفاهما وأتمهما.

قضى موسى الأجل، وأحب أن يغادر مدين، فقد اشتاق موسى إلى مسقط رأسه، وإلى أهله: إنه الحنين إلى الأهل والوطن، وأحب زيارتهم فى خفية من فرعون وقومه، فلما صح عزمه أمر زوجته أن تسأل أباها أن يمنحها من ماله ما يعيشون به، فأعطاها قدرًا كبيرًا من غنمه.

وأخذ موسى طريقه - ومعه غنمه وأهله - واتخذ من أجل رعاية الغنم عصًا هى عصاه المشهورة، وسيأتى ذكرها.

لقد أخذ طريقه فى ليلة شاتية باردة، وأراد أن يوقد نارًا ليستدفئ هو وأهله، فلم يتمكن من ذلك بسبب الشتاء.

وأخذ يتلفت هنا وهناك.

﴿آنس من جانب الطور نارًا قال لأهله امكثوا إنى آنست نارًا لعلى

آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون﴾ (القصص:٢٩).

وحينما وصل إلى المكان الذى آنس فيه نارًا إذا به يسمع النداء المدوى فى الجو، والمدوى فى أعماق نفسه، يسمعه:

﴿من شاطئ الواد الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة﴾. (القصص: ٣٠)

قائلًا له:

﴿يا موسى إنى أنا الله رب العالمين﴾ (القصص: ٣٠)

ولقد ذكر الله ذلك فى سور متعددة، واختلف التعبير من سورة إلى سورة، ومن ذلك:

﴿فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين، يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم﴾ (النمل: ٨، ٩)

وقال تعالى فى سورة طه:

﴿فلما أتاها نودى يا موسى، إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى، إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى، إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى، فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى﴾. (طه: ١١ - ١٦).

لقد كانت المفاجأة السعيدة الكبرى لموسى، وكانت مفاجأة لم يكن موسى عليه السلام يتوقعها.

وهل يتوقع الأنبياء النبوة؟

إن الله يصطفيهم للنبوة منذ الأزل، ثم يفاجئهم فى الوقت الذى تقتضى حكمته أن يبعثهم فيه.

وما كان الذى رآه موسى نارا وإنما كان نورا إنه النور الذى يراه كل من يتجلى الله عليه برحمته، يقول صاحب كتاب: «لطائف الإشارات»:

ويقال: ألاح له نارًا، ثم لوح له نورًا، ثم بدا ما بدا، ولا كان المقصود النار ولا النور، وإنما سماع نداء:

﴿إنى أنا الله رب العالمين﴾.

ويقول ابن كثير فى ذلك:

إن الذى يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين، الفعال لما يشاء، لا إله غيره، ولا رب سواه، تعالى وتقدس، وتنزه عن مماثلة المخلوقات – فى ذاته وصفاته، وأقواله وأفعاله – سبحانه.

ويقول الله سبحانه عن هذه الحادثة المشرقة:

﴿فلما أتاها نودى: يا موسى، إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى، إننى أنا الله لا إله

إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى.. إلى قوله: فتردى﴾.

ونحب أن نتحدث عن: **﴿فاخلع نعليك﴾:**

انه خلع حقيقى للنعلين، ولكن الكلمة تشير إلى: «اخلع الأدنى».

وكلما خلع الإنسان الأدنى كان هناك أيضًا أدنى فيخلعه، وهكذا يكون الإنسان فى سمو مستمر، وفى ترق دائم - وشعار الإسلام:

من استوى يوماه فهو مغبون، ومن لم يكن إلى زيادة فهو إلى نقصان - وتشير أيضًا إلى:

تبرأ من نفسك الأمارة بالسوء، ومن الشيطان الذى يوسوس بالسوء، واخلع نعليك تشير على وجه العموم إلى:

اخلع الرجس، اخلع كل ما هو ملوث بالرياء، وسر فى طريق الله على طهر ونقاء: مادى ونفسى، فإن طريق الله هو طريق الطهر والصفاء.

ثم خاطب الله سبحانه موسى عليه السلام قائلاً:

﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾ (طه: ١٧)

فقال موسى:

﴿هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى، ولى فيها مآرب أخرى﴾ (طه: ١٨)

وأمره الله سبحانه بإلقائها، فألقاها موسى، وإذا بها حية تسعى، فلما رآها موسى تهتز كأنها جان ولّى مدبرًا، وإذا به يسمع النداء الإلهى:

﴿يا موسى، أقبل ولا تخف، إنك من الآمنين﴾ (القصص: ٣١)

وهل يخاف من اصطفاه الله، أو اجتباه، أو كان عنه راضيًا؟

﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (يونس: ٦٢)

وأولياء الله هم:

﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ (يونس: ٦٣)

فإذا ما كانوا كذلك، فإن لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة.

إن الله سبحانه وتعالى يرعاهم ويحميهم، وهم آمنون فى الدنيا، وآمنون فى الآخرة.

ورجع موسى، وأعاد الله العصا سيرتها الأولى.

ثم أمر الله تعالى موسى أن يدخل يده فى جيبه ثم يخرجها، ففعل موسى، وإذا به يرى يده بيضاء من غير سوء.

وما كانت هاتان الآيتان من الله لموسى إلا تمهيدًا لبعثه ورسالته: إنهما برهانان على صدقه:

﴿اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك

جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون ومَلئه إنهم كانوا قومًا فاسقين﴾ (القصص: ٣٢)

وأمر الله موسى بالذهاب إلى فرعون:

﴿إنه طغى﴾

ومن رسالة موسى كما هو من رسالات الأنبياء، تحذير الطغاة من غضب الله ﴿إن الإنسان ليطغى، أن رآه استغنى﴾ (العلق: ٦ – ٧)

أى أن الإنسان إذا كان فى صحة، وفى ثراء، وفى حكم – يسيرًا كان هذا الحكم أو كبيرًا، فإنه ينزع للطغيان، ويستخف قومه فلا يبالى بهم، ويستعبدهم فيطيعونه، ويذلون له خوفًا منه ورهبة.

ورسالات الأنبياء تحذر من ذلك وتعلن: إن الله يمهل ولا يهمل.

وإن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.

ورأى موسى أنه سيقابل طاغية مستبدًا، استخف قومه فأطاعوه فتضرع إلى الله قائلًا:

﴿رب اشرح لى صدرى، ويسر لى أمرى، واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى، واجعل لى وزيرًا من أهلى، هارون أخى، اشدد به أزرى، وأشركه فى أمرى، كى نسبحك كثيرًا، ونذكرك كثيرًا، إنك كنت بنا بصيرًا﴾. (طه آية: ٢٥ – ٣٥)

واستعطفه أيضًا قائلاً:

﴿رب إنى قتلت منهم نفسًا فأخاف أن يقتلون، وأخى هارون هو أفصح منى لسانًا فأرسله معى ردءًا يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون﴾. (القصص: ٣٣ - ٣٤)

وأهل الله وأولياؤه يلجأون إليه فى كل أمر يهمهم، إنهم يسألونه ويلجأون إليه فى اليسير من أمرهم وفى العظيم منه، يقول صلى الله عليه وسلم:

«ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع». (رواه الترمذى وابن حبان عن أنس).

واستجاب الله دعاءه قائلاً:

﴿سنشد عضدك بأخيك﴾ (القصص: ٣٥)

ومن طريف ما يروى فى ذلك أن السيدة عائشة رضى الله عنها سمعت رجلاً يقول لأناس وهم سائرون فى طريق الحج: أى أخ آمن على أخيه؟

فسكت القوم، فقالت عائشة لمن هم حول هودجها:

هو موسى بن عمران حين شفع فى أخيه هارون فأوحى إليه، قال الله تعالى:

﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيًا﴾ (مريم: ٥٣)

واجتمع موسى بأخيه، وصمما على أن يؤديا الرسالة فى صورة من العزم المصمم، ولكن صورة فرعون كانت واضحة فى نفسيهما:

إنها صورة الباطش الذى لا يبالى، فاتجها إلى الله فى تواضع وانكسار، قائلين:

﴿ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى﴾، فقال سبحانه وتعالى:

﴿لا تخافا، إننى معكما أسمع وأرى﴾ (طه: ٤٥ - ٤٦).

ونصحهما الله سبحانه وتعالى قائلاً:

﴿فقولا له قولاً ليِّنًا لعله يتذكر أو يخشى﴾ (طه: ٤٤)

والواقع: أن هذه النصيحة ليست لموسى وحده، وإنما هى لكل داع إلى الله سبحانه.

إن الداعى حينما يغلظ فى القول فإنما يرضى بذلك نزعة الكبرياء عنده، وأن بعض الدعاة يسير على أساس من هذه النزعة.

إن فيه بعضًا من صفات إبليس فى كبريائه، وإن لم يشعر بذلك، وأنه لمن البديهة بمكان أنه بمقدار ما عند الواعظ من حدة يكون غير أهل للوعظ، وبمقدار ما عنده من حدة يكون عنده من كبرياء.

ومن طريف ما يروى فى ذلك أن واعظًا وعظ المأمون وعنف له فى

القول، فقال: يا رجل، ارفق فقد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني، وأمره بالرفق، قال تعالى:

﴿فقولا له قولا لينًا لعله يتذكر أو يخشى﴾ (طه: ٤٤)

ولقد أبان الله سبحانه وتعالى قواعد الوعظ، وبين المنهج الذى يجب أن يلتزم به الواعظ، وأولى هذه القواعد ما عبر الله سبحانه وتعالى عنها فى أمره لرسوله:

﴿قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾ (يوسف: ١٠٨)

الدعوة على بصيرة: أى على علم، ولا مناص من أن يكون الداعى عالمًا حتى لا يوقع جمهورًا من الناس فى الضلال.

ولقد كان من شيم علمائنا الأجلاء أنه إذا سئل أحدهم فيما لا يعلم قال:

«لا أدرى».

وأما القاعدة الثانية، فهى ما عبر الله عنه بقوله:

﴿الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدًا إلا الله﴾. (الأحزاب: ٣٩).

وهذه قاعدة جليلة: إن من يبلغ رسالات الله لا ينبغى أن يفعل ذلك

إلا إذا كان قلبه عامرًا بخشيته، مليئًا بهيبته.

أما القاعدة الثالثة للواعظ فهى:

﴿فقولا له قولا لينًا لعله يتذكر أو يخشى﴾ (طه: ٤٤)

والقاعدة الرابعة هى:

﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن﴾ (النحل: ١٢٥)

وهى آية تجمع من الآداب الكثير.

* * *

ما هى رسالة موسى إلى فرعون؟

إنها: ﴿أن أرسل معنا بنى إسرائيل﴾ (الشعراء: ١٧)

إن موسى عليه السلام لم يكن صاحب دعوة عامة، إنه لم يرسل إلى المصريين، وإلا لمكث فى مصر يدعو إلى الله.

لقد أساء اليهود إلى مصر، وعاثوا فيها فسادًا على طريقتهم فى كل مكان، وفى كل زمن، فأخذ فرعون فى قسوة قاسية، وفى عنف عنيف ينكل بهم: يذبح أبناءهم، ويستحيى نساءهم.

وربما كان هذا العنف بسبب مؤامرة – وهم أصحاب المؤامرات – من

مؤامراتهم لقلب نظام الحكم، وربما أخذوا يسيطرون على اقتصاد البلد، ويمتصون دماء أهلها، وربما حاولوا السيطرة على مصر وأخذ الحكم فيها، وربما..

ونكل بهم فرعون فى نوع من الجبروت، وكانت مهمة موسى عليه السلام إنقاذهم.

... ان: ﴿أن أرسل معنا بنى إسرائيل﴾ رسالة واضحة.

ويقول الله تعالى:

﴿فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى﴾ (طه: ٤٢).

وما من شك فى أن موسى عليه السلام كان يسعده أن يؤمن فرعون، ومع ذلك فإن رسالته كانت محددة ببنى إسرائيل.

ولما قال موسى وهارون لفرعون: ﴿إنا رسولا ربك﴾ دار حديث بين فرعون وموسى فى موضوع الإلهية، قال فرعون:

﴿فمن ربكما ياموسى﴾.

﴿قال: ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى﴾ (طه: ٤٩-٥٠).

أى أن الله سبحانه هو الذى خلق كل ما فى الكون، وهو كل شىء فى الكون إلى الغاية من وجوده.

ويريد موسى بذلك أنه سبحانه فعل ما لا تقدر على فعله.

وعاد فرعون يسأل: إذا كان ربك بهذه المثابة من الوضوح والجلاء، فما بال القرون الأولى التى لم تهتد إليه؟

وقال موسى: ﴿علمها عند ربى فى كتاب لايضل ربى ولاينسى﴾ (طه: ٥٢).

وسيجازى كلًّا بعمله، ثم أخذ موسى يتحدث عن الله وعظمته وآلائه:

﴿الذى جعل لكم الأرض مهدًا وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجًا من نبات شتى، كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى﴾ (طه: ٥٣ - ٥٤)

ويقص الله سبحانه أيضا حوارًا طريفًا بشكله وموضوعه جرى بين فرعون وموسى عليه السلام.

لقد قال موسى لفرعون:

﴿إنا رسول رب العالمين﴾ (الشعراء: ١٦).

فقال فرعون:

﴿وما رب العالمين؟﴾ (الشعراء: ٢٣).

وهذا السؤال الذى بدأه فرعون: بـ «وما» بدل أن يبدأه بـ «ومن» يدل على أن فكرة الألوهية كانت مختلطة مشوشة عند فرعون.

ولقد مر على الإنسانية أزمنة عبدت فيها الكواكب، وأزمنة عبدت فيها الحيوانات، وقدست البقر والعجل وغيرها، وأزمنة عبدت فيها الأصنام.

ويدل سؤال فرعون على أنه لم يكن على علم بالحق.

وأجاب موسى عليه السلام:

﴿رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين﴾ (الشعراء: ٢٤).

ويتجه فرعون إلى من حوله متعجبًا من قول موسى قائلاً:

﴿ألا تستمعون﴾ (الشعراء: ٢٥).

ومع أنه انصرف فى خطابه عن موسى فإن موسى لم يمهله وإنما قال:

﴿ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ (الشعراء: ٢٦).

ولجأ فرعون إلى السفه فقال:

﴿إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون﴾ (الشعراء: ٢٧).

ولم يثن ذلك السفه موسى عليه السلام عن الاستمرار فى التعريف بالله، فقال:

﴿رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون﴾ (الشعراء: ٢٨).

فقال فرعون:

﴿لئن اتخذت إلٰها غيرى لأجعلنك من المسجونين﴾ (الشعراء: ٢٩).

فقال موسى:

﴿أولو جئتك بشىء مبين!﴾ (الشعراء: ٣٠).

قال فرعون:

﴿فأت به إن كنت من الصادقين﴾ (الشعراء: ٣١).

وأتاه موسى بالمعجزة التى بهرت الناس، وآمن من أجلها السحرة وهى العصا التى تلقفت السحر، وكشفت الباطل، فهل آمن؟

* * *

وملاحظة أخرى فيما يتصل بقصة موسى وهارون:

إن الله سبحانه يقول:

﴿اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى﴾ (طه: ٤٢).

فيقرن الأمر بالدعوة إلى الله بالأمر بالذكر.

والله سبحانه يحث دائمًا على الذكر فى كل لحظة، ومن ذكر الله فى الرخاء ذكره الله فى الشدة.

وان من أنواع الذكر التى تنجى فى الشدائد تسبيح الله سبحانه، ولقد

قال سبحانه فى شأن ذى النون حينما ابتلعه الحوت:

﴿فلولا أنه كان من المسبحين، للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون﴾ (الصافات: ١٤٣ - ١٤٤).

وقال فى شأن أصحاب الجنة حينما طاف عليها طائف من ربك:

﴿قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون﴾ (القلم: ٢٨).

أما الاستغفار فإنه أمان من العذاب:

﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ (الأنفال: ٣٣).

وهو من عوامل السعة فى الرزق:

﴿استغفروا ربكم إنه كان غفارًا، يرسل السماء عليكم مدرارًا، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارًا﴾ (نوح: ١٠ - ١٢).

ويقول الله تعالى:

﴿يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرًا لعلكم تفلحون﴾ (الأنفال: ٤٥).

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عن ربه:

«إن عبدى -كل عبدى- الذى يذكرنى وهو ملاق قرنه».

وطلب فرعون من موسى آيات تثبت رسالته:

﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾ (الشعراء: ٣٢ - ٣٣).

وظن فرعون أن ذلك سحر، وأراد أن يجابه السحر فيما زعم بسحر مثله، فجمع كبار السحرة، وكانت حفلة المباراة التي حضرها فرعون وكبار رجال الدولة، وبذل السحرة ما استطاعوا.

لقد بذلوا جهد طاقتهم، وسحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم، قائلين:

﴿بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون﴾ (الشعراء: ٤٤).

فلما ألقوا حبالهم وعصيهم خيل إلى موسى أنها تسعى، فخاف أن يغتر الناس بسحرهم، وأن يكون هناك مؤامرة لا تمكنه من إلقاء عصاه، فسمع النداء الإلهي: ﴿لا تخف إنك أنت الأعلى، وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾ (طه: ٦٨ - ٦٩).

فألقى موسى عصاه قائلاً:

﴿ما جئتم به السحر، إن الله سيبطله، إن الله لا يصلح عمل المفسدين، ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون﴾ (يونس: ٨١ - ٨٢).

وإذا بعصا موسى تلقف ما يأفكون.

وذهل الناس حينما رأوا عصا موسى حية تلتهم الحيات، ولكن أشد الناس ذهولاً، وأكثرهم دهشة، كانوا هم السحرة.

لقد رأوا شيئًا ما هو بالسحر ولا بالشعوذة، رأوا شيئًا لا زور فيه ولا ضلال، رأوا ما لا يملك البشر الإتيان بمثله، فأعلنوا فى عزم وإصرار على الملأ فى وضح النهار:

﴿آمنا برب هرون وموسى﴾ (طه: ٧٠).

أعلنوا ذلك بعد أن خروا لله ساجدين: حمدًا وشكرًا، على أن هداهم للإيمان، وأبان لهم سبيل الحق، فكانت المفاجأة التى لم يكن ينتظرها أحد، كانت مفاجأة لفرعون وملئه، وكانت مفاجأة للشعب، وكانت مظهرًا كريمًا للشجاعة الأدبية.

أرأيت إلى قوم مستضعفين - وما كان السحرة بالنسبة لفرعون إلا مستضعفين - يقفون فجأة فى وجه طاغية يعلنون الحق الذى يدينون؟

إنهم يعلنون الحق مع علمهم بأنه سينكل بهم.

وأعلن الطاغية حكمه:

﴿آمنتم به قبل أن آذن لكم﴾ (طه: ٧١).

والطاغية يحب أن يشارك الله فى صفاته، وهو هنا يوجب الاستئذان حتى

فى مسائل الإيمان، وفيما تخفى السرائر.

ثم اتهمهم بالتآمر: أى اتهمهم بالخيانة العظمى قائلاً:

﴿إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون﴾ (الأعراف: ١٢٣).

وقال عن موسى عليه السلام:

إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فتآمرتم معه على إضلال العامة وانصرفتم عن الملك إلى موسى وهارون، ولابد من العقاب.

أما ما هو العقاب؟.. إنه [illegible]

﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابًا وأبقى﴾ (طه: ٧١).

وأجاب السحرة فى قوة لا تلين، قالوا:

لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات الواضحة، ولن نؤثرك على الذى فطرنا.

لقد تبين لنا الحق فاتبعناه، وآمنا بالله الذى فطرنا، فافعل ما أردت، واحكم فينا بما تهوى، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا وهى فانية، متاعها قليل، وأيامها محدودة:

﴿إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله

خير وأبقى، إنه من يأت ربه مجرمًا فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا، ومن يأته مؤمنًا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى، جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى﴾ (طه: ٧٣ - ٧٦).

لقد أنار الإيمان قلوبهم، وعمرت التقوى صدورهم ورأوا الحق واضحًا فاستمسكوا به، وتجلى عليهم الله بنور الإيمان فانقلبوا فى لحظات إلى رجال آخرين: إلى رجال مؤمنين، والمؤمن الحق يقول:

﴿إنا إلى ربنا منقلبون، وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرًا وتوفنا مسلمين﴾ (الأعراف: ١٢٥ - ١٢٦).

قال عكرمة والأوزاعى وغيرهما رضى الله عنهم:

لما سجد السحرة رأوا منازلهم وقصورهم فى الجنة تهيأ لهم، وتزخرف لقدومهم، ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون وتهديده ووعيده.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد قص علينا أمر سحرة فرعون فإن المسلمين قد حقق الكثير منهم أمثلة كريمة لإعلان إيمانه، ولا يبالون بما يصادفونه من عذاب وتنكيل.

أرأيت إلى بلال رضى الله عنه يعذب وينكل به، وهو لا يفتر عن قول أحد. أحد.

يقول ابن كثير فى سيرته:

وكان أمية بن خلف يخرجه إذا حميت الظهيرة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول له:

«لا والله، لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى»

فيقول وهو فى ذلك:

أحد أحد.

قال ابن اسحاق: فحدثنى هشام بن عروة عن أبيه قال:

كان ورقة بن نوفل يمر به وهو يعذب لذلك، وهو يقول: أحد. أحد، فيقول: أحد أحد والله يا بلال، ثم يقبل على أمية بن خلف ومن يصنع ذلك به من بنى جمح فيقول:

أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لأتخذنه حنانًا (أى لا تخذن قبره منسكا).

وهل قرأت تاريخ ياسر وسمية وعمار؟. هذه الأسرة التى أكرمها الله بالإيمان فأعلنته وأوذيت فى الله، فلم يثنها العذاب عن إيمانها.

قال ابن أسحاق:

وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه، وكانوا أهل

بيت إسلام إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة، فيمر بهم رسول الله صلى الله صلى الله عليه وسلم، فيقول - فيما بلغني:

«صبرا آل ياسر موعدكم الجنة».

وقد روى البيهقي، عن الحاكم، عن ابراهيم بن عصمة العدل، حدثنا السرى بن خزيمة، حدثنا مسلم بن ابراهيم، حدثنا هشام بن أبي عبيد الله، عن أبي الزبير، عن جابر، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بعمار وأهله يعذبون فقال:

«أبشروا آل عمار وآل ياسر، فإن موعدكم الجنة»، فأما أمه فيقتلونها فتأبى إلا الإسلام.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع عن سفيان عن منصور عن مجاهد قال:

«أول شهيد كان فى أول الإسلام استشهد أم عمار سمية، طعنها أبو جهل بحربة فى قلبها».

وإمام المسلمين فى الشجاعة الأدبية هو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومواقفه الكثيرة فى ذلك مشهورة، وقد ذكرنا بعضا منها فى كتابنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

* * *

أراد الله بالسحرة خيرًا فآمنوا، ولكن الملأ من قوم فرعون - أى

كبراء القوم وسادتهم - وقد رأوا أن ما يعظ به موسى لا يتسق وما هم فيه من الترف والشهوات أخذوا يحرضون فرعون على التنكيل به، وهذا شأن كل المترفين في كل زمان ومكان.

إن شهواتهم تسيطر عليهم، ومن أجل ذلك يتقربون للسلطان، يداهنونه ويتملقونه، وينحرفون به عن طريق الاستقامة، وذلك ليستمروا غارقين في شهواتهم وملذاتهم، وهكذا سارت الأمور مع فرعون في موقفه من موسى:

لقد صوروه بأنه مفسد في الأرض، فقال فرعون - وقد أوغروا صدره على موسى: ﴿ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾ (غافر: ٢٦).

وهكذا انقلبت الأمور مزيفة معكوسة.

ولكن ماذا كان موقف موسى؟.

لقد فعل ما يفعل الرسل والأنبياء والصالحون: إنهم يلجأون إلى الله، فهو دائماً في ذهنهم وقلبهم، لا يغفلون عنه، ولا يغيب عنهم.

لقد قال موسى في مواجهة ذلك:

﴿إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب﴾. (غافر: ٢٧).

ولكن العالم لا يخلو من عناصر الخير، وقد يوجد الخير فى بعض الأشخاص فى الوسط الذى يغص بالشر والإثم ، لقد كان فى الوسط الفرعونى رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه، وكان هذا المؤمن منطقيًا فى تفكيره، متزنًا فى قوله وسلوكه، فقال لهم فى منطق واضح هذه الكلمات الحكيمة:

﴿أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم، وإن يك كاذبًا فعليه كذبه وإن يك صادقًا يصبكم بعض الذى يعدكم إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب. يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا﴾. (غافر: ٢٨ - ٢٩).

وفى هذا الكلام قضايا:

إن موسى يقول: ربى الله. يقولها فى صدق، مضحيًا بنفسه فى سبيلها، ومن كان كذلك فإنه أمين لا يفسد فى الأرض بل يصلح فيها.

وصفات المؤمنين معروفة، منها أنهم:

﴿التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين﴾. (التوبة: ١١٢).

وهؤلاء جدير بأصحاب السلطان أن يقربوهم وأن يستشيروهم، فإنهم يشيرون بالخير وبما يرضى الله، فيقربون أصحاب السلطان من الله، وإذا

ما تقرب أصحاب السلطان من الله فإنه يرعاهم ويوفقهم ويتولاهم، فيدوم سلطانهم، وتسعد رعيتهم.

أما القضية الثانية فهى:

﴿وقد جاءكم بالبينات من ربكم﴾.

إن دعواه التى يدعو بها أيدها بالبراهين، إنه لم يلق كلامًا لا يؤيده.

لقد برهن عليه فهو إذن رجل صادق.

والقضية الثالثة هى:

﴿وإن يك كاذبًا فعليه كذبه﴾.

إن هذه القضية يؤيدها الوحى، ويؤيدها الواقع. إنه يقال: «على الباغى تدور الدوائر».. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«والذى نفس محمد بيده، ما من خدش عود، ولا عثرة قدم، ولا اختلاج عرق، إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر» (رواه ابن أبى حاتم).

والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ذلك بما قدمت أيديكم﴾. (الانفال: ٥١).

أى أن المصائب التى تصيب الإنسان إنما هى من صنعه هو، إنه إن كذب

فعليه كذبه، وإن سرق فعليه سرقته، وإن خان فعليه خيانته. وهكذا .. وهذا هو ما تعنيه هذه القضية.

أما القضية الرابعة فهي:

﴿وإن يك صادقًا يصبكم بعض الذى يعدكم﴾. (غافر: ٢٧).

إن الناصح إذا كان رسولاً، أو كان مجرد مؤمن مخلص، يوجه دائمًا إلى طريق الخير، فإذا خالفه قومه فهم يتجهون إلى طريق الشر فيصيبهم بعض ما أنذرهم به، وهذا مبدأ إلهي.

أما القضية الخامسة فهي:

﴿إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب﴾.

وهذه القضية هي نفس القضية التى قالها موسى عليه السلام للسحرة حينما وعظهم قائلاً:

﴿ويلكم لا تفتروا على الله كذبًا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى﴾. (طه: ٦١).

وهى نفس القضية التى قالها موسى وهارون عليهما السلام:

﴿إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى﴾. (طه: ٤٨).

إن الله وضح الخير والشر، ومن الخير الاقتصاد، ومن الخير الصدق،

فإذا ترك الإنسان الاقتصاد والصدق فإنه يكون قد انصرف عن طريق الهدى إلى طريق الضلال.

وهذه القضايا كلها إنما تندرج تحت قانون عام هو قوله تعالى:

﴿من عمل صالحًا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد﴾. (فصلت : ٤٦).

ثم قال مؤمن آل فرعون نصيحة فى غاية النفاسة يجب ألا يغفل عنها أى صاحب سلطان: صغر سلطانه أو كبر:

﴿ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ﴾.

وانظر معى أيها القارئ الكريم فى تعبير هذا المؤمن، إنه قال فى الملك (لكم الملك) ثم قال فى العذاب ينال الأمة: «فمن ينصرنا؟».

وفى هذا التعبير دقة دقيقة:

إن الذين يفسدون ويظلمون هم فئة قليلة نسبيًا، وهم هنا آل فرعون، ولكن العذاب إذا نزل فإنه يعم: «لكم» «ينصرنا».

إن «لكم» خاص، وإن «ينصرنا» عام، ومن هنا كان حديث السفينة: روى البخاري بسنده، عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

«مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا».

وروى الترمذى بسنده عن حذيفة رضى الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

«والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم».

وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال:

يأيها الناس، إنكم تقرأون هذه الآية:

﴿يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم﴾. وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه» (روه أحمد وأصحاب السنن وابن حبان).

إن الإنسان الذى يمتلئ قلبه بالخير لابد أن يبشر به، وإن مسئوليته لاتنتهى إلا إذا قام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر: يفعل ذلك بحسب مكانته فى المجتمع وسلطته فيه.

وعند هذا تدخل فرعون قائلاً:

﴿ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾. (غافر: ٢٩).

فقال الذى آمن مستدركًا:

﴿يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد، يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار، من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب. ويا قوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار. تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ماليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار. لاجرم أن ما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار، فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد﴾. (غافر: ٣٨-٤٤).

أما النتيجة لموقفه هذا فهى:

﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا﴾.

وأما النتيجة بالنسبة لآل فرعون فهى:

﴿وحاق بآل فرعون سوء العذاب﴾.

ويبدو أن فرعون وإن تظاهر فى الملأ بالقسوة، فإنه وصل إلى قلبه بعض

الخوف من أن يسيء إلى موسى فأرجأ العقاب وترك موسى حرا طليقًا إلى أن يتروى في الأمر.

وقال تعالى:

﴿ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقًا في البحر يبسا﴾ (طه: ٧٧).

وما من شك في أن موسى مكث عدة أيام يدبر أمر الإسراء: أي خروج اليهود من مصر ليلاً خفية.

ولكن من البديهي أنه أينما سار بهم موسى سيدركهم فرعون بجيشه، ولكن عناية الله التي تتولى الصالحين أدركته فقال لموسى في الوحي نفسه:

﴿فاضرب لهم طريقًا في البحر يبسًا﴾.

أي أنه سيستطيع في أسلوب معجز أن يجعل لهم طريقًا في البحر يعبرونه: طريقًا في الماء يكون طريقًا يبسًا، أي أنه سيسير في البحر على اليبس ثم يفصل البحر بين هؤلاء وهؤلاء، ثم قال سبحانه:

﴿لاتخاف دركًا ولا تخشى﴾.

وسار موسى مطمئنًا هادئًا في رعاية الله.

وجاء النبأ إلى فرعون فاتبعهم بجنوده، وأوشك أن يصل إليهم ورآه قوم موسى فقالوا:

﴿إنا لمدركون﴾.

فقال موسى وهو على علم بالتصريف الإلهى:

﴿كلا، إن معى ربى سيهدين﴾.

وإذا تأمل القارئ فى كلمة موسى فإنه يرى أنه قال: «معى» ولم يقل «معنا». والمعنى واضح:

إن الله معه، وهو تخصيص لا يحتمل التعميم.

ولعل القارئ يذكر فى هذا المقام ما قاله الله تعالى فى هجرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وكان معه أبو بكر رضى الله عنه:

﴿إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم﴾. (التوبة: ٤٠).

إنه هنا يقول «معنا»، إنه سبحانه مع كل مسلم صادق فى إسلامه.

وأدركهم فرعون فعلاً، ويقول القرآن الكريم معبراً عن ذلك:

﴿فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم وأضل فرعون قومه وما هدى﴾.

ولكن فرعون فى طغيانه وجبروته حينما أدركه الغرق عاد مؤمناً وقال:

﴿آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾. (يونس: ٩٠).

وكان مثله فى ذلك مثل الذين يقول الله تعالى عنهم:

﴿وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبًا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادًا ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار﴾ (الزمر: ٨).

ويقول:

﴿فإذا مس الإنسان ضر دعان ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هى فتنة ولكن أكثرهم لايعلمون﴾ (الزمر: ٤٩).

ويقول:

﴿هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين. فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون﴾. (يونس: ٢٢-٢٣).

وكان رد الله سبحانه:

﴿الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين، فاليوم ننجيك ببدنك

لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرًا من الناس عن آياتنا لغافلون﴾. (يونس: ٩١ - ٩٢).

ونجا موسى ومن معه ووصلوا إلى الشاطئ الثانى، وبمجرد أن وصلوا إلى الشاطئ الثانى وانتشروا يستريحون ويستجمون وجدوا قومًا هنا وهناك يعبدون آلهة من الأصنام.

وبمجرد أن شاهدوا ذلك قالوا لموسى:

﴿اجعل لنا إلها كما لهم آلهة﴾.

يقول سبحانه:

﴿وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون. إن هؤلاء متبر ماهم فيه وباطل ما كانوا يعملون﴾. (الأعراف: ١٣٨ - ١٣٩).

وهذا يدل على أن هؤلاء اليهود لم يكن عندهم فكرة صادقة عن الدين الحق فى أبسط مبادئه، وأنهم حينما كانوا فى مصر لم يكن عندهم شعور بالخلق الكريم، لأن الشعور بالخلق الكريم لا يتأتى إلا عن إيمان، عن قلب عامر بالإيمان.

ولأنهم لم يكن عندهم الإيمان الحق فإنه لايستغرب أن يعيثوا فى مصر فسادًا، وأن فرعون كان يستند على أسس قوية من فسادهم ومؤامراتهم

حينما تكل بهم. وطلبهم من موسى أن يجعل لهم آلهة أثار الحزن فى نفس رسول الله موسى عليه السلام فقال لهم:

﴿إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون﴾.

ولما نجاهم الله سبحانه ذكرهم بنعمه التى أسداها إليهم، وطلب إليهم الاستقامة فقال:

﴿يا بنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى، كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى، وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى﴾. (طه: ٨٠ - ٨٣).

ولقد كان تعقيب الله سبحانه وتعالى على هلاك فرعون قوله:

﴿كم تركوا من جنات وعيون، وزروع ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، كذلك وأورثناها قومًا آخرين، فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين﴾. (الدخان: ٢٥ - ٢٩).

ويذكر الإمام ابن كثير أنه لما خرج بنو اسرائيل من البحر إخذت أخت هارون الدف وضربت عليه، وخرج النساء فى أثرها كلهن بدفوف وطبول، وجعلت مريم ترتل لهن، ثم يقول:

...وضربها بالدف فى مثل هذا اليوم الذى هو أعظم الأعياد عندهم دليل على أنه قد كان شرع من قبلنا ضرب الدف فى العيد؟ وهو مشروع لنا

أيضًا فى حق النساء لحديث الجاريتين اللتين كانتا عند عائشة تضربان بالدف فى أيام منى، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مضطجع حوّل ظهره إليهن، ووجهه إلى الحائط، فلما دخل أبو بكر زجرهن وقال: أمزمور الشيطان فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

فقال: «دعهن يا أبا بكر فإن لكل قوم عيدًا وهذا عيدنا».

وهكذا يشرع عندنا فى الأعراس ولقدوم الغياب كما هو مقرر فى موضعه.

ولما انفصل موسى عن البحر ويمم وجهه شطر بيت المقدس علم موسى وقومه أن فى بيت المقدس قومًا جبارين فنكص قومه على أدبارهم، وحينما أمرهم موسى بدخول بيت المقدس محاربين لإخراج من فيها جبنوا جبنًا كاملًا، ويصور القرآن ذلك فى صورة تعبر عن بعض صفاتهم قائلًا:

﴿قالوا يا موسى إن فيها قومًا جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون. قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين، قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدًا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنّا هاهنا قاعدون، قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين، قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين﴾.
(المائدة: ٢٢ - ٢٥).

لقد كان عقاب الله سبحانه وتعالى لهم أن يتيهوا فى الأرض أربعين سنة، ثم قال لموسى عليه السلام:

﴿فلا تأس على القوم الفاسقين﴾.

وهذه القصة تبين الفرق بين أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وأصحاب موسى عليه السلام: لقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لمصادرة قافلة من قوافل قريش، وذلك لما كانت قريش تستولى على أموال المسلمين بكل طريقة، وتغتصبها ظلمًا وعدوانًا، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين معه أفلتت منهم القافلة، وواجهوا جيش قريش وهو أكثر منهم عدة وعددًا، لقد كانوا ثلاثة أمثالهم فى العدد وأضعافهم فى العدة، فماذا كان من أمر المسلمين؟

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن مخارق بن عبد الله الأحمس، عن طارق هو ابن شهاب. أن المقداد قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر:

«يا رسول، إنّا لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى: «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون».

وعن طارق بن شهاب قال: عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: لقد شهدت من المقداد مشهدًا لأن أكون أنا صاحبه أحب إلّى مما عدل

به: أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يدعو إلى قتال المشركين فقال:

والله يا رسول الله لا نقول لك كما قال بنو اسرائيل لموسى «اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا هاهنا قاعدون، ولكننا نقاتل عن يمينك وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك، فرأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرق لذلك وسُرّ بذلك».

ولما جاء دور الأنصار في الحديث ردًا على قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أشيروا على أيها الناس» قام سعد بن معاذ فقال:

«كأنك تُعرّض بنا يا رسول الله؟ فو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخصته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصبر فى الحرب، صدق فى اللقاء، لعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله».

فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد ونشّطه ذلك.

ولم تكن طبيعة اليهود تسمح بمثل ما سمحت به طبيعة أصحاب محمد فكان عقاب الله لهم.

* * *

وبعد فترة طالت أو قصرت أمر موسى بالاستعداد لمناجاة ربه، والاستعداد لهذا إنما هو نوع من التزكية التى تنتهى بالإنسان إلى صفاء يجعل المرء جديرًا بمناجاة ربه، ومنح موسى فترة تزكية هى: ثلاثون ليلة.

ولكن هذه الفترة لم تؤد إلى المستوى المطلوب فأتمها الله بعشر يقول سبحانه:

﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة﴾.

وسار موسى للمناجاة راجيًا أن يستنير فى أمر التكاليف والشعائر والمبادئ المتعلقة بصلة الإنسان بربه، وبصلته بالمجتمع.

صعد موسى عليه السلام الجبل للمناجاة، ويقول ابن كثير فى ذلك:

قال الله تعالى: ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا﴾. أى فى الوقت الذى أمر بالمجئ فيه، ﴿وكلمه ربه﴾ أى كلمه الله من وراء حجاب، إلا أنه أسمعه الخطاب فناداه وناجاه، وقرَّبه وأدناه، وهذا مقام رفيع، ومعقل منيع ومنصب شريف، ومنزل منيف، فصلوات الله عليه تترى، وسلامه عليه فى الدنيا والأخرى.

ولما أعطى هذه المنزلة العلية، والمرتبة السنية، وسمع الخطاب سأل رفع الحجاب، فقال للعظيم الذى لا تدركه الأبصار، القوى البرهان:

﴿رب أرنى أنظر إليك، قال لن ترانى﴾. ثم بين تعالى أنه لا يستطيع أن يثبت عند تجليه تبارك وتعالى، لأن الجبل الذى هو أقوى وأكبر ذاتًا وأشد ثباتًا من الإنسان، لا يثبت عند التجلى من الرحمن، ولهذا قال:

﴿ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى﴾.

ويخبر الله بعد ذلك عما كان فيقول:

﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله دكًا وخر موسى صعقًا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾. (الأعراف: ١٤٣).

وتاب موسى إلى الله فى صدق وإخلاص فأعطاه الألواح التى يقول الله سبحانه وتعالى عنها:

﴿وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلًا لكل شىء﴾. (الأعراف: ١٤٥).

وأمره سبحانه أن يأخذ بقوة فى العمل بما فيها ونشرها وتعميمها والقيام فى قومه على العمل بها. ثم بين الله سبحانه وتعالى له بعض قوانينه الإلهية قائلا:

﴿سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلًا وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلًا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين. والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾. (الأعراف: ١٤٦ - ١٤٧).

وكان فى الألواح الكلمات العشر وهى:

- الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له. والنهى عن الحلف بالله كذبًا. والأمر بالمحافظة على السبت، ومعناه تفرغ يوم من الأسبوع للعبادة.

وهذا حاصل بيوم الجمعة الذى نسخ الله به السبت.

أكرمْ أباك وأمك ليطول عمرك فى الأرض.

الذى يعطيك الله ربك..

لا تقتل..

لا تزن..

لا تسرق..

لا تشهد على صاحبك شهادة زور..

لا تمد عينك إلى بيت صاحبك، ولا تشته امرأة صاحبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئًا من الذى لصاحبك: ومعناه النهى عن الحسد.

وهذه الكلمات لها ما يماثلها فى كتاب الله سبحانه فى آيتين منه يقول الله تعالى:

﴿قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانًا ولاتقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولاتقربوا الفواحش ماظهر منها ومابطن ولاتقتلوا النفس التى حرم الله إلابالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون * ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لانكلف

نفسًا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصّاكم به لعلكم تذكرون﴾. (الأنعام: ١٥١-١٥٢).

وعاد موسى إلى قومه فإذا به يجد المأساة التى أخبره الله تعالى بها حين قال له:

﴿إنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى﴾.

وعبر القرآن عن شعور موسى بقوله:

﴿فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفًا﴾ (طه آية: ٨٥-٨٦).

لقد اتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسدًا، لقد صنعوه من الذهب الذى كان معهم، والذى سرقوه أو اختلسوه أو استعاروه من المصريين، صنعه لهم السامرى فى غيبة موسى عليه السلام.

لقد صنع لهم عجلًا جسدًا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى موسى هذا الإله وذهب يبحث عنه وهو هاهنا معهم.

ويقول الله سبحانه وتعالى:

﴿أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضرًا ولا نفعاً﴾ (طه آية: ٨٩).

ويقول سبحانه:

﴿ألم يروا أنه لايكلمهم ولايهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين﴾ (الأعراف-آية: ١٤٨).

وكان موسى – قبل ذهابه للمناجاة – قد استخلف على قومه هارون فلما اتخذوا العجل معبودًا لهم أخذ هارون عليه السلام يقول لهم:

﴿يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري﴾ (طه آية: ٩٠).

وكانوا يقولون له:

﴿لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى﴾ (طه آية: ٩١).

ولم تجد معهم نصائح هارون، لقد استضعفوه ولم يبالوا به.

وها نحن نرى هنا من جديد جهل اليهود المطلق بالشعور الديني الصادق، ونرى طمس بصيرتهم الروحية، لقد أحبوا أن يعبدوا إلها مجسدًا، ولو قال لهم موسى إنه إله لعبدوه، ولقد كانوا قريبي عهد ببيئة استخف ملكها قومه فأطاعوه، وقال لهم: ما علمت لكم من إله غيري، فعبدوه.

لم يكن عند اليهود الشعور الديني، ولم يكن عندهم العقل الذي يزن ويقدر ويعلم أن الإله لا يمكن أن يكون مجسدًا أو مصنوعًا صنعه الإنسان، كيف يصنع الإنسان مصنوعًا مركبًا يبلى على مر الزمن وينتهي ثم يعبده؟

ولم يكن عند اليهود ذوق، ولو كان هناك قليل من الذوق لما عبدوا عجلاً له خوار، وإن أرقى ما في الوجود الإنسان، ومع ذلك فإنه مركب مولود يبلى ويفنى شيئًا فشيئًا ثم يموت، وقد كان يمكن لليهود صنع إله على هيئة إنسان ثم يعبدونه، فيكون صنعًا أرقى من عجل مصنوع، وما من شك في أن العجل الحي أرقى من العجل المصنوع، ولو كان من ذهب، وآثر اليهود العجل المصنوع على العجل الحي، وآثروا العجل على الإنسان.

جاء موسى عليه السلام ليرى العجل، ويرى العابدين للعجل، وكانت ثورته في المبدأ على من استخلفه على قومه، على هارون عليه السلام، ويعبر القرآن الكريم عن ذلك في صورة طريفة، يقول سبحانه:

﴿ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفًا قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلاتشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين﴾ (الأعراف آية: ١٥٠).

ويقول سبحانه في ذلك أيضًا:

﴿قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا، ألا تتبعن أفعصيت أمري. قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي﴾ (طه آية: ٩٢-٩٤).

وهدأ موسى عليه السلام من ناحية أخيه وقال:

﴿رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين﴾ (الأعراف آية: ١٥١).

واتجه موسى إلى قومه قائلاً:

﴿ي قوم ألم يعدكم ربكم وعدًا حسنًا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى﴾؟(طه آية:٨٦).

وأعلن:

﴿إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين﴾ (الأعراف آية: ١٥٢).

وهذا - أى وكذلك نجزى المفترين - يصدق على كل انحراف يحدث فى دين، إنه يناله من الله غضب وذلة فى الحياة الدنيا، وهو فى الآخرة فى مقت الله.

أما قوم موسى فيتحدث الله عنهم قائلاً:

﴿ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين﴾ (الأعراف آية: ١٤٩).

وفتح الله باب التوبة، وهو سبحانه يفتح هذا الباب لكل من يلتجئ إليه فى اخلاص، وقال سبحانه فى ذلك.

﴿والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من

بعدها لغفور رحيم﴾ (الأعراف آية: ١٥٣).

بيد أن شخصية أخرى لم تنل شيئًا من الرفق: إنها شخصية صانع العجل.

واتجه موسى إليه في غضب قائلاً:

﴿فما خطبك ياسامري قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي. قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعدا لن تخلفه وانظر إلى إلٰهك الذي ظلت عليه عاكفًا لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفًا﴾ (طه آية: ٩٥).

ولكن كيف يعالج موسى الأمر فيما يتعلق بغضب الله؟ إنه سبحانه عفو غفور لمن تاب وأناب، وسلك موسى باب التوبة، باب التضرع إلى الله، فاختار سبعين رجلاً من قومه، منهم هارون ويوشع ليستغفروا الله عن بني إسرائيل الذين عبدوا العجل، يقول سبحانه:

﴿واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا﴾ (الأعراف آية: ١٥٥).

قال محمد بن اسحاق:

«اختار موسى من بني إسرائيل سبعين رجلاً: الخير فالخير، وقال: انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه بما صنعتم، وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم».

وأراد الله سبحانه وتعالى أن ينالهم بشيء من العقاب على عبادة العجل فأخذتهم الرجفة، وأفزعهم الأمر، فسارع موسى يدعو الله ويتضرع إليه.

﴿رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا، إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين، واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا إليك﴾ (الأعراف آية: ١٥٥-١٥٦).

إن موسى يتضرع إلى الله مبينًا الأمر - والله أعلم به - قائلاً: إنا جئنا تائبين ولو شئت سبحانك لأهلكتهم قبل السعى إلى التوبة، بل لو شئت لأهلكتنى معهم، فإنك لا تسأل عما تفعل، وحكمتك فوق كل حكمة.

لقد اتخذ العجل بعض السفهاء إلها وعبدوه، وجئنا نستغفر ونتوب، أو تهلكنا سبحانك بما فعل السفهاء منا؟

وما كانت عبادتهم إلا بقضاء منك وقدر، اختبارًا لهم وامتحانا، فما هى إذن إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى بها من تشاء.

وبدأ موسى عليه السلام فى التضرع والدعاء قائلاً:

﴿أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين، واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا إليك﴾ (الأعراف آية: ١٥٥-١٥٦).

يقول ابن عباس وغيره: «أى تبنا إليك ورجعنا وأنبنا».

وقال الله سبحانه فى عظمة وجلال ورحمة:

﴿عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾.

والواقع أن مسألة رحمة الله التى وسعت كل شىء لها مجالها الكبير فى الإسلام، وإن من أجمل ما قرأت فى آدابنا الإلهية ما رواه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه:

يا ابن آدم، مرضت فلم تعدنى.

قال: يارب: كيف أعودك وأنت رب العالمين؟.

قال: أما علمت أن عبدى فلاناً مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده؟

يا ابن آدم، استطعمتك فلم تطعمنى.

قال: يارب، كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟!

قال: أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى؟

يا ابن آدم، استسقيتك فلم تسقنى؟

قال: يارب، وكيف أسقيك وأنت رب العالمين؟

قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي (رواه مسلم).

وللحديث عن الرحمة مجالات نتحدث عنها فيما بعد.

وقد تتساءل: لمن سيكتب الله رحمته؟

إنه سبحانه بين ذلك، وذكر أنه سيكتبها لمن تتوافر فيهم شروط:

وأولها: الذين يتقون.

ولقد سئل أحد الصحابة عن التقوى فقال للسائل:

أما سرت في مكان فيه شوك؟

قال: بلى سرت.

قال: فما فعلت؟

قال: شمرت واجتهدت.

قال: فذلك التقوى.

إنها تشمير عن السيئات واجتهاد في الطاعات.

ويؤتون الزكاة: وهذا هو الشرط الثاني: إنه أداء الزكاة، والزكاة تطهير للمال، وتطهير للنفس، يقول تعالى:

﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾ (التوبة آية: ١٠٣).

ومن طريف ما يروى أن كثيرين من العلماء سئلوا عن قوله تعالى:

﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ماكنزتم لأنفسكم فذوقوا ماكنتم تكنزون﴾ (التوبة آية: ٣٤-٣٥).

فكانوا يجيبون: أن المال المزكى لا يقال عنه أنه مكنوز أو كنز.

والزكاة هنا إنما هى رمز لبقية الفروض.

ثالثا: ﴿والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾ وما من شك فى أن العمل الذى لا يكون صادرًا عن الإيمان لا قيمة له، والله سبحانه وتعالى يقول عن المشركين وأعمالهم:

﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوًا كبيرًا. يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورًا، وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورًا﴾ (الفرقان آية: ٢١-٢٣).

ثم نوه الله سبحانه وتعالى فى هذا المقام بمحمد صلى الله عليه وسلم وبأتباعه:

يقول صاحب كتاب «محاسن التأويل»: قال العلامة البقاعى: «لما تراسلت الآى، وطال المدى فى أقاصيص موسى عليه السلام،

وبيان مناقبه العظام، ومآثره الجسام، وكان ذلك ربما أوقع فى بعض النفوس أنه أعلى المرسلين منصبًا، وأعظمهم رتبة، ساق سبحانه هذه الآيات هذا السياق، على هذا الوجه الذى بين أعلاهم مراتب، وأزكاهم مناقب، الذى خص برحمته من يؤمن به من خلقه، قوة أو فعلاً، وجعل سبحانه ذلك فى أثناء قصة بنى إسرائيل اهتمامًا به وتعجيلاً له، مع ما سيذكر مما يظهر أفضليته، ويوضح أكمليته، بقصته مع قومه فى مبدأ أمره وأوسطه ومنتهاه، فى سورة «الأنفال» و«براءة» بكمالها.

وإن من المؤمنين بآيات الله الذين سيكتب سبحانه رحمته لهم هؤلاء الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى حدثهم الله سبحانه وتعالى عنه فى التوراة الصادقة التى أنزلها على موسى عليه السلام، وفى الإنجيل الذى أنزله على عيسى عليه السلام.

وما من شك فى أن كتب الله ورسله يبشرون بأشياء تحدث فى المستقبل. وينذرون بأشياء يجب أو ينبغى أن تتحاشى فى المستقبل.

من هذه البشارات ما بشر به الله سبحانه فى التوراة والإنجيل بمحمد صلى الله عليه وسلم.

وهو سبحانه يذكر أيضًا بشارات بعض ما سيقوم به بإذن الله، ومنها: ﴿يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر﴾.

وقد كان صلوات الله وسلامه عليه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بقوله وفعله، ومن قوله فى الحث على ذلك:

«والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذنّ على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرًا، ولتقصرنه على الحق قصرًا أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعننكم كما لعنهم» رواه أبو داود والترمذى وقال حديث حسن.

ومن ذلك أيضًا قوله صلى الله عليه وسلم:

«ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم أنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل» رواه مسلم.

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم:

«من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» (رواه مسلم).

والقرآن الكريم يقول:

﴿لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾ (والآية من سورة المائدة: ٧٨-٧٩).

ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث.

ولقد اهتم الإسلام بذلك بشدة.

وانظر إلى البيعة.. بيعة المسلمين لرسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام.

عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وحوله عصابة من أصحابه:

«بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئًا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا فى معروف. فمن وفّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب فى الدنيا فهو كفارة له ومن أصاب من ذلك شيئًا ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه. فبايعناه على ذلك» رواه البخارى.

ويقول الله سبحانه:

﴿يأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لايشركن بالله شيئا ولايسرقن ولايزنين ولايقتلن أولادهن ولايأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولايعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم﴾ (الممتحنة آية: ١٢).

وانظر على الخصوص فى قوله تعالى: **﴿ولايعصينك فى معروف﴾**. وقول الصحابى رضى الله عنه: ولانعصى فى معروف.

إن الأمر ليس أمر طاعة مطلقة وإنما هى الطاعة فى المعروف، إنها طاعة محددة بالمعروف. والله طيب لا يقبل إلا طيبًا، روى ابن مردويه بسنده عن ابن عباس قال:

تليت هذه الآية عند النبى صلى الله عليه وسلم ﴿يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالاً طيبًا﴾ فقام سعد بن أبى وقاص فقال: يارسول الله ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة، فقال: ياسعد، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذى نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه مايتقبل منه أربعين يومًا، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به».

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

أيها الناس، إن الله طيب لايقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحًا إنى بماتعملون عليم﴾.

وقال:

﴿يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم﴾.

ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يارب، يارب ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذى بالحرام، فأنى يستجاب له؟

وتحريم الخبائث فى الإسلام باب طويل مستفيض.

﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم﴾.

يقول الإمام جمال الدين القاسمى عن ذلك:

إشارة إلى أنه صلى الله عليه وسلم جاء بالتيسير والسماحة، كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

«بعثت بالحنيفية السمحة».

وقال صلى الله عليه وسلم لأميريه معاذ وأبى موسى رضى الله عنهما لما بعثهما إلى اليمن.

(بشروا ولاتنفروا، أو يسرا ولاتعسرا، وتطاوعا ولاتختلفا).

والإصر: هو مايشق على الإنسان من الأعمال والتكاليف.

ثم تحدث سبحانه عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعما يجب بالنسبة له فقال تعالى:

﴿فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾ (الأعراف آية: ١٥٧).

والإيمان بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من الأمور التى لها أسباب وعلل واضحة، وذلك:

١ - لأنه الرسول الوحيد الذى حفظت آثاره، وحفظ الكتاب الذى

أرسل به فى صورة لا تقبل الشك، والرجوع إليها رجوع إلى معروف صادق من التاريخ، والبحث فيها ميسور لا صعوبة فيه.

٢ - ولأن سيدنا محمدًا صلى الله عليه وسلم كان يلتزم ما يأمر به، بل ويزيد عليه.. لقد كان يصلى أكثر مما يصلى الآخرون. ويصوم أكثر مما يصوم الآخرون، وكان ينفذ كل القواعد التى أمر ببنائها وينتهى عن كل المنهيات التى ينهى عنها.

٣ - ولقد أتى القرآن بالأدلة العقلية التى تثبت نبوته، فأخذ منها المؤلفون فى دلائل النبوة المنهج والموضوع الذى ساروا عليه.

٤ - لقد أتى بمعجزات حسية كثيرة، بيد أن المعجزة الكبرى له إنما كانت القرآن: كتاب الهداية الأكبر، كما أنه كتاب العربية الأكبر، إنه الكتاب الذى يأمر بالتى هى أقوم: فى الأخلاق والعقيدة والتشريع ونظام المجتمع.

٥ - كان صلى الله عليه وسلم بحياته كلها مثلًا للكمال الإنسانى فى أعلى ذروة من ذراه، وكان مع الله دائمًا فى كل تصرفاته، ولم تؤثر عنه كذبة. ولقد كان يمثل الصدق فى أتم صورة[١].

---

(١) ولقد ألفنا كتابًا كاملًا عن دلائل النبوة أوضحنا فيه فى أسلوب واضح دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم.

بقرة بنى إسرائيل

قال تعالى:

﴿وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوًا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين. قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى قال إنه يقول إنها بقرة لافارض[1] ولابكر عوان[2] بين ذلك فافعلوا ماتؤمرون. قالوا ادع لنا ربك يبين لنا مالونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع[3] لونها تسر الناظرين. قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى، إن البقر تشابه علينا، وإنا إن شاء الله لمهتدون. قال إنه يقول إنها بقرة لاذلول[4] تثير الأرض ولاتسقى الحرث مسلمة لاشية[5] فيها قالوا الآن جئت بالحق، فذبحوها وماكادوا يفعلون. وإذ قتلتم نفسا

---

(١) أى لا كبيرة هرمة، ولا صغيرة: أى لم يطرقها فحل.
(٢) وسط بين الكبيرة والصغيرة أقوى ما يكون من الدواب.
(٣) أى شديدة الصفرة تكاد من صفرتها تبيض.
(٤) غير مرهقة بالعمل كالحراثة وسقى الأرض.
(٥) ليس فيها لون غير لونها سالمة من العيوب.

فادّارأتم[1] فيها والله مخرج ماكنتم تكتمون، فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾ (البقرة آية: ٦٧-٧٣).

روى ابن جرير بسنده - عن ابن عباس رضى الله عنهما قال:

«لو أخذوا أدنى بقرة لاكتفوا بها، ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم».

وقال ابن جرير: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إنما أمروا بأدنى بقرة، ولكنهم لما شددوا شدد الله عليهم، وأيم الله لو أنهم لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد».

ولم يهتد بنو إسرائيل إلى البقرة المطلوبة إلا حينما سلموا أمورهم إلى الله طالبين الهداية: عن أبى هريرة رضى الله عنه قال:

«لولا أن بنى إسرائيل قالوا ﴿وإنا إن شاء الله لمهتدون﴾ لما أعطوا ولكن استثنوا» وفى رواية عنه قال:

«لولا أن بنى إسرائيل قالوا ﴿وإنا إن شاء الله لمهتدون﴾ ما أعطوا أبدًا، ولو أنهم اعترضوا بقرة من البقر فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكن شددوا فشدد الله عليهم».

---

(١) اختصمتم.

موسى عليه السلام يطلب العلم

قال الله تعالى:

﴿وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا. فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سربًا، فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبًا، قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجباً، قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصًا، فوجدا عبدًا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علمًا، قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا، قال إنك لن تستطيع معى صبرا، وكيف تصبر على مالم تحط به خبراً، قال ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا، قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرًا، فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرًا قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرًا، قال لاتؤاخذنى بمانسيت ولاترهقنى

من أمرى عسرًا، فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله، قال أقتلت نفسًا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرًا، قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا، قال إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا، فانطلقا حتى إذا أتيا أهل القرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارًا يريد أن ينقض فأقامه قال لوشئت لاتخذت عليه أجرًا. قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرًا. أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبًا. وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانًا وكفرًا. فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرًا منه زكاة وأقرب رحمًا. وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحًا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ومافعلته عن أمرى ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرًا﴾ (سورة الكهف: ٦٠-٨٢).

وروى البخارى: «باب قول: وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبًا - زمانًا - وجمعه أحقاب».

حدثنا الحميدى، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو بن دينار قال: أخبرنى سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: أن نوفا البكالى يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بنى إسرائيل. فقال ابن عباس: كذب عدو الله، حدثنى أبى بن كعب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

إن موسى قام خطيبًا فى بنى اسرائيل، فسئل، أى الناس أعلم؟ قال أنا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه.. إن لى عبدًا بمجمع البحرين هو أعلم منك.

قال موسى، يارب فكيف لى به؟

قال: تأخذ معك حوتا فتجعله فى مِكْتل، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم، فأخذ حوتًا فى مكتل ثم انطلق، وانطلق معه بفتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رأسيهما فناما، واضطرب الحوت فى المكتل فخرج منه فسقط فى البحر فاتخذ سبيله فى البحر سربًا، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبًا.

قال: ولم يجد موسى النَّصَب حتى جاوز المكان الذى أمر الله به، فقال له فتاه: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجباً.

قال: فكان للحوت سربًا، ولموسى ولفتاه عجبًا.

فقال موسى: ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً.. قال: رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجى ثوباً، فسلم عليه موسى، فقال الخضر، وإنى بأرضك السلام.

قال: أنا موسى.

قال: موسى بنى اسرائيل؟

قال: نعم، أتيتك لتعلمنى مما علمت رشدًا.

قال: إنك لن تستطيع معى صبرًا ياموسى، إنى على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمك الله لا أعلمه.

فقال موسى: ستجدنى إن شاء الله صابرًا ولا أعصى لك أمرًا فقال له الخضر: فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرًا. فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة، فكلماهم أن يحملوهما، فعرفوا الخضر فحملوه بغير نوْل، فلما ركبا فى السفينة لم يفاجأ إلا والخضر قد خلع لوحًا من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى: قوم حملونا بغير نوْل عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئًا إمرًا! قال: ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرًا. قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرًا. قال: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وكانت الأولى من موسى نسيانًا.

قال: وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة، فنقر فى البحر نقرة، فقال له الخضر: ماعلمى وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر.

ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر

غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده، فاقتلعه بيده، فقتله.

فقال له موسى: أقتلت نفسًا زكية بغير نفس لقد جئت شيئًا نكرًا.

قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرًا.

قال: وهذه أشد من الأولى.

قال: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرًا.

فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارًا يريد أن ينقضّ قال: مائل، فقام الخضر فأقامه بيده، فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا، لو شئت لاتخذت عليه أجرًا.

قال: هذا فراق بيني وبينك - إلى قوله - ما لم تستطع عليه صبرًا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما.

داود

عليه السلام

ابتداء ظهوره:

أغار الغزاة على بنى اسرائيل فقتلوا منهم خلقًا كثيرًا، وسبوا نساءهم، ويتموا أطفالهم، فجاءوا إلى نبيهم الذى كان بينهم ثائرين قائلين:

ابعث لنا ملكًا نوليه علينا فتكون له القيادة والزعامة، ويجمع كلمتنا على قتال الأعداء الذين أذلونا وقتلوا منا الكثير.

وكان نبيهم على علم بجبنهم وتخاذلهم، فقال لهم مثبتًا:

أحقًا ستقاتلون إن كتب عليكم القتال وأصبح الأمر جدًا؟ فأجابوه مؤكدين قائلين:

﴿وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾ (البقرة: ٢٤٦)

ولكن ظن نبيهم فيهم كان صادقًا، فإنه بمجرد أن كتب عليهم القتال

تولوا إلا قليلاً منهم. ويعقب الله على ذلك بقوله تعالى: والله عليم بالظالمين.

وبيان الأمر أن نبيهم أعلن لهم أن الله قد بعث لهم (طالوت) ملكاً، فجادلوا مباشرة فى الأمر، ومن طبعهم الجدال، وقالوا: كيف يكون له الملك علينا؟

إننا أحق بالملك منه. على أنه ليس بغنى، إنه لم يؤت سعة من المال. وكان تقديرهم للمال كبيرًا كما هو د ئمًا، هذا الطبع الذى يعبد المال ويتخذ من الذهب إلهًا.

ولم يشأ نبيهم أن يجاريهم فى الجدل. فقال فى صورة حاسمة:

﴿إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم، والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم﴾ (البقرة: ٢٤٧).

وقال لهم نبيهم أيضًا: إن من علامات ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون تحمله الملائكة إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين.

وسار (طالوت) بالجنود لحرب الأعداء، وأحب طالوت أن يجرى تجربة ليرى مدى استعداد بنى اسرائيل للحرب، فقال لجنوده:

﴿إن الله مبتليكم بنهر﴾ (البقرة: ٢٤٩).

قال ابن عباس رضى الله عنه:

(هو نهر الأردن، وهو المسمى بالشريعة).

﴿فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده﴾ (البقرة: ٢٤٩).

كان هذا اختبارًا، وسقط فى هذا الاختبار الكثير، يقول تعالى:

﴿فشربوا منه إلا قليلاً منهم﴾ (البقرة: ٢٤٩).

لقد تعمدوا أن يشربوا حتى لا يذهبوا إلى قتال، وحتى يرجعوا دون جهاد، فقد طبعوا على الجبن، والله تعالى يقول عنهم:

﴿لا يقاتلونكم جميعًا إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعًا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾ (الحشر: ١٤)

ولقد أصبحت الطائرات بالنسبة لهم هى القرى المحصنة، أو هى الجدر التى يختبئون وراءها، أما الحرب وجهًا لوجه فإنهم أجبن من أن يمارسوها.

والتقى الجيشان، وبرز جالوت مناديًا للقتال، فخرج إليه «داود» عليه السلام - وكان جنديًا فى الجيش ولم يشرب من النهر.

﴿وقتل داود جالوت﴾.

وحينما جاء وقت النبوة:

﴿آتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء﴾.

ويعقب الله سبحانه على ذلك كله بقوله:

﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾.

ويقص الله سبحانه وتعالى ذلك كله فى القرآن الكريم قائلاً:

﴿ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكًا نقاتل فى سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألاتقاتلوا قالوا ومالنا ألانقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين. وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكًا، قالوا: أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه، ولم يؤت سعة من المال، قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم، والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم. وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين. فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده، فشربوا منه إلا قليلاً منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لاطاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده، قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين. ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا

ربنا أفرغ علينا صبرًا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين. فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء﴾ (البقرة: ٢٤٧-٢٥١).

لقد قتل داود جالوت، وانهزم جيش جالوت، فتطلعت الأعين إلى داود، وهفت إليه الأفئدة، وعظم فى أعين الاسرائيليين، فولوه عليهم ملكًا.

وقوله تعالى: **﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾** إنما يعنى والله أعلم - أنه لولا إقامة الله تعالى للحكام الذين يعملون على استتباب الأمن وإنصاف المظلومين وفرض العدالة، لولا ذلك لفسدت الأرض لأن غرائز الملك والسيطرة والاستعباد تجعل القوى يأكل الضعيف، ويغتصب القادر أموال غير القادر، وهكذا.

ومن هنا كان قول سيدنا عثمان رضى الله عنه:

«إن الله ليزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن».

ومن هنا كانت الحكمة:

(السلطان ظل الله فى أرضه).

نعم الله على داود:

كان داود نبيًا ملكًا، ولقد آتاه الله من هباته ونعمه الكثير، من ذلك: أنه كان رسولاً صاحب كتاب: إنه الزبور، وهو كتاب من كتب الله المنزلة.

وإذا كان إبراهيم عليه السلام أوتى صحفًا، وأوتى موسى عليه السلام الألواح فيها التوراة، فإن داود أوتى الزبور، وآتاه الله سبحانه صوتًا جميلاً، وهو منحة فى غاية النفاسة، وجمال الصوت عند داود ليس على المعنى العادى الآلى فى الأنغام والألحان ونسبها المحددة ليخرج الصوت جميلاً.

لقد كان هذا عند داود، ولكن صوت داود كان له طابع آخر هو الذى أعطى له تلك النفاسة الهائلة التى كانت له.

إن الأصوات الجميلة تمتزج بأرواح قائليها، وكلما صفت الروح، وكلما تركت النفس وامتزجت بالغناء والترتيل، كان الصوت أجمل، وكانت جاذبيته أقوى.

وكلما كان الشعور مرهفًا، وكان الحس متأثرًا بما يقال، كان الصوت أكثر تأثيرًا.

وما كان داود يشعر بنفسه وهو يرتل الزبور ويتغنى به، وإنما كان فانيًا فيما يعبر عنه من كلمات الزبور.

إنه كان مستغرقًا فى الزبور - أى أنه كان مع الله وهو يتغنى بكلمات الكتاب المقدس - بل لقد كان فانيًا فى الله جل جلاله، لقد كان يتغنى ويبكى، لقد كان زبورًا مترنمًا، فكان لحنًا ربانيًا.

يعبر القرآن - فى صور جميلة - عن تأثير داود البالغ أثناء تغنيه، وهو سبحانه يسمى ذلك تسبيحًا، فيقول:

﴿إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق، والطير محشورة كل له أواب﴾.(ص: ١٨-١٩).

ويقول سبحانه:

﴿يا جبال أوبي معه والطير﴾ (سبأ: ١٠).

ويقول سبحانه:

﴿وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين﴾ (الأنبياء: ٧٩).

ولقد تابع المفسرون القرآن الكريم فى الحديث عن صوت داود عليه السلام، فيقول الأوزاعى:

حدثنى عبد الله بن عامر قال: «أُعطى داود من حسن الصوت مالم يعط أحد قط، حتى أن كان الطير والوحش يتعكف حوله حتى يموت عطشًا وجوعًا، وحتى أن الأنهار لتقف».

ويقول الإمام ابن كثير:

«وذلك أنه كان الله تعالى قد وهبه من الصوت العظيم ما لم يعطه أحد، بحيث أنه كان إذا ترنم بقراءة كتابه يقف الطير فى الهواء يرجع بترجيعه، ويسبح بتسبيحه، وكذلك الجبال تجيبه وتسبح معه كلما سبح بكرة وعشيًا، صلوات الله وسلامه عليه.

وعن عائشة رضى الله عنها قالت:

سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوت أبي موسى الأشعرى وهو يقرأ فقال:

«لقد أوتى أبو موسى من مزامير آل داود».

وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«لقد أعطى أبو موسى من مزامير داود».

وتغنى داود بالزبور جعل الفقهاء يتساءلون:

يقول عبد الرازق ناقلا عن ابن جريج قال:

سألت عطاء من القراءة على الغناء، فقال:

وما بأس بذلك؟

وهبة أخرى من هبات الله سبحانه لداود يعبر عنها القرآن بقوله:

﴿وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون﴾ (الأنبياء: ٨٠)

لقد علمه الله سبحانه صناعة الدروع لتقى المحاربين من سهام الأعداء.

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿وألنا له الحديد، أن اعمل سابغات وقدّر فى السرد واعملوا صالحًا إنى بما تعملون بصير﴾ (سبأ: ١٠-١١).

ويقول عكرمة ومجاهد وغيرهما فى قوله تعالى:

﴿وقدّر فى السرد﴾.

أى لا تدق المسمار فيفلق، ولا تغلظه فينفصم.

ومعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى علمه صناعة الدروع فى إجمالها وفى تفاصيلها، وكانت صناعة الدروع مهنته التى كان يتكسب منها لعيشه، وهو رغم ما كان فيه من ملك وأبهة، ورغم ما كان تحت يده من مال كثير، كان يعيش من عمل يده.

ولقد ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم كمثل كريم للكسب الحلال. فقال:

«إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن نبى الله داود كان يأكل من كسبه»، (رواه البخارى بنحوه)

ولقد أوجب الإسلام فى الكسب أن يكون من حلال، وحث على ذلك بشتى الطرق، ومن ذلك ما رواه ابن مردويه - بسنده - عن ابن عباس قال:

«تليت هذه الآية عند النبى صلى الله عليه وسلم ﴿يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالاً طيباً﴾ فقام سعد بن أبى وقاص فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة، فقال:

«يا سعد، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذى نفس محمد بيده

إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه أربعين يومًا، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به».

وما رواه أحمد ومسلم والترمذى - بسندهم - عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال **﴿يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحًا إنى بماتعملون عليم﴾** وقال: **﴿يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم﴾** ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يارب، يارب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذى بالحرام فأنى يستجاب لذلك»؟

ومن الهبات التى منحها الله لداود عليه السلام هبة القوة، يقول سبحانه:

﴿واذكر عبدنا داود ذا الأيد﴾ (ص ١٧)

والأيد: القوة.

لقد كان داود عليه السلام قويًا فى كل ما يأتى من الأمور.

لقد كان قويا فى أمور العبادة، وهذا هو المراد هنا على ما ذكره أكثر المفسرين:

فى الصلاة والصيام وغيرهما، وقد ورد فى الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يومًا ويفطر يومًا، ولا يفر إذا لاقى» رواه أحمد والشيخان وأبو داود والنسائى.

وكان قويًا فى بكائه - إن صح هذا التعبير - حينما كان يرتل الزبور وكان قويا فى السيطرة على مملكته ومن أجل ذلك يقول الله تعالى عنه:

﴿وشددنا ملكه﴾.

أما العقل والمنطق فيقول الله عنه:

﴿وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾ (ص: ٢٠)

وهذا من القوة.

وهو الذى قتل جالوت، وكان جالوت جبارًا قويا.

قضاؤه فى الخصومة:

أما ما نحب أن ننبه إليه فهو القصة التى قصها الله سبحانه وتعالى بقوله:

﴿وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب، إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا

بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط، إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجةٌ واحدة فقال أكفلنيها وعزّنى فى الخطاب. قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيرًا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم، وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخرّ راكعًا وأناب، فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾ (ص ٢١-٢٥).

لقد كان داود - عليه السلام - يعتكف أحيانًا، ويترك أمر الملك دون تصريف، وللناس مصالح، وعلى الملك للجمهور تبعات، وبينما هو معتكف إذ دخل عليه رجلان، واشتكى أحدهما من الآخر، وفصل داود بينهما، فلما ذهبا فكر داود فى الأمر، وظن أن الله سبحانه وتعالى فتنه بأن حبب إليه الاعتكاف حتى بلغت حاجة الناس إليه أن تسوروا عليه المحراب، وظن داود أنه أساء إساءة بالغة فأخذ فى الاستغفار، وخر راكعًا وأناب، يقول تعالى:

﴿فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾

يقول الإمام جمال الدين القاسمى:

«وفى قضائه عليه السلام - هذا من الحكمة وفصل الخطاب مايهيج الأفئدة، ويقر عين المغبون، ذلك أنه صدع بالحق أبلغ صدع، فجهر بظلم خصمه وبغيه جهرًا لا محاباة فيه ولا مواربة، فأقر عين المظلوم، وعرف الباغى ظلمه وحيفه، وأن سيف العدل والإنصاف فوقه، ثم نفّس عن قلب

المظلوم البائس، وروّح عن صدره بذكر ما عليه الأكثر من هذه الخلة - خلة البغى وعدم الإنصاف - مع الخلطة والخلة، ليتأسى ويتلى كما قيل: «إن التأسى روح كل حزين»، ثم أكد الأمر بقلة القائمين بحقوق الأخوة ممن آمن وعمل صالحًا، فكيف بغيرهم؟.. وكمها حكم وغرر ودرر حقائق تنطبق على أكثر هذا السواد الأعظم من الناس، الذين يدعون المحبة والصداقة، ولعظم شأن حقوق المحبة أسهب فى آدابها علماء الأخلاق إسهابًا نوعوا فيه الأبواب، ولوّنوا فيه الفصول، ومع ذلك لا تزال الشكوى عامة، وقد امتلأت من منظومها ومنثورها كتب الأدب، كما لا يخفى على من له إلمام به وبالله التوفيق».

﴿وظن داود أنما فتناه﴾ أى ابتليناه بتلك الحكومة. فاستغفر ربه وخر راكعًا وأناب ﴿فغفرنا له ذلك﴾ أى ما استغفر منه ﴿وإن له عندنا لزلفى﴾ أى لقربى ﴿وحسن مآب﴾ أى مرجعًا حسنًا وكرامة فى الآخرة.

داود والعدالة:

يقول تعالى:

﴿ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾ (ص: ٢٦)

ولقد تحدث القرآن الكريم، وتحدث الرسول صلى الله عليه وسلم

والصحابة وعلماء الإسلام بالكثير، يقول تعالى فى العدالة مع الأعداء فضلاً عن الأولياء والمؤمنين:

﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا﴾ (المائدة: ٢)

ويقول:

﴿يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولايجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ (المائدة آية: ٨).

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يقسطون فى أهليهم وحكمهم وما ولوا» (رواه مسلم).

وعن أبي سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلسًا: إمام عادل، وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذابًا: إمام جائر» (رواه أحمد والترمذى).

من حِكَمه:

ولقد روت كتب التفسير وكتب التاريخ شيئًا من حِكَمه، من ذلك

ما رواه عبد الله بن المبارك فى كتاب الزهد: أنبأنا سفيان الثورى، عن رجل، عن وهب بن منبه قال:

«إن فى حكمة آل داود: حق على العاقل ألا يغفل أربع ساعات: ساعة يناجى فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يصغى فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه، ويصدقونه عن نفسه، وساعة يخلى بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل، فإن هذه الساعة عون على هذه الساعات، وإجمام للقلوب، وحق على العاقل أن يعرف زمانه، ويحفظ لسانه، ويقبل على شأنه، وحق على العاقل ألا يظعن إلا فى إحدى ثلاث: زاد لمعاده، ومرمة لمعاشه، ولذة فى غير محرم».

ومن حكمه أيضًا:

«يا زارع السيئات، أنت تحصد شوكها وحسكها».

وعن ابن شهاب قال: قال داود:

«الحمد لله كما ينبغى لكرم وجهه وعز جلاله، فأوحى الله إليه: إنك أتعبت الحفظة يا داود».

ومن أجل ما روى عن داود عليه السلام ما رواه أبو عمران الجونى عن أبى الجلد قال:

قرأت فى مسألة داود عليه السلام أنه قال: يارب كيف أشكرك وأنا لا أصل إلى شكرك إلا بنعمتك؟

قال: فأتاه الوحى أن يا داود، ألست تعلم أن الذى بك من النعم منى؟

قال: بلى يارب.

قال: فإنى أرضى بذلك منك.

سـليمان

عليه السلام

نسير - إن شاء الله - مع القرآن الكريم فى سورة (ص) فى حديثه عن سليمان عليه السلام، يقول سبحانه:

﴿ووهبنا لداود سليمان - نعم العبد - إنه أواب﴾

وقوله سبحانه: ﴿إنه أواب﴾- أى كثير الرجوع إلى الله، والرجوع إلى الله يكون قبل العمل، وفى أثناء العمل، وبعد العمل - أى الرجوع إلى الله بالاستخارة وإخلاص النية قبل العمل، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» (رواه البخارى وغيره).

أما فى أثناء العمل فإن الأواب لا يأخذ أعماله على أنها وسائل حتمية

مؤدية إلى نتيجة لاشك فيها، وإنما يأخذ الأمر على أنه يرجع إلى الله هداية وتوفيقًا.

﴿إليه يرجع الأمر كله﴾.

وأما النتيجة فإنها بيد الله، إليه المصير.

وما من شك فى أن الإحكام والإتقان وعمل كل ما يمكن من أجل النجاح مطلوب بل واجب، ولكن ذلك شىء واعتقاد أن الأمر كله لله وبالله شىء آخر.

كان سليمان أوابًا.

وفى يوم من الأيام أخذ يستعرض خيله الصافنات الجياد. أى التى بلغ من قوتها ومهارتها أنها تقوم على طرف سنبك يد أو رجل، وكلها جيدة سريعة فى جريها.

استغرق سليمان عليه السلام فى هذا الاستعراض منشرح النفس مسرورًا، لم يشعر بمرور الزمن، ولم يفق إلى نفسه إلا عندما رأى الشمس توارت خلف الأفق، فعرف أن الخيل صرفته بجمالها وبحسنها عن عبادة الله المفروضة فى هذه الفترة من الزمن – فترة العصر – فقال:

﴿إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب﴾.

والمراد بالخير أى إنى أحببت الخيل، واستغرقنى حبها حتى نسيت ذكر ربى فى هذه اللحظات التى مرت قبل غروب الشمس.

وكأن ذلك جعله يشتاق إليها من جديد فقال:

﴿ردوها على فطفق مسحًا بالسوق والأعناق﴾

يقول على بن أبى طلحة، عن ابن عباس رضى الله عنهما:

جعل يمسح أعراف الخيل، وعراقيبها: حبالها.

وهذا التفسير الجميل هو الذى اختاره ابن جرير الطبرى، فإنه يقول:

لأنه لم يكن ليعذب حيوانًا بالعرقبة، ومهلك مالاً من ماله بلا سبب، سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها، ولا ذنب لها.

وللرازى تفسير آخر جميل، إنه يقول:

إن رباط الخيل كان مندوبًا إليه فى دينهم كما أنه كذلك فى دين الإسلام ثم إن سليمان عليه السلام احتاج إلى الغزو فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها، وذكر أنى لا أحبها لأجل الدنيا ونصيب النفس، وإنما أحبها لأمر الله وطلب تقوية دينه، وهو المراد من قوله: ﴿عن ذكر ربى﴾.

ثم إنه عليه السلام أمر بإعدادها وتسييرها حتى توارت بالحجاب - أى غابت عن بصره ثم أمر الرائين بأن يردوا تلك الخيل إليه، فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها، والغرض من ذلك المسح أمور:

الأول: تشريف لها وإبانة لعزتها لكونها من أعظم الأعوان فى دفع العدو.

والثانى: أنه أراد أن يظهر أنه فى ضبط السياسة والملك يتضح هذا حيث أنه يباشر أكثر الأمور بنفسه.

الثالث: أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها، فكان يتحنها ويمسح سوقها وأعناقها حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض.

وقال: فهذا التفسير الذى ذكرناه ينطبق عليه لفظ القرآن انطباقًا مطابقًا موافقًا، ولا يلزمنا نسبة شىء من تلك المنكرات والمحذورات.

قال: وأنا شديد التعجب من الناس كيف قبلوا هذه الوجوه السخيفة، مع أن العقل والنقل يردها، وليس لهم فى إثباتها شبهة فضلًا عن حجة.

فإن قيل: إن الجمهور فسروا الآية بذلك الوجه، فما قولك فيه؟

فنقول: لنا ههنا مقامان:

المقام الأول: أن ندعى أن لفظ الآية لايدل على شىء من تلك الوجوه التى يذكرونها وقد ظهر - والحمد لله - أن الأمر كما ذكرناه، وظهوره لايرتاب العاقل فيه.

المقام الثانى: أن يقال: هب أن لفظ الآية لايدل عليه إلا أنه كلام ذكره الناس فما قولك فيه؟

وجوابنا: أن الأدلة الكثيرة قامت على عصمة الأنبياء عليهم السلام، ولم يدل دليل على صحة هذه الحكايات ورواية الآحاد لا تصلح معارضة

للدلائل القوية، فكيف بالحكايات عن أقوام لا يبالى بهم، ولا يلتفت إلى أقوالهم؟ والله أعلم.

ويقول صاحب كتاب محاسن التأويل: إن الإمام ابن حزم سبق الإمام الرازى فى هذا الرأى، يقول ابن حزم:

تأويل الآية على أنه قتل الخيل إذ اشتغل بها عن الصلاة خرافة موضوعة مكذوبة، سخيفة باردة، قد جمعت أفانين من القول، لأن فيها معاقبة خيل لا ذنب لها، والتمثيل بها وإتلاف مال منتفع به بلا معنى، ونسبة تضييع الصلاة إلى نبى مرسل، ثم يعاقب الخيل على ذنبه لا على ذنبها. وإنما معنى الآية أنه أخبر أنه أحب حب الخير من أجل ذكر ربه حتى توارت الشمس أو تلك الصافنات بحجابها، ثم أمر بردها فطفق مسحًا بسوقها وأعناقها بيده برًا بها، وإكرامًا لها. هذا هو ظاهر الآية الذى لا يحتمل غيره، وليس فيها إشارة أصلًا إلى ما ذكروه من قتل الخيل وتعطيل الصلاة. وكل هذا قد قاله ثقات المسلمين. فكيف ولا حجة فى قول أحد دون رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ اهـ.

ونأتى الآن إلى قصة أخرى عن سليمان اختلف فيها المفسرون، يقول تعالى:

﴿ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدًا ثم أناب، قال رب اغفر لى﴾.

يقول الإمام الألوسى فى ذلك:

أظهر ما قيل فى فتنته عليه السلام أنه قال: «لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تأتى كل واحدة بفارس يجاهد فى سبيل الله تعالى، ولم يقل إن شاء الله فطاف عليهن، فلم تحمل إلا امرأة وجاءت بشق رجل» وقد روى ذلك الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة مرفوعًا وفيه: «فو الذى نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فرسانًا» لكن الذى فى صحيح البخارى أربعون بدل سبعين، وأن الملك قال له: قل إن شاء الله، فلم يقل وغايته ترك الأولى فليس بذنب، وإن عده هو عليه السلام ذنبًا، فالمراد بالجسد ذلك الشق الذى ولد له، ومعنى إلقائه على كرسيه وضع لقابلة له عليه ليراه.

فلما رأى سليمان ذلك رجع إلى الله بالاستغفار، ثم أتبع ذلك بالدعاء قائلًا:

﴿وهب لى مُلْكًا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهّاب﴾.

واستجاب الله سبحانه لسليمان وعرفنا بذلك قائلا:

١ – فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب.
٢ – والشياطين كل بناء وغواص.
٣ – وآخرين مقرنين فى الأصفاد.

ثم عقب الله على كل ذلك بقوله تعالى:

﴿هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب﴾.

﴿وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾ (ص آية: ٣٩، ٤٠).

ويذكر الله سبحانه وتعالى مرة أخرى عطاءه لسليمان رضي الله عنه فيقول:

﴿ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكرًا وقليل من عبادى الشكور﴾ (سبأ آية: ١٢-١٣).

يقول الحسن البصرى رضى الله عنه:

كان يغدو من دمشق، فينزل باصطخر، فيتغذى بها ويذهب رائحًا منها، فيبيت بكابل، وبين دمشق وبين اصطخر مسيرة شهر، وبين اصطخر وكابل مسيرة شهر.

ولقد روى الامام البخارى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

«إن عفريتاً من الجن تفلت على البارحة ليقطع على صلاتى فأمكننى الله منه، فأخذته فأردت أن أربطه إلى سارية من سوارى المسجد حتى تنظروا إليه كلكم فذكرت دعوة أخى سليمان».

«رب اغفر لى وهب لى ملكًا لا ينبغى لأحد من بعدى، فرددته خاسئًا» اهـ.

وفى قوله تعالى: ﴿هذا عطاؤنا فامنن أوأمسك بغير حساب، وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾ (ص آية: ٣٨-٣٩).

يقول الإمام ابن كثير:

ولما ذكر تعالى ما أنعم به عليه وأسداه من النعم الكاملة العظيمة إليه قال:

﴿هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب﴾ أى اعط من شئت واحرم من شئت، فلا حساب عليك: أى تصرف فى المال كيف شئت، فإن الله قد سوغ لك ما تفعله من ذلك ولا يحاسبك على ذلك، وهذا شأن النبى الملك بخلاف العبد الرسول، فإن من شأنه أن لا يعطى أحدًا إلا بإذن الله له فى ذلك.

وقد خير نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه بين هذين المقامين فاختار أن يكون عبدًا رسولاً.

وفى بعض الروايات أنه استشار جبريل فى ذلك فأشار إليه أن تواضع، فاختار أن يكون عبدًا رسولاً صلوات الله وسلامه عليه، وقد جعل الله الخلافة والملك من بعده فى أمته إلى يوم القيامة فلا تزال طائفة من أمته ظاهرين حتى تقوم الساعة. فلله الحمد والمنّة.

ولما ذكر تعالى ما وهبه لنبيه سليمان عليه السلام من خير الدنيا نبّه على ما أعده له فى الآخرة من الثواب الجزيل والأجر والقربة التى تقربه إليه والفوز العظيم والإكرام بين يديه، وذلك يوم المعاد والحساب حيث يقول تعالى:

﴿وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾.

❊ ❊ ❊

ونأتى الآن إلى الحديث عن قصة سليمان مع ملكة سبأ:

يقول صاحب البحر المحيط عن اسم الذى أحضر عرش بلقيس بعد أن ذكر كثيرًا من الأقوال فى ذلك:

«وهذه أقوال مضطربة وقد أبهم الله اسمه فكان ينبغى أن لا يذكر اسمه حتى يخبر به نبى».

وهذه الكلمة الرشيدة لهذا الإمام الجليل ينبغى أن تكون شعارًا فى كل ما لم يصرح به القرآن مما ليس للتاريخ فيه مقال، ولا للعقل فيه مجال.

إن الظن لا يغنى عن الحق شيئًا، وإن كل قول فى اسم الذى أحضر عرش بلقيس، والذى عبر عنه الله تعالى بقوله:

﴿الذى عنده علم من الكتاب﴾.

إنما هو تخمين وظن.

لقد قال بعض المفسرين: إنه جبريل عليه السلام.

وقال أكثر المفسرين: إنه آصف بن برخيا كاتب سليمان أو وزيره، وكان كما يقولون - صديقًا عالمًا.

وقال البعض: إنه الخضر.

وليس هناك ما يشبه الدليل القطعى على شىء من هذا.

أما وسيلته إلى ذلك فلم يتحدث عنها القرآن ولا السنة الصحيحة، وإنما أشار إليها القرآن فى أسلوب غاية فى الدقة والإحكام.

إن القرآن وصف الآتى بالعرش بأنه: (الذى عنده علم من الكتاب).

وهذا يشير - بكل سهولة - إلى أنه من العلماء، ويكون معنى الإشارة أن عرش بلقيس كان إحضاره عن طريق العلم، وأن طريق العلم أسرع من طرق الشياطين، ومردة الجن.

والوسيلة - إذن - فى إحضار عرش بلقيس، إنما كانت الوسيلة العلمية. أما كيف؟ أما التفاصيل، أما دقائق التنفيذ فإن ذلك كله لا سبيل إلى معرفته ولعل تقدم العلم يكشف فى يوم من الأيام الأسلوب الذى أتى به عرش سليمان، أو على الأقل يقربه من الأفهام. والله أعلم.

ســليمان والعلم

الواضح من الجو القرآنى أن سليمان عليه السلام كان يعيش فى حضارة متقدمة، وأن سليمان عليه السلام كان على معرفة واسعة عميقة.

إن سليمان عليه السلام يقول:

﴿يأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء﴾.

ثم يعترف بنعمة الله تعالى عليه وعلى أبيه قائلاً:

﴿إن هذا لهو الفضل المبين﴾ (النمل آية: ١٦).

ويقول الله تعالى مبيناً ما منح سبحانه سليمان وأباه من العلم.

﴿ولقد آتينا داود وسليمان علماً﴾ (النمل آية: ١٥).

أهو العلم الوهبى؟

أم هو العلم الكسبى؟

الواقع أنه لا يتأتى الاقتصار على أحد نوعى العلم.

والواقع من ناحية أخرى إننى كنت أعتقد أن العلم الوهبى مقصور على الجانب العقدى والجانب الأخلاقى، ثم تبينت أن هذا الرأى خطأ صريح حينها التقيت بالشيخ الهارون الحجار.

لقد كان شيخاً سوريًا من محبى سيدنا محيى الدين بن عربى، وكان من الأفراد القلائل الذين يفهمون الشيخ الأكبر، ويتذوقون آراءه، ويسيرون فى تياره.

كان ملهما فى علوم الدين، وهذا ما كنت أعتقد أنه طبيعى، ولكنه كان ملهمًا أيضًا فى علوم المادة: الزراعية، الطبيعية، الأحياء.. وهذا هو ما فوجئت به.

ومن أجل ذلك فإن من يقصر الإلهام على علوم الدين فإنه يكون مخطئًا.

وكان سليمان عليه السلام ملهمًا فى علوم الدين والدنيا، ولكنه كان يضيف إلى ذلك العلم الكسبى: تعلمًا وتجربة، وملاحظة واستقراء.

وكانت مظاهر الحضارة المادية بادية واضحة كما ذكرنا بعضها من قبل.

ومن مظاهر علم سليمان ما ذكره القرآن بقوله:

﴿عُلّمنا منطق الطير﴾ (النمل آية: ١٦).

وفى يوم من الأيام أعطى سليمان الأمر بتجمع جيشه جميعه، ويذكر

القرآن ذلك قائلاً:

﴿وحُشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون، حتى إذا أتوْا على وادى النمل قالت نملة: يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون، فتبسم ضاحكًا من قولها وقال: رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدىّ وأن أعمل صالحًا ترضاه، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين﴾ (النمل آية: ١٧-١٩).

وأخذ سليمان عليه السلام يستعرض الجيش من الجن والإنس والطير، فرأى الهدهد غائبًا: إنه لم يستجب للحضور، وكان من الطبيعى أن ينال جزاءه، ولا يتأتى أن تمنع النبوة رحمتها ورأفتها أن ينال المهمل أو المقصر جزاءه.

ومهما امتلأ قلب الزعيم أو القائد رأفة ورحمة، فإن ذلك لا يمنع من فرض الجزاء على كل مقصر، وإلا فسد الأمر، ومن هنا كان قول سليمان عليه السلام:

﴿لأعذبنه عذابًا شديدًا، أو لأذبحنه﴾ (النمل آية: ٢١).

ولكن الأمر لا طغيان فيه، وإنما هى العدالة، ومن أجل ذلك قال سليمان عليه السلام:

﴿أو ليأتينى بسلطان مبين﴾.

أى سبب مقنع للعفو حتى يكون العفو.

وجاء الهدهد فقال لسليمان عليه السلام:

﴿أحطت بما لم تحط به﴾ (النمل آية: ٢٢).

وهى كلمة فى غاية الجمال تعنى:

إننى أنا الهدهد الضعيف الذى لا يكاد يكون شيئًا بجوار النبى الملك سليمان العظيم، قد أحطت من العلم بما لم يحط به نبى الله، وذلك أن العلم لا نهاية له، وأن الإحاطة به مستحيلة، والناس يتقاسمون بعضه، يحيط منهم فريق بما لم يحط به الآخر، وهم جميعًا لا يحيطون إلا بالبعض الضئيل:

﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ (الإسراء آية: ٨٥).

ويستمر الهدهد فى حديثه:

﴿وجئتك من سبأ بنبأ يقين﴾.

﴿إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله﴾.

ثم أخذ الهدهد يعلل استمرار هذا العمل الضار، فقال:

﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون﴾.

وتابع الهدهد حديثه مبينا الصراط المستقيم:

﴿ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم﴾.

وقال سليمان عليه السلام:

﴿سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين﴾.

ثم كتب سليمان كتابًا وأعطاه للهدهد قائلاً:

﴿اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون﴾.

ولما وصل الكتاب إلى الملكة جمعت رؤساء مملكتها وحدثتهم قائلة:

﴿يأيها الملأ إنى ألقىَ إلى كتاب كريم ، إنه من سليمان، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم، ألا تعلوا على وأتونى مسلمين﴾.

ثم قالت:

﴿يأيها الملأ أفتونى﴾.

لقد شاورتهم فى الأمر لتتبين الرأى الرشيد، ولكيلا تتحمل مسئولية الرأى وحدها.

إذا كنت ذا رأى فكن ذا مشورة..

وأخذت تقلب الرأى معهم، فقالوا:

﴿نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين﴾ لقد كانوا فى طاعة تامة لها.

وفكرت فى الأمر طويلا، وانتهت إلى رأى فيه حكمة وفيه عمق، وهو رأى ناضج، قالت:

﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة، وكذلك يفعلون،وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون﴾.

وأرسلت الهدية.

ماذا كانت الهدية؟

أنها هدية ملكة غنية خائفة، تريد أن تتحاشى كارثة تلم بها فى نفسها ومن يدرى؟ أو تلم بعرشها فتذهب به.

وما من شك فى أنها كانت عظيمة:

قال ابن عباس: مائة وصيف ومائة وصيفة. قال وهب وغيره:

عمدت بلقيس إلى خمسمائة غلام وخمسمائة جارية، فألبست الجوارى لبس الغلمان: الأقبية والمناطق، وألبست الغلمان لبس الجوارى، وجعلت فى أيديهم أساور الذهب، وفى أعناقهم أطواق الذهب، وفى آذانهم أقراط وشنوق مرصعات بأنواع الجواهر، وحملت الجوارى على خمسمائة رمكة (أى الفرس)، والغلمان على خمسمائة برذون، على كل فرس سرج من الذهب مرصع بالجواهر وأغشية الديباج، وبعثت إليه لبنات من الذهب، ولبنات من الفضة، وتاجًا مكللًا بالدر والياقوت، وأرسلت بالمسك والعنبر والعود واليلنجوج، وعمدت إلى حُق جعلت فيه درة بقيمة ثمينة غير

مثقوبة، وخرزة جزع معوجة الثقب، ودعت رجلاً من أشراف قومها يقال له المنذر بن عمرو وضمت إليه رجالاً من قومها أصحاب عقل ورأى، وكتبت مع المنذر كتابًا تذكر فيه الهدية، وقالت:

إن كنت نبيًّا ميز بين الوصفاء والوصائف، وأخبرنا بما فى الحُق قبل أن تفتحه، واثقب الدرة ثقبًا مستويًا، وأدخل فى الخرزة خيطًا من غير علاج إنس ولا جن، وأمرت بلقيس الغلمان فقالت:

إن كلمكم سليمان فكلموه بكلام تأنيث وتخنيث يشبه كلام النساء، وأمرت الجوارى أن يكلمنه بكلام فيه غلظة يشبه كلام الرجال، ثم قالت للرسول:

انظر إلى الرجل إذا دخلت، فإن نظر إليك نظرًا فيه غضب، فاعلم أنه ملك فلا يهولنك أمره ومنظره فأنا أعز منه، وإن رأيت الرجل بشاشًا لطيفًا فافهم أنه نبى فتفهم قوله ورد الجواب، فانطلق الرسول بالهدايا وأقبل الهدهد مسرعًا إلى سليمان، فأخبره الخبر، فأمر سليمان الجن أن يضربوا لبنًا من الذهب والفضة ففعلوا، وأمرهم بعمل ميدان مقدار تسعة فراسخ وأن يفرشوا لبن الذهب والفضة، وأن يخلوا مقدار تلك اللبنات التى معهم، وأن يعملوا حائطًا شُرَفه من الذهب والفضة، ففعلوا ثم قال:

أى دواب البر والبحر أحسن؟ فقالوا: يا نبى الله ما رأينا أحسن من دابة من دواب البحر، يقال لها: كذا وكذا مختلفة ألوانها لها أجنحة وأعراف ونواص،

قال: عليّ بها الساعة: فأتوا بها. قال: شدوها بين يمين الميدان وشماله، ثم قال للجن:

عليّ بأولادكم، فاجتمع منهم خلق كثير فأقامهم عن يمين الميدان وشماله ثم قعد سليمان فى مجلسه على سريره، ووضع له أربعة آلاف كرسى على يمين الميدان وعلى شماله، أمر الانس والجن والشياطين والوحوش والطير والسباع فاصطفوا فراسخ عن يمينه وشماله، فلما دنا القوم إلى الميدان ونظروا إلى ملك سليمان رأوا أول الأمر الدواب التى لا يرى مثلها تروث فى لبنات الذهب والفضة، فلما رأوا ذلك تقاصرت أنفسهم وخبأوا ما معهم من الهدايا، وقيل: إن سليمان فرش الميدان بلبنات الذهب والفضة، وترك على طريقهم موضعًا على قدر ما معهم من ذلك الموضع، فلما رأى الرسل موضع اللبنات خاليًا خافوا أن يتهموا بذلك فوضعوا ما معهم من اللبن فى ذلك الموضع، ولما رأوا الشياطين هالهم ما رأوا وفزعوا، فقالت لهم الشياطين: جوزوا لا بأس عليكم، فكانوا يمرون على كراديس (جماعات) الإنس والجن والوحش والطير حتى وقفوا بين يدى سليمان، فأقبل عليهم بوجه طلق، وتلقاهم تلقيًا حسنًا، وسألهم عن حالهم فأخبره رئيس القوم بما جاءوا فيه، وأعطوه كتاب الملكة فنظر فيه، وقال: أين الحُق؟ فأتى به فحرّكه، فجاءه جبريل فأخبره بما فيه فقال لهم: إن فيه درة ثمينة غير مثقوبة، وخرزة معوجة الثقب، فقال رسول الملكة: صدقت.

فثقّب الدرة، وأُدْخِل الخيط فى الجزعة، فقال سليمان:

من لى يثقبها؟ وسأل الإنس والجن فلم يكن عندهم علم، ثم سأل الشياطين فقالوا:

نرسل إلى الأرضة، فلما جاءت الأرضة أخذت شعرة فى فيها ودخلت فيها حتى خرجت من الجانب الآخر.

فقال لها سليمان: ما حاجتك؟

قالت: تُصير رزقى فى الشجر.

فقال: لك ذلك.

ثم قال: من لى بهذه الخرزة؟

فقالت دودة بيضاء: أنا لها يا نبى الله، فأخذت الدودة الخيط فى فيها، ودخلت الثقب حتى خرجت من الجانب الآخر.

فقال لها سليمان: ماحاجتك؟
قالت: يكون رزقى فى الفواكه.
قال: لك ذلك.

ثم ميز بين الغلمان والجوارى، بأن أمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم، فجعلت الجارية تأخذ الماء بيدها وتضرب بها الأخرى، وتغسل وجهها، والغلام يأخذ بيديه ويغسل وجهه. وكانت الجارية تصب الماء على باطن ساعدها والغلام على ظاهره، فميز بين الغلمان والجوارى» اهـ.
ووصلت الهدية إلى سليمان. فقال:

﴿أتمدونن بمال؟ فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾ (النمل آية: ٣٦).

وأحب سليمان أن يرد الهدية فى صورة صاخبة مرعبة حتى يكون للجو الذى ردت فيه الهدية أثره الفعال فتكون النتيجة كما أرادها:

﴿ألا تعلوا على وأتونى مسلمين﴾.

وقال سليمان من هذا المنطلق:

﴿ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون﴾ (النمل آية: ٣٧).

ولم يشك سليمان فى أنهم - بلقيس والملأ من قومها - سيأتون مسلمين.

ولعل سليمان عرض جيشه على رسل الملكة وأراهم ما هو فيه من قوة وبأس: أراهم الجيش فى الجن والإنس والطير، وأفزع الرسل بهذا العرض، فرجعوا فى فزع وفى رجفة، وتحدثوا بما رأوا من ملك فخم شامخ.

وها هو ذا سليمان عليه السلام يجلس بين أصفيائه ذات يوم، ويتحدث معهم عن ملكة سبأ وعن عبادتها للشمس من دون الله، وعن رده للهدية التى أرسلتها إليه ملكة سبأ تريد بذلك أن يغض الطرف عنها وعن زيفها وضلالها، قائلاً حين ردها:

﴿يأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ﴾.

فرد عليه عفريت من الجن قائلا:

﴿أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك، وإنى عليه لقوى أمين﴾.

وأجاب شخص آخر يتحدث عنه القرآن الكريم على الوضع التالى:

﴿قال الذى عنده علم من الكتاب: أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾.

ونفذ الذى عنده علم من الكتاب ما قال، وجاء بالعرش فى لمح البصر.

فلما رأى سليمان العرش مستقرا عنده قال:

﴿هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر؟ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم﴾.

والقرآن يعرفنا بهذه القصة أن العلم يفعل الأعاجيب، وأنه يفعل ما لا تفعله الجن، وأن مقدرة العالم تصل إلى ما لم تصل إليه مقدرة عفريت من الجن، وأنه بالعلم تطوى الأرض، وتزول المسافات، وتتحقق المعجزات.

والقرآن الكريم حينما يقول:

﴿الذى عنده علم من الكتاب﴾.

فإنه من الواضح أنه لا يقصد العلم الوهبى وإنما العلم الكسبى، إنه علم من «الكتاب»، إنه ليس بوحى.

وهذا يجعلنا نتساءل:

إلام بلغت الحضارة فى عهد سليمان؟

إن الاتيان بالعرش ليس معجزة، والجو القرآنى لا يشير إلى معجزة. ولو كان الأمر أمر معجزة لكان سليمان أولى بها، إنه هو النبى الرسول.

إنها إذن ثمرة علم من «الكتاب» وكل ما كان ثمرة من الكتاب فهو كسبى ، إنه حضارة بكل ما تتطلبه الحضارة من جهد فى الملاحظة والتجربة والاستقراء، وبكل ما تتطلبه الحضارة من تعمق فى الأسرار والظواهر والتصرف فى قوانين الكون باستخدام قوانين أخرى للتغيير والتبديل، والتعديل والإلغاء أو التقوية.

والقرآن الكريم يعلمنا بهذه القصة، فبالعلم - كما قلنا - تُطوى الأرض، وتزول المسافات، أو يزول الزمن الذى يتطلبه - فى نظرة الجاهلين - قطع المسافات والأمكنة.

كم من الزمن يستغرقه الآن انتقال الصوت عبر آلاف الأميال التى تفصل بين قطر وقطر حينما يتحدث الإنسان فى التليفون أو فى الإذاعة؟

والصور عبر الأمكنة حينما يستخدم الإنسان التليفزيون؟.

ومهما يكن من شىء فإن مردة الجن تعجز عمايستطيعه الإنسان بالعلم.

وبلغ سليمان أن بلقيس فى الطريق، وأحب سليمان أن لا تتلكأ الملكة أو يتلكأ ملؤها فى الإيمان فأراد أن يفاجئها بأمور خارقة فأمر:

﴿نكروا لها عرشها﴾.

أى غيروا شيئاً من زينته وما حلى به من جواهر.

لماذا:

﴿ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون﴾.

وهو اختبار لفطنتها وذكائها.

وأراها سليمان العرش وقال لها:

﴿أهكذا عرشك﴾.

فقالت متحفظة فطنة ذكية:

﴿كأنه هو﴾.

ويقول سليمان عن نفسه وقومه:

﴿وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين﴾.

أما هى فقد ألفت الكفر ونشأت فيه ولم تفكر فيما ألفته:

﴿وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين﴾.

لقد منعها ما منع العرب الذين قالوا:

﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾.

ويصدق عليها ما صدق عليهم حينما قال القرآن الكريم ساخراً من عقليتهم:

﴿أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾

ولم يكتف سليمان بذلك: فقد أمر أن يبنى لها صرح - أرضه من زجاج يجرى من تحتها الماء وفيه سمك وحيوانات تسير تحت الزجاج وتظهر صورتها منه:

وقيل لها ادخلى الصرح (أى القصر).

﴿فلما رأته حسبته لجة، وكشفت عن ساقيها﴾.

لقد كان من الإتقان فى الصنع بحيث حسبته لجة.

﴿إنه صرح ممرد من قوارير﴾.

وآتت المفاجأة ثمرتها فقالت:

﴿رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾.

لقد آتى الله سليمان ملكًا لا ينبغى لأحد من بعده، وسخر له الجن، وسخر له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب، وسخر له الريح عاصفة تدمر ما يشاء. وعاش سليمان فى هذا الملك مسيطرا على الجن والإنس والطير ثم.. جاء ملك الموت وقبض روحه.

﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة﴾.

وكان موت سليمان عبرة، فإنه اتكأ على عصاه ومات متكئًا، ومكث

كذلك ما شاء الله أن يمكث والجن لا تعلم بموته، ولكن السوس أخذ ينخر فى عصاه فتكسرت فخر، فظهر للجن موته وكانوا لا يعلمون.

قال أصبغ بن الفرج، وعبد الله بن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم:

قال: قال سليمان لملك الموت:

«إذا أمرت بى فأعلمنى ، فأتاه فقال: يا سليمان قد أمرت بك، قد بقيت لك سويعة».

فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحًا من قوارير ليس له باب، فقام يصلى فاتكأ على عصاه قال:

فدخل عليه ملك الموت فقبض روحه وهو متوكىء على عصاه، ولم يصنع ذلك فرارًا من ملك الموت. قال: والجن تعمل بين يديه وينظرون إليه يحسبون أنه حى.

قال: فبعث الله دابة الأرض يعنى إلى منسأته فأكلتها حتى إذا أكلت جوف العصا ضعفت وثقل عليها فخر، فلما رأت الجن ذلك انفضوا وذهبوا

قال: فذلك قوله:

﴿ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته، فلما خرّ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين﴾.

قال أصبغ : وبلغنى عن غيره أنها مكثت سنة تأكل من منسأته حتى خرّ.

وقد روى نحو هذا عن جماعة من السلف وغيرهم والله تعالى أعلم

اهـ

زكريا

عليه السلام

روى الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«كان زكريا نجارًا».

لقد كان يأكل من عمل يده، كان يتطلب الحلال الصافى ويتحراه فكان يعمل بيده.

ولقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم داود عليه السلام فى معرض المدح قائلاً:

«ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يديه، وأن نبى الله داود صلى الله عليه وسلم، كان يأكل من عمل يده» (رواه البخارى عن أبى هريرة).

وليس المراد حتمًا حرفة يدوية، وإنما المراد الجهد الإنسانى فى العمل.

والأكل الحلال مدحه الله تعالى فى القرآن الكريم، ومدحه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأحاديث الشريفة.

يقول الله سبحانه:

﴿يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالاً طيبًا ولاتتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ (البقرة آية: ١٦٨)

ويقول تعالى:

﴿يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون﴾ (البقرة آية: ١٧٢).

وقال سبحانه:

﴿وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيبًا واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون﴾. (المائدة آية: ٨٨).

ويقول تعالى:

﴿فكلوا مما غنمتم حلالاً طيبًا، واتقوا الله، إن الله غفور رحيم﴾. (الأنفال آية: ٦٩).

وقال جل شأنه:

﴿فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيبًا، واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون﴾. (النحل آية: ١١٤).

ومن أسس القربى إلى الله، ومن قواعد استجابة الدعاء وهو على العموم من أجواء الصالحين.

وقد كان زكريا من الصالحين، يقول تعالى:

﴿وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين﴾ (الأنعام آية: ٨٥).

وقد عاش فترة طويلة من حياته لا ينجب أولادًا، وكان يحب أن يكون له ولد يرثه في النبوة.

وكان من تصاريف القدر أنه هو الذى كفل مريم البتول، فكان كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقًا، فيسألها قائلاً:

يا مريم أنى لك هذا؟

فتقول: هو من عند الله.

ثم تضيف ﴿إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾.

إنه سبحانه يرزق من يشاء رزقًا ماديًّا، ويرزق من يشاء رزقًا معنويًّا، ويرزق من يشاء ما يشاء ويقدر، ويصف الإنسان بالتقتير:

﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذًا لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتورًا﴾. (الاسراء آية: ١٠٠).

وقد بين الله سبحانه مفاتيح الرزق فكان منها الضرب فى الأرض، وكان منها العمل، وكان منها الدعاء:

﴿هنالك دعا زكريا ربه قال: رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء، فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقًا بكلمة من الله وسيدًا وحصورًا ونبيًّا من الصالحين﴾ (آل عمران آية: ٣٨-٣٩).

أما استجابة الدعاء هذه، فإن الله سبحانه وتعالى قال عنها وعن سرها:

﴿وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرنى فردًا وأنت خير الوارثين، فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه، إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبًا ورهبًا وكانوا لنا خاشعين﴾. (الأنبياء آية: ٨٩ - ٩٠).

أرأيت إلى من يسارع فى الخيرات ويدعو الله والشعور يغمره بالرغب والرهب، وهو إذا أمسى كان خاشعًا لله، وإذا أصبح كان خاشعًا لله، أرأيت إلى مثل هذا يرده الله خائبًا إذا دعا؟

حاشا لله، وهو السميع للدعاء المجيب لمن حقق شروط العبودية، يقول الله سبحانه فى حديث قدسى عن سر استجابة الدعاء:

«من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب، وماتقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضت عليه، ومايزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه. فإذا

أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى أعطيته، ولئن استعاذنى لأعيذنه» (رواه البخارى).

ولا يتأتى أن يعادى إنسان الله فتكون هذه العداوة سببًا فى استجابة الدعاء، اللهم إلا إذا كان دعاء خالصًا بالتوبة والإنابة مستعينًا بالله على قبول التوبة النصوح.

لقد استجاب الله دعاء زكريا ونادته الملائكة مبشرة له بيحيى، وفرح زكريا فرحة غامرة وكان فى سعادة، وأخذ يسأل ليطمئن قلبه وليستزيد من سعادة وضوح الرؤية:

﴿قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر، قال كذلك الله يفعل ما يشاء﴾. (آل عمران: ٤٠).

وعاد زكريا يسأل:

﴿قال: رب اجعل لى آية، قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزًا، واذكر ربك كثيرًا وسبح بالعشى والإبكار﴾. (آل عمران: ٤١).

ويقص الله سبحانه أمر زكريا مرة أخرى فى أول سورة مريم فيقول سبحانه:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿كهيعص. ذكر رحمة ربك عبده ذكريا، إذ نادى ربه نداء خفيًا، قال: رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس

شيبًا ولم أكن بدعائك رب شقيا، وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرًا فهب لى من لدنك وليًا، يرثنى ويرث من آل يعقوب، واجعله رب رضيًا، يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميًا، قال : رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرًا وقد بلغت من الكبر عتيًا، قال : كذلك، قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئًا، قال : رب اجعل لى آية؟ قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويًا، فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيًا، يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيًا، وحنانًا من لدنا وزكاة وكان تقيًا، وبرًا بوالديه ولم يكن جبارًا عصيًا، وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًا﴾. (مريم : ١ - ١٥).

يحيى

عليه السلام

نادت الملائكة زكريا:

﴿إن الله يبشرك بيحيى﴾.

وتسميته بهذا الاسم إنما هى من الله سبحانه.

أما صفاته: فإن الله سبحانه وتعالى يقول عنها:

﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيًا، وحنانًا من لدنا وزكاة وكان تقيًا، وبرًا بوالديه ولم يكن جبارًا عصيًا، وسلام عليه يوم ولد، ويوم يموت ويوم يبعث حيًا﴾.

ويقول سبحانه:

﴿ وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين﴾.

وتقول الملائكة عن يحيى:

﴿مصدقًا بكلمة من الله وسيدًا وحصورًا ونبيًا من الصالحين﴾.

ويقول الإمام ابن كثير:

عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك.

﴿وحنانًا من لدنا﴾. أى رحمة من عندنا رحمنا بها زكريا فوهبنا له هذا الولد.

وعن عكرمة: ﴿وحنانًا﴾. أى محبة عليه، ويحتمل أن يكون ذلك صفة لتحنن يحيى على الناس ولا سيما على أبويه، وهو محبتهما والشفقة عليهما وبره بهما.

أما الزكاة فهى طهارة الخُلُق وسلامته من النقائص والرذائل، والتقوى طاعة لله بامتثال أوامره وترك زواجره.

ثم ذكر بره بوالديه وطاعته لهما أمرًا ونهيًا، وترك عقوقهما قولاً وفعلاً فقال:

﴿وبرًّا بوالديه ولم يكن جبارًا عصيًّا﴾.

ثم قال: ﴿وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًّا﴾.

هذه الأوقات الثلاثة أشد ما تكون على الإنسان ، فإنه ينتقل فى كل منها من عالم إلى عالم آخر، فيفقد الأمل بعد ما كان ألفه وعرفه ويصير إلى الآخر ولا يدرى ما بين يديه، ولهذا يستهل صارخًا إذا خرج من بين الأحشاء وفارق لينها وضمها، وينتقل إلى هذه الدار ليكابد همومها وغمها.

وكذلك إذا فارق هذه الدار وانتقل إلى عالم البرزخ بينها وبين دار القرار وصار بعد الدور والقصور إلى عرصة الأموات سكان القبور، وانتظر هناك النفخة فى الصور ليوم البعث والنشور، فمن مسرور، ومحبور، ومن محزون ومثبور، وما بين جبير وكسير، وفريق فى الجنة وفريق فى السعير، ولقد أحسن بعض الشعراء حيث يقول:

ولدتك أمك باكيًا مستصرخًا والناس حولك يضحكون سرُورًا
فاحرص لنفسك أن تكون إذا بكوا فى يوم موتك ضاحكًا مسرورًا

ولما كانت هذه المواطن الثلاثة أشق ما تكون على ابن آدم سلم الله على يحيى فى كل موطن منها فقال:

﴿وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًّا﴾.

وقال سعيد ابن أبى عروبة، عن قتادة أن الحسن قال: إن يحيى وعيسى التقيا، فقال له عيسى: استغفر لى أنت خير منى، سلمت على نفسى وسلم الله عليك، فعرف والله فضلهما.

وأما قوله فى الآية الأخرى.

﴿وسيدًا وحصورًا ونبيًّا من الصالحين﴾.

فقيل: المراد بالحصور الذى لا يأتى النساء وقيل غير ذلك، وهو أشبه بقوله:

﴿هب لى من لدنك ذرية طيبة﴾.

وتكاد دعوة يحيى تتلخص فى الآتى:

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، أنبأنا أبو خلف موسى بن خلف، وكان يعد من البدلاء، حدثنا يحى بن أبى كثير، عن زيد عن سلام، عن جده ممطور، عن الحارث الأشعرى، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

«إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن، وأن يأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن، فإما أن تبلغهن، وإما أن أبلغهن». فقال:

يا أخى إنى أخشى إن سبقتنى أن أعذب أو يخسف بى.

قال: فجمع يحيى بنى اسرائيل فى بيت المقدس حتى امتلأ المسجد، فقعد على الشرف فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

إن الله عز وجل أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن، وأمركم أن تعملوا بهن، وأولاهن، أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئًا، فإن مثل ذلك مثل من اشترى عبدًا من خالص ماله بورق أو ذهب فجعل يعمل ويؤدى غلته إلى غير سيده، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك!! وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئًا.

وأمركم بالصلاة فإن الله ينصب وجهه قبل عبده مالم يلتفت، فإذا صليتم فلا تلتفتوا.

وأمركم بالصلاة فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك فى عصابة كلهم يجد ريح المسك، وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك.

وأمركم بالصدقة، فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه، فقال:

هل لكم أن أفتدى نفسى منكم؟ فجعل يفتدى نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه.

وأمركم بذكر الله عز وجل كثيرًا، فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعًا فى أثره فأتى حصنا حصينًا فتحصن فيه، وإن العبد أحسن ما يكون من الشيطان إذا كان فى ذكر الله عز وجل.

عيسى

عليه السلام

جلست السيدة حنة، وعلى وجهها سمات الاهتمام والحزن، ونظراتها معلقة بطائر يحنو على فرخه ويطعمه. وأخذ خيالها يسرح،يسرح عبر هذه السنين التي تقضت من عمرها الذى لم تتخلله البهجة بالأولاد يسرحون ويمرحون ويملأون البيت حبًا، وضجيجًا حبيبًا، ومودة وفرحة.

إنها حياة جدباء، تلك التى لم تملأ جنباتها البهجة بالأولاد.

على هذا النسق كان يدور خيالها، وعيناها ممتدتان إلى الطائر يطعم فرخه فى حنان ومداعبة.

استمر خيالها يسير مع هواها، واستمر شعورها بالرغبة فى الولد يقوى ويتركز، وإذا بها فجأة تسيل دموعها، وتتجه إلى الله ضارعة فى حرارة داعية فى شوق ولهفة، أن يهب لها ولدًا، وقالت:

«اللهم لك على إن رزقتنى ولدًا أن أتصدق به على بيت المقدس».

يقول ابن اسحاق:

«كان السبب فى نذرها أنه أمسك عنها الولد حتى أسنت».

واستجاب الله دعاءها، فلما شعرت بالحمل، اتجهت إلى الله فى شكر وفى عرفان، تؤكد من جديد نذرها، ويعبر القرآن عن ذلك بقوله:

﴿إذ قالت امرأة عمران: رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررًا، فتقبل منى، إنك أنت السميع العليم﴾.

وعمران الذى ذكرته الآية الكريمة؟ ليس بعمران أبى موسى، وبين موسى وعيسى، بون شاسع من الزمن.

أما قولها فى الآية الكريمة ﴿محررًا﴾ فمعناه «معتق» وهى تقصد بذلك أنه معتق من أن يكون عبدًا للدنيا ليعبدك وحدك.

يقول الزجاج:

كان على أولادهم فرضًا أن يطيعوهم فى نذرهم، فكان الرجل ينذر فى ولده أن يكون خادمًا فى متعبدهم[1].

لقد سعدت السيدة حنة بهذا الحمل فهى تفكر فى الجنين فى سعادة، إنها

(١) يقول القاضى أبو يعلى، والنذر فى مثل ما نذرت، صحيح فى شريعتنا، فإنه إذا نذر الإنسان أن ينشئ ولده الصغيرة على عبادة الله وطاعته، وأن يعلمه القرآن، والفقه وعلوم الدين: صح النذر.

تفكر فى صورته وتفكر فى تنشئته، وتفكر فى تربيته وثقافته كما تفكر فى بسماته، وفى مداعباته، وما كان خيالها يسرح مطلقًا فى جو هذا الجنين على أنه أنثى، وإنما كان يسرح باستمرار - فى وجوه - على أنه ذكر، هاهو ذا قد أصبح شابًا ذكيًا، فتيًا يأخذ مكانته بين فقهاء المعبد وسدنته، بين المسيرين لدفة الأمور الدينية والموجهين لها، ثم هاهو ذا حبر من كبار الأحبار له الكلمة المسموعة.. و.. و..

وجاء أوان الوضع، وفوجئت السيدة حنة، مفاجأة لم تكن متوقعة.

لقد كان المولود أنثى.

ارتبكت السيدة حنة لحظة من الزمن، وفكرت فى نذرها، وفكرت فى المقادير، وفى سرعة اتجهت إلى الله تعالى وكأنها تعتذر أو تستغفر قائلة:

﴿رب إنى وضعتها أنثى، والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى، وإنى سميتها مريم، وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾ (آل عمران آية: ٣٦).

أما مريم هذه التى يحرص المفسرون على بيان أنها ليست مريم أخت موسى، فإن الله سبحانه أضفى عليها عنايته وشملها برعايته، ويعبر سبحانه عن ذلك فيقول:

﴿فتقبلها ربها بقبول حسن، وأنبتها نباتًا حسنًا﴾ (آل عمران آية: ٣٧)

أما من ناحية كفالتها فقد تولى ذلك زكريا، وكان لذلك قصة:

قال السدى:

«نطلقت بها أمها فى خرقها، وكانوا يقترعون على الذين يؤتون بهم فقال زكريا وهو نبيهم يومئذ:

أنا أحقكم بها، عندى أختها، فأبوا، وخرجوا إلى نهر الأردن، فألقوا أقلامهم التى يكتبون بها، فجرت الأقلام، وثبت قلم زكريا، فكفلها.

قال ابن عباس:

كانوا سبعة وعشرين رجلا، فقالوا: نطرح أقلامنا، فمن صعد قلمه مغلبًا للجرية فهو أحق بها، فصعد قلم زكريا، فعلى هذا القلم كانت غلبة زكريا بصاعدة قلمه.

وعلى قول السدى: بوقوفه فى جريان الماء.

وقال مقاتل:

كان يغلق عليها الباب، ومعه المفتاح، لا يأمن عليه أحدًا، وكانت إذا حاضت، أخرجها إلى منزله تكون مع أختها أم يحيى، فإذا طهرت ردها إلى بيت المقدس.

والأكثرون على أنه كفلها منذ كانت طفلة بالقرعة.

وأخذت الطفلة تشب وتترعرع فى كفالة زكريا.

فلما بلغت السن التى تستطيع فيها الخدمة، أخذت بتوجيه زكريا عليه السلام، تعمل فى المعبد توفية لنذر أمها، وتتعبد فيه، إنها عاملة عابدة.

واتخذت مريم عليها السلام محرابًا، قال الأصمعى: والمحراب هاهنا: الغرفة. والمحراب فى اللغة: الموقع العالى الشريف كما يقول الزجاج.

اتخذت مريم عليها السلام محرابًا تعتكف فيه متعبدة متهجدة.

وكان زكريا عليه السلام، يدخل عليها من آن لآخر محرابها، رعاية لها، وعناية بها وتفقدًا لأحوالها، فكان - على دهشة منه - يجد عندها رزقًا. ويعبر القرآن عن ذلك فيقول:

﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقًا قال: يا مريم: أنى لك هذا؟

قالت: هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾[1].

---

(١) يقول صاحب محاسن التأويل: فى الآية دليل على وقوع الكرامة لأولياء الله تعالى. كما وجد عند خبيب بن عدى الأنصارى رضى الله عنه - استشهد بمكة - قطف عنب - كما فى البخارى، وفى الكتاب والسنة لهذا نظائر كثيرة ومن اللطائف هنا ما نقله الإمام الشعرانى فى (اليواقيت) عن العارف بالله أبى الحسن الشاذلى قدس سره أنه قال: إن مريم عليها السلام، كان يتعرف إليها فى بدايتها بخرق العوائد بغير سبب تقوية لإيمانها وتكميلًا ليقينها، فكانت كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقًا. فلما قوى إيمانها بقيها ردت إلى السبب لعدم وقوفها معه، فقيل لها: وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبًا جنيا. اهـ.

أما عن قصة خبيب وقطف العنب فقد رواها الإمام البخارى فى حديث صحيح جليل عن

....

=أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة رهط سرية عينًا، وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري، جد عاصم بن عمر بن الخطاب فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهداة وهو بين عسفان ومكة ذكروا لحي من هذيل يقال لهم بنو لحيان فنفروا لهم قريبًا من مائتي رجل كلهم رام، فاقتصوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم تمرًا تزودوه من المدينة فقالوا: هذا تمر يثرب فاقتصوا آثارهم فلما رآهم عاصم وأصحابه لجأوا إلى فدفد وأحاط بهم القوم فقالوا لهم انزلوا وأعطونا بأيديكم ولكم العهد والميثاق ولا نقتل منكم أحدًا. فقال عاصم ابن ثابت أمير السرية: أما أنا فوالله لا أنزل اليوم في ذمة كافر، اللهم أخبر عنا نبيك فرموهم بالنبل فقتلوا عاصمًا في سبعة، فنزل إليهم ثلاثة رهط بالعهد والميثاق منهم خبيب الأنصاري وابن دثنة، ورجل آخر، فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيهم فأوثقوهم فقال الرجل الثالث: هذا أول الغدر، والله لا أصحبكم إن في هؤلاء لأسوة يريد القتل فجردوه وعالجوه على أن يصحبهم، فأبى فقتلوه.

فانطلقوا بخبيب وابن دثنة حتى باعوهما بمكة بعد موقعة بدر، فابتاع خبيبا بنو الحارث ابن عامر بن نوفل بن عبد مناف، وكان خبيب هو الذي قتل الحارث بن عامر يوم بدر، فلبث خبيب عندهم أسيرا فأخبرني عبيد الله بن عياض، أن بنت الحارث أخبرته أنهم حين اجتمعوا استعار منها موسى يستحد بها فأعارته. فأخذ ابنا لي وأنا غافلة حين أتاه قالت فوجدته مجلسه على فخذه والموسى بيده ففزعت فزعة عرفها خبيب في وجهي. فقال: تخشين أن أقتله، ما كنت لأفعل ذلك، والله ما رأيت أسيرا قط خيرا من خبيب والله لقد وجدته يوما يأكل من قطف عنب في يده وإنه لموثق في الحديد وما بمكة من ثمر، وكانت تقول إنه لرزق من الله، رزقه خبيبا فلما خرجوا من الحرم ليقتلوه في الحل، قال لهم خبيب: ذروني أركع ركعتين، فتركوه فركع ركعتين، ثم قال: لولا أن تظنوا أن ما بي جزع لطولتها اللهم أحصهم عددا:

ما أبالي حين أقتل مسلما ... على أي شق كان لله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

فقتله ابن الحارث فكان خبيب هو الذي سن الركعتين لكل امرئ مسلم، قتل صبرا، فاستجاب الله لعاصم بن ثابت يوم أصيب، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه خبرهم=

وتزكت مريم عليها السلام بالعبادة، وصفت نفسها، ورق شعورها، فأصبحت من الصفاء بحيث ترى الملائكة.

ورؤية الملائكة ومخاطبتهم أمر أقره القرآن الكريم، إن الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا: تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا، وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون، نزلاً من غفور رحيم﴾ (فصلت آية: ٣٠-٣٢).

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، يرى الملائكة، ويتحدث معهم، ولا يراهم من بجواره.

والإمام الغزالي عن تجربة يقول:

«إن السالكين في ابتداء الطريق حينما تصفو نفوسهم، وتتزكى يرون الملائكة».

وتزكت مريم، وبدأت ترى الملائكة، وبدأت الملائكة تتحدث إليها،

=وما أصيبوا وبعث ناس من كبار قريش إلى عاصم حين حدثوا أنه قتل ليؤتوا بشيء منه يعرف وكان قد قتل رجلا من عظمائهم يوم بدر فبعث على شيئا «فتح الباري بشرح» صحيح الإمام البخاري جـ ٦ ص ١٢٤، ١٢٥».

وتسدى إليها النصيحة وتوجهها إلى طريق الحق، وطريق الطاعة يقول سبحانه:

﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم: إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين﴾ (آل عمران آية: ٤٢).

قال ابن عباس والحسن وابن جريج:

اصطفاها على عالمى زمانها. قال ابن الأنبارى:

وهذا قول الأكثرين:

وبعد أن أثنت عليها الملائكة، هذا الثناء الجميل، قالت:
﴿يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين﴾ (آل عمران آية: ٤٣).

ثم يقول سبحانه وتعالى لنبيه وحبيبه وصفيه ومصطفاه:
﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم، وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾ (آل عمران آية: ٤٤).

وتعود الملائكة إلى مريم تتحدث إليها، ولم تكن فى هذه المرة موجهة أو آمرة، وإنما تزف إليها بشرى مذهلة:
﴿يا مريم، إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم﴾ (آل عمران آية: ٤٥).

يقول صاحب زاد المسير:

«وفى المراد بالكلمة ها هنا ثلاثة أقوال».

أحدها: إنه قول الله له: «كن» فكان، قاله ابن عباس، وقتادة.

الثانى: أنها بشارة الملائكة بعيسى، حكاه أبوسليمان.

والثالث: أن الكلمة اسم لعيسى، وسمى كلمة، لأنه كان عن الكلمة.

وقال القاضى أبو يعلى:

لأنه يهتدى به، كما يهتدى بالكلمة من الله تعالى.

ثم تحدثت الملائكة إلى مريم عن صفة هذا الذى بشرتها به فقالت عنه:

﴿وجيهًا فى الدنيا والآخرة ومن المقربين، ويكلم الناس فى المهد وكهلاً ومن الصالحين﴾ (آل عمران آية: ٤٥، ٤٦).

فوجئت مريم بذلك، فقالت فى تعجب واستفهام.

﴿رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر﴾؟

وكانت إجابة جبريل عليه السلام لها حاسمة، واضحة:

﴿قال: كذلك الله يخلق ما يشاء، إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون﴾.

واستمرت الملائكة فى ذكر بركات الله عليه فقالت:

﴿ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، ورسولاً إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير، فأنفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله، وأبرئ الأكمه والأبرص، وأحيى الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وماتدخرون فى بيوتكم، إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين. ومصدقا لما بين يدى من التوراة، ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم، فاتقوا الله وأطيعون، إن الله ربى وربكم فاعبدوه، هذا صراط مستقيم﴾ (آل عمران آية: ٤٨-٥١).

وإذا تأملنا قليلاً فى النص الإلهى وجدنا أن عيسى عليه السلام يقول:

إنه يفعل ما يفعل بإذن الله، ومعنى ذلك أنه ليس له من نفسه لقدرة على الخلق، أو الإبراء، وإنما ذلك كله «بإذن الله».

ويقول:

إنه رسول بنى إسرائيل.

وأنه مصدق لما بين يديه من التوراة.

ويختتم بقوله:

﴿إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾.

ونعود إلى مريم، عليها السلام من جديد.

لقد كنا مع مريم، وعيسى، عليهما السلام، من خلال سورة آل عمران.

والآن نصاحبهما من خلال سورة مريم التى ذكرت بعض تفاصيل لم تكن فيما مضى:

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانًا شرقيًا، فاتخذت من دونهم حجابًا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرًا سويًا. قالت: إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيًا، قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلامًا زكيًا، قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيًّا. قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منّا وكان أمراً مقضيًا. فحملته فانتبذت به مكانًا قصيًا. فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا. فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريًا. وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبًا جنيًا. فكلى واشربى وقرى عينًا فإما ترين من البشر أحدًا فقولى إنى نذرت للرحمن صومًا فلن أكلم اليوم إنسيًا. فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئًا فريًا. يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيًا. فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيًا. قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيًا. وجعلنى مباركًا أين ما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيًا. وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارًا شقيًا. والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيًا. ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه

يمترون. ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون. وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ (سورة مريم آية: ١٦-٣٦).

أرأيت إلى هذا التكريم الذى أحاط الإسلام به مريم عليها السلام، وعيسى عليه السلام؟

إنها فى التكريم السامى الذى أنزل الله فيه المصطفين من عباده المقربين.

وبينما يفترى اليهود على مريم افتراء نزهها الله عنه، وبينما يرميها قتلة الأنبياء بالفاحشة، ويتهمونها بالزنا، إذ بالقرآن، وبالجو الإسلامى كله، قديمه وحديثه، يعتبرها قديسة صديقة.

وبينما ينكر اليهود على عيسى، عليه السلام، نبوته، ويرمونه بالكذب إذ بالإسلام يعترف بنبوته، وبأنه عبد الله ورسوله، وبأنه مبارك، وبأنه وجيه فى الدنيا والآخرة.

وبينما ينكر بعض مؤرخى الأديان، مجرد وجود المسيح عليه السلام إذ لم تثبت لديهم الأدلة التاريخية على وجوده، وعللوا المسيح والمسيحية، بأنها من اختراع القديس بولس، وأن المسيح ليس إلا أسطورة لم يقع لها وجود إلا فى خيال القديس بولس، إذ بالإسلام يوجب على أتباعه، وجوبًا

حتميًا، الإيمان بعيسى عليه السلام، نبيًا، ورسولاً، ومباركًا، ووجيهًا فى الدنيا والآخرة.

إنه جزء من إيماننا نحن المسلمين: نبى، معصوم، مبرأ من المعصية، وأمه صديقة، اصطفاها الله وطهرها واصطفاها على نساء العالمين فى زمنها.

ومجمل القول فى أمر السيد المسيح عليه السلام هو مايقوله القرآن الكريم:

﴿واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت.... من مشهد يوم عظيم﴾.

من هذا الأساس ننطلق ونسير فى هذا الكتاب، نسير بحسب واقع بالفعل: أى أننا نصور واقعًا لا نخترعه، ونكتب عن حقائق لم نبتدعها، ونخط صفحات ناشئة عما حدث بالفعل، والله نرجو أن يهدى لها، وأن يهدى بها، وأن يفتح لها قلوبًا، ويرشد بها عقولاً، ويجعلها فى ميزان حسناتنا، إنه سميع قريب مجيب.

النهـــاية

إن الانسان دائماً مولع بالغيب، ويرجو معرفته.

إنه يسأل عن الماضى البعيد، عن أول الخلق، وعما قبل الخلق، وعن الزمن ومتى بدأ، وعن الكون وكيف تكوّن؟

ويسأل عن المستقبل البعيد، عن المصير والغاية.

إلى أين يسير هذا العالم، وما هى النهاية التى نحن ذاهبون إليها؟

ماذا بعد الموت؟ كيف ينتهى الكون؟

ومن أجل هذا الولع بالغيب تكونت الفلسفة، ومن أجل ذلك يقال دائماً إن الفلسفة فى شطرها الأكبر إنما هى محاولة الإجابة على:

من أين؟ وإلى أين؟

أى الإجابة على سؤال عن المبدأ، وسؤال عن المصير.

ولا تزال الفلسفة منذ العهد اليونانى إلى الآن تحاول الإجابة على:

من أين؟ وإلى أين؟

ولايزال الناس كذلك يريدون تعمقًا أكثر، واستقصاء أعمق.

ولقد تحدثت الأديان عن المبدأ والمعاد فى إجمال يتناسب مع الفائدة العامة بالنسبة لبنى البشر، وفى عموم تقتضيه الحكمة الإلهية.

لقد تحدثت الأديان عن المبدأ للعلم والمعرفة، وبيان قدرة الله وعظمته، وتحدثت عن المعاد للعلم والمعرفة، وللإنذار والتبشير.

وكما كان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه عن المبدأ، فإنهم كانوا يسألونه عن المعاد أيضًا.

ولقد سبق أن بينا صورة مجملة لرأى الدين فى المبدأ، ونذكر الآن، فى حلقات متتالية صورة مجملة لرأى الدين فى: إلى أين؟

كان الصحابة يسألون عن موعد نهاية العالم، لقد كانوا يريدون تحديدًا محددًا، وتاريخًا يقينيًا، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجيبهم على ذلك إجابة تتناسب مع مصلحة السائل، ومع المصلحة العامة، وهى مع ذلك لا تجافى الحق، ولا تتنافى مع الصدق.

لقد سأله مرة رجل فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟

وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبين له أن من الخير أن لا يشغل نفسه بالموعد، وإنما يشغل نفسه بالإعداد للساعة، أى بالعمل

الصالح الذى ينفعه عند قيام الساعة، فقال له: ماذا أعددت لها؟

فقال الرجل: ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام، إلا أنى أحب الله ورسوله.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: المرء مع من أحب.

وفرح الصحابة رضوان الله عليهم بهذه الكلمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم فرحًا كبيرًا، حتى لقد قال أنس رضى الله عنه:

فما رأيت المسلمين فرحوا بشىء بعد الإسلام فرحهم بذلك.

وما من شك فى أن الإنسان إذا أحب فى إخلاص الله ورسوله فإنه يعمل جاهدًا فى مرضاتهما، ومرضاتهما إنما تكون فى اتباع الوحى والاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا فعل الإنسان ذلك كان مع النبيين والصديقين، والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

والروح العامة للدين الإسلامى هى أن علم الساعة إنما هو عند الله تعالى:

﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدًا وما تدرى نفس بأى أرض تموت﴾.

وقد وجه الله سبحانه وتعالى الأذهان إلى الطريق الأمثل، فقال سبحانه:

﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها، فيم أنت من ذكراها، إلى ربك منتهاها، إنما أنت منذر من يخشاها، كأنهم يوم يرونها، لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾.

وفيما رواه ابن أبي شيبة عن أبي هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يومًا بارزًا للناس، فأتاه جبريل فقال:

يا رسول الله، متى الساعة؟

فقال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، ولكن سأحدثك عن أشراطها.

إن لنهاية العالم - المعبر عنها بالساعة - أشراطًا - أى علامات تنذر بوقوعها، ولا ريب فى أنها - بنص القرآن - تأتى بغتة، يقول تعالى:

﴿فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها﴾ (محمد آية: ١٨).

وهذه البغتة إذن ليست مطلقة مادامت هناك أشراط تنذر بوقوع الساعة، ونبدأ فى بيان هذه الأشراط بما رواه البخارى رضى الله عنه قال:

بينما النبى صلى الله عليه وسلم فى مجلس يحدث القوم جاءه أعرابى فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث. فقال بعض القوم: سمع ما قال، فكره ما قال وقال بعضهم: بل لم يسمع. حتى

إذا قضى حديثه، قال: أين السائل عن الساعة؟ قال: ها أنا يا رسول الله.

قال عليه الصلاة والسلام: إذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة.

قال الأعرابي: كيف إضاعتها؟

قال: إذا وسد الأمر إلى غير أهله، فانتظر الساعة.

وتفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم للأمانة يتضمن معان كثيرة، فوضع الوديعة عند خائن توسيد للأمر إلى غير أهله، والوظيفة يليها من ليس أهلاً لها توسيد للأمر إلى غير أهله، والحكم في القرية والمدينة يليه من ليس أهلاً له، توسيد للأمر إلى غير أهله، والمرأة تتخلى عن طبيعتها لتلبس طبيعة الرجل أو الرجل يتخلى عن طبيعته يلبس طبيعة المرأة توسيد للأمر إلى غير أهله.

كل هذا مناف للأمانة الفردية والأمانة الاجتماعية، ولقد ربط الإسلام برباط محكم بين الأمانة والإيمان فقال صلى الله عليه وسلم:

«لا إيمان لمن لا أمانة له (رواه أحمد وابن حبان والطبراني في الأوسط).

ومعنى ذلك أنه لا إيمان لمن أفشى سر صديقه، ولا إيمان لمن تجسس على الناس يتتبع عوراتهم وزلاتهم، ولا إيمان لمغتاب لأنه لا أمانة له، ولا إيمان لمرتش لأنه لا أمانة له.

وإذا ما حدثت كل هذه الانحرافات وشاعت، كان ذلك من علامات الساعة.

وإذا كانت هذه العلامة، وهى تضييع الأمانة عامة شاملة، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فصل الأمر تفصيلاً فى أحاديث عدة، ومن أطولها الحديث الشريف الذى روته كتب الصحاح: عن على رضى الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وسلم:

العلامة الأولى فيه أنه:

«إذا كان المغنم دولاً، أى إذا كان مال الدولة لقوم دون آخرين، يستمتع به أفراد دون أفراد.

والعلامة الثانية: هى أن تكون: «الأمانة مغنماً» أى إذا عدها الذى وضعت عنده غنيمة يستبيحها ويتصرف فيها ويخونها.

والعلامة الثالثة: أن تكون «الزكاة مغرماً» أى أن من تجب عليه الزكاة فى ماله لا يعتبر إخراجها فضيلة دينية وخلقية، وإنما يعتبره غرامة فلا يخرجها.

والعلامة الرابعة: «أن يطيع الرجل زوجته ويعق أمه» أى يطيع زوجته فيما تدبره لأمه من مكر ومن مكائد فيعق أمه التى حملته صابرة على المشقة ووضعته صابرة على المشقة، وأرضعته وربته وحنت عليه وآثرته على نفسها.

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «الجنة تحت أقدام الامهات». رواه ابن ماجه والنسائى بنحوه.

يقول الله تعالى:

﴿يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾ (الحج آية: ١، ٢).

ولقد ذكر الله سبحانه أحداث القيامة فى كثير من سور القرآن: ففى سورة الرحمن يخبر سبحانه أن السماء ستنشق وتصبح فى لون الورد الأحمر وفى سيولة الزيت.

وفى سورة الانفطار يبين الله سبحانه أن السماء ستنشق، وأن الكواكب ستنتثر متساقطة متهاوية زائلة، وأن البحار ستنفجر، وأن القبور ستبعثر فيخرج ما فيها ومن فيها.

وتتحدث سورة التكوير عن زوال الشمس عن فلكها، وعن الجبال يسيرها الله إلى مصيرها، وعن البحار تسجر، أى تتفجر مشتعلة باللهب متأججة بالنار.

والمعنى العام من ذلك أن هذا النظام الذى قدره الله تقديرًا محكمًا فى عالمنا هذا سيتغير ويتبدل فى صورة رهيبة مذهلة، وينتهى الأمر بأن يقف

الناس فى المحشر من أجل الحساب.

ويتفاوت الناس فى المحشر بحسب أعمالهم كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيما رواه الإمام مسلم عن جابر رضى الله عنه:

«يبعث كل عبد على ما مات عليه».

أى أن من ختم الله له بحسن الخاتمة فإنه يبعث على حال حسنة سارة أما من مات على السوء، فإنه يبعث فى حالة سيئة.

عن جابر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم - فيما رواه البزاز - قال:

«يبعث الله يوم القيامة ناسًا فى صور الذر يطؤهم الناس بأقدامهم، فيقال: ما بال هؤلاء فى صور الذر؟ فيقال: هؤلاء المتكبرون فى الدنيا».

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر فى صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، يساقون إلى سجن فى جهنم يقال له: بولس تعلوهم نار الأنيار يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال (رواه النسائى والترمذى وقال حديث حسن).

ويقول الله سبحانه وتعالى مصورًا حالة طائفة أخرى من أصحاب المعاصى:

﴿الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانًا وأضل سبيلاً﴾ (الفرقان آية: ٣٤).

وإذا كان هذا مصير الجبارين والذين اقترفوا الآثام، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يبين مصير سبعة أنواع من الناس فى هذا اليوم فيقول - فيما رواه الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه:

«سبعة يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله. رجل قلبه معلق بالمساجد، ورجل دعته امرأة ذات منصب فقال: إنى أخاف الله، ورجلان تحابا إلى الله، ورجل غض عينه عن محارم الله، وعين حرست فى سبيل الله، وعين بكت من خشية الله» رواه البيهقى فى الأسماء.

وقد يتساءل إنسان عن هذا اليوم: كم ساعة هو؟

وعن ذلك يروى الإمام أحمد عن أبى سعيد رضى الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«يومًا كان مقداره خمسين ألف سنة».

فقيل: ما أطول هذا اليوم!!

قال النبى صلى الله عليه وسلم:

والذى نفسى بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة (رواه أحمد، وأبو يعلى، وابن حبان فى صحيحه).

* * *

إننا لم ننته بعد من علامات الساعة وذلك أن العلامة العاشرة هى «لبس الحرير» والمراد بالحرير هنا الحرير الطبيعى الخالص والمراد بلبسه للرجال.

والأديان على وجه العموم لا تحب للرجل أن يسير فى حياته على سنة الترف المترف، وإنما تحب له الرجولة الكاملة التى من خصائصها ألا ينغمس فى أدوات الزينة، وفى المظهر الشكلى.

وما من شك فى أن الله جميل يحب الجمال. وفى أن الكتاب الكريم يقول:

﴿قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ (الأعراف: ٣٢).

يقول: **﴿يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾** الأعراف: ٣١.

ولكن ذلك كله شىء والانغماس فى الترف شىء آخر، ولقد حرم الإسلام لبس الحرير الطبيعى الخالص على الرجال، اللهم إلا لضرورة، ولم يحرمه للنساء.

والعلامة الحادية عشرة هى: «اتخاذ القينات والمعازف» أى إذا انكب الناس على قينات اللهو وآلات الطرب، وهذا الجو المثير للغرائز الصارف عن العمل الجدى، وعن الاتزان الأخلاقى.

والعلامة الثانية عشرة: إذا لعن آخر هذه الأمة أولها، وأول هذه الأمة هو سلفها الصالح، إنه الجيل الذى حقق المثل العليا فى الأخلاق الفاضلة وفى البطولة الحقة، فإذا سخر به ساخر أو تهكم عليه متهكم، أو لعنه لاعن، فذلك من أشراط الساعة.

وبعد أن ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه العلامات أنذر من تتحقق فيهم قائلاً:

«فليرتقبوا عند ذلك ريحًا حمراء أو خسفًا أو مسخًا».

والخسف والمسخ قد يكون جزئيًا فيكون تدمير مدينة أو تدمير شخص.

وقد يتسع نطاقه فيكون تدمير عدة مدن، وقد يكون ذلك بفعل صواعق، وقد يكون بفعل الزلازل.

وعن عمران بن حصين رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«فى هذه الأمة خسف ومسخ وقذف».

فقال رجل من المسلمين: يا رسول الله، ومتى ذلك؟

قال: إذا ظهرت القينات والمعازف وشربت الخمور.

ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة الخسف والمسخ فسألته السيدة عائشة رضوان الله عليها قائلة:

يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون.

قال: نعم، إذا ظهر الخبث.

ومن العلامات التي ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث آخر: أن يرفع العلم ويظهر الجهل.

والعلم المقصود هنا هو العلم بالله، أي العلم بالأساس الأول للعقيدة والأخلاق والخير والحق.

وإذا طغت الماديات على الاتجاه الروحي فأصبح صوت الدين خافتا وضعف الشعور الديني شيئا فشيئا حتى انتهى الأمر بالدين إلى أن أصبح غريبا، وانتهى الأمر بالمجتمعات إلى أن أصبحت مادية، فإن ذلك من أشراط الساعة ومعنى كل ذلك: أن السمة العامة في أشراط الساعة إنما هي انتشار الفساد والبعد عن الله وعن الحق والخير والفضيلة، ومن هنا كان قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الشيخان «لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس».

ان مما روته كتب الصحاح أنه: لا تقوم الساعة حتى تكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج وهو القاتل.

والجو العام في الأحاديث التي تعبر عن أشراط اساعة هو أن المجتمعات الإنسانية سائرة على وجه العموم في طريق التخلي عن الدين، وإذا تخلى الإنسان عن الدين اتبع هواه، وانقاد لغرائزه فساد الشر وكثر

شقاء الإنسانية وعن ذلك يعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول:

«لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الأرض: الله. الله».

وهذه الحالة تأتى تدريجا وذلك أن الصالحين يذهبون الأول، فالأول، وتبقى حثالة الشعير، أوالتمر ولايباليهم الله بشىء، على حد تعبير رسول الله صلى الله عليه وسلم..

بل إن الله سبحانه وتعالى – على ما رواه الإمام مسلم – يبعث ريحًا من اليمن ألين من الحرير فلا تدع أحدًا فى قلبه مثقال حبة من إيمان إلا قبضته.

فإذا ما ارتفع الإيمان كانت الخاتمة المحتومة بالنسبة للكون وهى التدمير المطلق أو بتعبير آخر: كان المصير هو يوم القيامة.

وإنه لمن المعلوم من الجو الإسلامى أن الله سبحانه وتعالى يشقى الأفراد ويسعدها بنسبة إيمانها نقصًا وزيادة. هذه سنته سبحانه وتعالى فيمن سلف ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

هذه الأخبار سمعتها السيدة عائشة رضوان الله عليها، فأثارت فى نفسها سؤالاً وجهته لرسول الله صلى الله عليه وسلم. روى الإمام مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال:

«لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى».

فقالت عائشة: يا رسول الله، كنت أظن حين أنزل الله:

﴿هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ أن ذلك تام - أى سيستمر زمانًا ومكانًا إلى نهاية العالم.

فقال صلى الله عليه وسلم: إنه سيكون من ذلك ما شاء الله، ثم يبعث الله ريحًا طيبة فتوفى كل من فى قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، فيبقى من لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم.

ويصف رسول الله صلى الله عليه وسلم شقاء الإنسانية فى آخر الزمان بسبب ضعف الإيمان شيئاً فشيئاً فيقول فيما رواه الشيخان:

«والذى نفسى بيده لا تذهب الدنيا حتى يمر الرجل بالقبر فيتمرغ عليه فيقول:

يا ليتنى مكان صاحب هذا القبر، وليس به الدين، ما به إلا البلاء».

فإنه لا يتأتى - ونحن بصدد الحديث عن أشراط الساعة - أن نغفل الحديث الذى فيه بشرى للمسلمين.

فعن أبى هريرة رضى الله عنه - فيما رواه الإمام مسلم - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون، حتى

يختبئ اليهود من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يامسلم، يا عبدالله هذا يهودى خلفى فتعال فاقتله».

وهذا الحديث حديث صحيح وبشرى رسول الله صلى الله عليه وسلم لاشك فيها، وستنتصر إن شاء الله الأمة الإسلامية بإيمانها وجهادها وثقتها فى الله وإعزازها لدينه وتتحقق بذلك بشرى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كان من المفروض أن نكتب عن رسول الله صلى الله عليه بعد أن كتبنا عن سيدنا عيسى، ولكننا كتبنا عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كتابًا بعنوان «الرسول صلى الله عليه وسلم لمحات من حياته وأضواء من هديه» وترجمنا كتابًا بعنوان: «محمد رسول الله».

وطبع كلاهما عدة مرات.

ومن أجل ذلك نتخطى الزمن فنصل إلى النهاية، ثم إلى خاتمة الكتاب.

خـــاتمــة

المعرفة نوعان:

معرفة مادية مثل قوانين الطبيعة والكيمياء والفلك.

وهذا النوع من المعرفة من كسب الإنسان عن طريق العقل، وهو النوع الذى يعبر عن الحضارة فى شطرها المادى، ومعرفته تتأتى عن استنتاج العقل من نتائج وسائل المعرفة وهى: الملاحظة والتجربة والاستقراء.

وهذا النوع هو مظهر الحضارة الحالية الغالب.

أما النوع الثانى من المعرفة فإنه الخاص بالعقيدة، والأخلاق، والتشريع ونظام المجتمع.

وهذا النوع هو من صنع الله سبحانه وتعالى يوحى به ويبينه على ألسنة رسله.

ورسالة الرسل عليهم الصلاة والسلام هى أن يبينوا عن الله المبادئ

الخاصة بالعقيدة والقوانين التى بها ينتظم المجتمع: أفرادًا وجماعات.

وجاء هذا البيان منذ آدم عليه السلام.

وكانت دعوة آدم تتجه على الخصوص إلى أساسين من أسس المجتمع الصالح:

١ - أما أولهما فهو عقيدة التوحيد، والحق أن هذه العقيدة هي عقيدة أرسل بها كل الرسل.

لقد تحدثوا جميعًا عن التوحيد: توحيد الألوهية فى الذات وتوحيدها فى الفعل:

﴿قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد﴾.

﴿الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض، من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء، وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم﴾ (البقرة: ٢٥٥).

﴿قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء، بيدك الخير، إنك على كل شىء قدير﴾ (آل عمران: ٢٦).

﴿إليه يرجع الأمر كله﴾ (هود: ١٢٣).

﴿لا إله إلا هو إليه المصير﴾ (غافر: ٢).

﴿أفرأيتم ما تمنون، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون، نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين، على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لاتعلمون، ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون * أفرأيتم ماتحرثون، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون، لو نشاء لجعلناه حطامًا فظلتم تفكهون، إنا لمغرمون، بل نحن محرومون * أفرأيتم الماء الذى تشربون، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون، لو نشاء جعلناه أجاجًا فلولا تشكرون * أفرأيتم النار التى تورون، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون، نحن جعلناها تذكرة ومتاعًا للمقوين، فسبح باسم ربك العظيم﴾ (الواقعة: ٥٨-٧٤).

﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه، أنا صببنا الماء صبًا، ثم شققنا الأرض شقًا، فأنبتنا فيها حبًا، وعنبًا وقضبًا، وزيتونًا ونخلًا، وحدائق غلبًا، وفاكهة وأبًا متاعًا لكم ولأنعامكم﴾ (عبس: ٢٤ - ٣٢).

التوحيد:

إنه دين الأنبياء جميعًا.

وآدم باعتباره الأب للبشرية جميعًا، كان يبشر بالتوحيد، ويبشر بأمر آخر يستلزمه التوحيد هو أساس ثان من أسس المجتمع الصالح: ذلك هو

التوبة الصادقة، إنه الرجوع الفورى إلى الله فى صدق حينما يحس الإنسان أنه انحرف عن الصراط المستقيم، إنه الإنابة إلى الله عند الهفوة.

والمثل الكريم فى ذلك هو آدم نفسه الذى نادى فى صدق:

﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ (الأعراف: ٢٣).

ويمضى الزمن بالإنسانية فتغفل نوعًا ما عن الاستغفار والتوبة والرجوع إلى الله عند الهفوة، فيرسل الله نوحًا عليه السلام ليصحح فى المجتمع عقيدة التوحيد، ويحيى فى المجتمع الشعور بالاستغفار، يقول سبحانه:

﴿ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه إنى لكم نذير مبين، ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم﴾ (هود: ٢٦ - ٢٧).

ويقول سبحانه على لسان نوح عليه السلام:

﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارًا، يرسل السماء عليكم مدرارًا، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارًا﴾ (نوح: ١٠ - ١٢).

وأخذ نوح يدعو ليلاً ونهارًا، سرًا واعلانًا.. ثم..

﴿وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن

فلا تبتئس بما كانوا يفعلون، واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾ (هود: ٣٦ - ٣٧).

ولقد أرسل الله رسلاً يعالجون أمراضًا معينة فى المجتمع، ومع معالجتهم لهذه الأمراض كانوا يصححون التوحيد، أو قل انهم يحاولون معالجتهم للمجتمع على أساس من تصحيح التوحيد: فلوط عليه السلام كان يعالج فى مجتمعه الشذوذ الجنسى، يقول تعالى:

﴿ولوطًا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين، إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون، وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون، فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين، وأمطرنا عليهم مطرًا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾ (الأعراف آية: ٨١ - ٨٤).

﴿ولما جاءت رسلنا لوطًا سيء بهم وضاق بهم ذرعًا وقال هذا يوم عصيب. وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات، قال يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى، أليس منكم رجل رشيد؟. قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق، وإنك لتعلم ما نريد، قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد، قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم، إن

موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب، فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك، وما هى من الظالمين ببعيد﴾ (هود: ٧٧ - ٨٣).

وقال تعالى:

﴿فلما جاء آل لوط المرسلون، قال إنكم قوم منكرون، قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون، وأتيناك بالحق وإنا لصادقون، فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون، وقضينا إليك ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين، وجاء أهل المدينة يستبشرون، قال إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون،واتقوا الله ولا تخزون، قالوا أو لم ننهك عن العالمين، قال هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين، لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون، فأخذتهم الصيحة مشرقين، فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل، إن فى ذلك لآيات للمتوسمين، وإنها لبسبيل مقيم، إن فى ذلك لآية للمؤمنين﴾ (الحجر: ٦١ - ٧٧).

وقال تعالى:

﴿كذبت قوم لوط المرسلين، إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون، إنى لكم رسول أمين، فاتقوا الله وأطيعون، وما أسألكم عليه من أجر، إن أجرى إلا على رب العالمين، أتأتون الذكران من العالمين، وتذرون

ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون، قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين، قال إنى لعملكم من القالين، رب نجنى وأهلى مما يعملون، فنجيناه وأهله أجمعين، إلا عجوزا فى الغابرين، ثم دمرنا الآخرين، وأمطرنا عليهم مطرًا فساء مطر المنذرين، إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين، وإن ربك هو العزيز الرحيم﴾ (الشعراء: ١٦٠ - ١٧٥).

ويقول سبحانه:

﴿ولوطًا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون، أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون، فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون، فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين، وأمطرنا عليهم مطرًا فساء مطر المنذرين﴾ (النمل: ٥٤-٥٨).

وقال تعالى:

﴿ولوطًا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين، أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين، قال ربى انصرنى على القوم المفسدين، ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين، قال إن فيها لوطًا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله

إلا امرأته كانت من الغابرين، ولما أن جاءت رسلنا لوطًا سيء بهم وضاق بهم ذرعًا وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين،إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون، ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون﴾ (العنكبوت: ٢٨-٣٥).

ويونس عليه السلام كان يجدد بعمله وقوله التسبيح.

﴿فلولا أنه كان من المسبحين، للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾ (الصافات: ١٤٤).

وشعيب عليه السلام، كان يعالج تطفيف الكيل والميزان.

يقول الله تعالى:

﴿وإلى مدين أخاهم شعيبًا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، قد جاءتكم بينة من ربكم، فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾ (الأعراف: ٨٥).

ويقول تعالى:

﴿وإلى مدين أخاهم شعيبًا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير، وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط، ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط، ولا تبخسوا

الناس أشياءهم ولاتعثوا فى الأرض مفسدين. بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين. وما أنا عليكم بحفيظ﴾ (هود: ٨٤-٨٦).

ويقول سبحانه:

﴿كذب أصحاب الأيكة المرسلين، إذ قال لهم شعيب ألا تتقون، إنى لكم رسول أمين، فاتقوا الله وأطيعون، وما أسألكم عليه من أجر، إن أجرى إلا على رب العالمين، أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين، وزنوا بالقسطاس المستقيم، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين﴾ (الشعراء: ١٧٦-١٨٤).

وموسى عليه السلام كان يعالج قلوب بنى إسرائيل المتحجرة وإيمانهم الهش الذى استعصى عليه، وهم الذين وصل بهم الأمر أن قالوا:

﴿يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال: إنكم قوم تجهلون، إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون (الأعراف: ١٣٨ - ١٣٩).

وعيسى عليه السلام حاول أن يبعث فى قلوب اليهود الرحمة.

أما محمد صلى الله عليه وسلم فكان يعالج المجتمع ككل.

يعالج فيه العقيدة.

ويعالج فيه الأخلاق.

ويعالج فيه التشريع.

ويعالج نظام المجتمع.

ويدفعه إلى العلم.

ومن أهداف رسالته أنه:

يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم.

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ (الجمعة آية: ٢)

ويمتن الله على أن بعث في العرب رسولاً منهم:

﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ (آل عمران: ١٦٤).

ويقول سبحانه:

﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

لقد كان صلوات الله وسلامه عليه يعالج المجتمع ككل، ويسوقه إلى حضارة يتكامل فيها:

العلم والإيمان.

حضارة علمية مؤسسة فى أسسها، وفى سيرها، وفى أهدافها على الإيمان.

ومن هنا كانت رسالته الخالدة، وكان خاتم الرسل.

ولقد حفظ الله كتابه:

﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ (الحجر آية: ٩).

وحفظ هذا الذكر دون تغيير أو تبديل، وضمان الله، أن لا يصيبه تغيير أو تبديل: معناه أن محمدًا رسول خالد، لأن الرسول: رسالة، وما دامت الرسالة قائمة كاملة، فإنها رسول قائم.

وانتفت الحاجة إذن إلى رسول جديد، وكما يقال من: قاديانية، ومن بهائية، ومن زيف كثير بدأ بمسيلمة ومدعى النبوة من العرب المزيفين كل هذا هراء لا قيمة له، وقد أثبت الزمن، وما زال يثبت أن النبوة ختمت بمحمد صلى الله عليه وسلم.

وأخرج محمد صلى الله عليه وسلم المجتمع القرآنى إلى واقع، إنه واقع استمر، وطبق محمد صلى الله عليه وسلم المبادئ الإلهية القرآنية فى مجتمع فسدت فيه الفضيلة والقيم المثالية.

وليس هناك من عقبة حقيقية فى سبيل إخراج هذا المجتمع من جديد: اللهم إلا النفوس والشهوات.

ولقد ضمن الله سبحانه وتعالى السعادة والنصر والفوز للمجتمع القرآنى: المؤسس على الإيمان والعمل الصالح.

﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون﴾ (النحل: ٩٧).

﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ (الأعراف: ٩٦).

﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز. الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾ (الحج: ٤٠، ٤١).

* * *

لقد سافرنا فى رحاب الكون الروحية مدة طويلة، سافرنا فيها زماناً مبتدئين من يوم «كان الله ولا شيء معه» وسافرنا فى هذه الرحاب مكاناً متنقلين مع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم من إقليم إلى إقليم.

وكما أن أرجاء الكون تمتلئ بالظواهر المادية، فإنها أيضًا مليئة بالظواهر الروحية، وكما أن الله سبحانه وتعالى خلق الكون ماديًّا فأبدع خلقه وتكوينه ورسم قوانينه ومظاهره فى احكام واتقان، فإنه سبحانه عنى بالكون روحيًّا ورعاه فى زواياه الأخلاقية والعقيدية، فأرسل إليه الرسل والأنبياء منذرين ومبشرين وقد آن لهذه الرحلة أن تنتهى، وأن نتحدث عن المعجزة الكبرى وهي القرآن الكريم لنجعلها بتوفيق الله مسك الختام.

يروى قتادة رضى الله عنه، وهو من خيار التابعين، أن موسى عليه السلام قال:

يارب إنى أجد فى الألواح أمة أناجيلهم فى صدورهم يقرأونها وكان من قبلهم يقرأون كتبهم نظرًا حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئا ولم يعرفوه، وأن الله أعطاهم من الحفظ شيئا لم يعطه أحدًا من الأمم، قال موسى عليه السلام: رب اجعلهم أمتى قال الله تعالى: تلك أمة أحمد.

ومما تعنيه كلمة سيدنا موسى عليه السلام أن ما يميز الأمة الإسلامية عن غيرها من أهل الديانات الأخرى أنها تحفظ كتابها، وهو القرآن الكريم عن ظهر قلب، وهذه الميزة حقيقة واقعة، وذلك أن حفظ القرآن شائع فى مختلف الأقطار والجاليات الإسلامية.

وقد بدأ الصحابة رضوان الله عليهم بحفظ القرآن مع العمل به، لقد كانوا يحفظونه ويطبقونه فى الأخلاق، وفى التشريع، وفى العقيدة، لقد حكم حياتهم فيها، فاستناروا فى طريقهم به، واهتدوا فى حياتهم بهديه.

أما السبب فى اهتمامهم به على هذه الصورة فلأنه كما وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً:

عليكم بكتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، هو

الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن خاصم به أفلح، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم.

ولقد كان من رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده أن رسم لهم فى القرآن طريق السعادة فى دنياهم وفى أخراهم، وهو طريق لا استحالة فيه ولامشقة، وقد جربه الكثيرون ففازوا بالسعادتين.

لقد استراحوا فى هذه الحياة الدنيا : لقد غمرهم الرضى، وأحاط بهم الاطمئنان ولفتهم أردية السعادة.

ولقد ضمن الله لهم حياة هنيئة فى الآخرة، يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله، ويكفل لهم عدم الخزى حين يغمر الخزى كثيرًا من الخلائق، ويدخلهم الجنة برحمته، ويريهم وجهه الكريم تفضلاً منه سبحانه، هذه السعادة فى الدنيا والآخرة وعد الله بتحقيقها لكل من توافر فيه شرطان:

الأول : الإيمان.

الثانى : العمل الصالح.

﴿من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾.

ونسأل الله سبحانه التوفيق والهداية، ونرجوه السعادة والرشاد. وهو حسبنا ونعم الوكيل.

محتويات الكتاب

صفحة

رقم الإيداع	١٩٩٩/١٦٥٣
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-5726-5

١/٩٨/١٢٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)



يُعَدُّ الإمام الأكبر فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود صاحب ورائد مدرسة الفكر الإسلامى والتصوف فى العصر الحديث ، ولقب بأبى التصوف فى العصر الراهن ، فقد أثرى المكتبة العربية بأمهات الكتب بين تحقيق وتأليف وترجمة ، فمنها دراساته القيمة عن الإمام الغزالى وكتابه « المنقذ من الضلال » ، و « دلائل النبوة » ، و « القرآن فى شهر القرآن » إلى جانب ما كتبه عن رواد التصوف على مر العصور الإسلامية المختلفة .

والإمام الأكبر فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود له عمق وغزارة الآراء الفقهية ودقة الاجتهادات مما جعله يكسب صفوف المعارضين قبل المؤيدين ، إلى جانب اللباقة والدراية الكاملة فى عرض أى موضوع أو مسألة تتعلق بأمور الدين ، وأيضا يمتاز بقوة ورصانة الأسلوب والعبارات ، مما يدل على المهارة الفائقة والملكة اللغوية فلهذا اكتسب هذا العالم الجليل احترام كل الفرق والمذاهب الإسلامية فى شتى بقاع العالم ، وسيبقى هذا العالم وتراثه فى قلوبنا على مر العصور .

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

دار المعارف

٠١٨٨٩٦/٠١